التراث الهندي

من العصر الآري إلى العصر الحديث

أ. د. همايون كبير



علي مولا

ترجمة: البروفيسور ذكر الرحمن

التراث الهندي

من العصر الآري إلى العصر الحديث

أ. د. همايون كبير

ترجمة:
البروفيسور ذكر الرحمن

مراجعة:
عمر الأيوبي





©هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

التراث الهندي من العصر الآري إلى العصر الحديث
همايون كبير

©حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1431 هـ 2010 م

DS421.H812 2010
Kabir, Humayun.
[The Indian Heritage]

التراث الهندي: من العصر الآري إلى العصر الحديث / همايون كبير؛ ترجمة: ذكر الرحمن، مراجعة: عمر الأيوبي. ـ ط.1. ـ أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2010.
168ص ؛ مص؛ 14 x 21 سم.
تدمك: 978-9948-01-569-7
ترجمة كتاب: **The Indian Heritage**
1 ـ الحضارة الهندية. 2- الهند-تاريخ. أ- ذكر الرحمن. ب- العنوان.

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
The Indian Heritage, by Humayun Kabir
© 2003 World copyright **Librairie Artheme Fayard**





ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ، فاكس: 059 6336 2 971+
إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

المحتويات

المقدمة

لعل في إيراد ملخص لتاريخ الهند السياسي ما يساعد على تفهّم ما تم في الثقافة الهندية من عمليات التوحيد والتنسيق، وهي موضوع دراستنا ومعالجتنا في هذا الكتاب. ولما كان تاريخ الهند يرجع إلى خمسة آلاف عام، فمن الطبيعي أن لا نتمكن في نطاق صفحات هذا الكتاب المحدود من تقديم عرض وافٍ للأحداث التاريخية التي تعاقبت في تلك الحقبات من التاريخ. وعلاوة عن ضيق المجال، فإن الوقت لم يحن بعد لوضع تاريخ مفصل شامل لحياة الشعب الهندي من الناحيتين السياسية والاجتماعية.

وقد شرع المؤرخون قبل خمسة وعشرين عاماً في سرد أحداث الهند التاريخية إلى نزوح الآريين إليها، والواقع أن معلوماتنا عن الحقيقة التي سبقت العام 600 قبل الميلاد ما زالت حتى يومنا هذا محدودة غير كاملة، كما أن الصعاب التي يجابهها المؤرّخ من هذه الناحية لا تقتصر على العصور القديمة، بل تتجاوزها إلى الفتح الإسلامي، بالرغم من وجود بعض الوثائق والمستندات عنها. أما فترة الحكم البريطاني، القريبة العهد منا، فليس لدينا وثائق كثيرة عنها. وبما أن هذه الأحداث لا تزال قريبة العهد منا، لا يمكننا إجراء تحليل نزيه لها بعيد عن الهوى. جل ما نحتاج إليه إيفاء للغايات المقصودة من هذا الكتاب، هو رسم صورة عامة للأحداث. وأملنا أن يكون هذا العرض الخاطف مرجعاً أساسياً للقراء الذين ليس لديهم إلمام بتاريخ الهند.

تدل الاكتشافات الأخيرة على قيام حضارة راقية منذ ثلاثة آلاف عام قبل الميلاد في المناطق الشمالية والشمالية الغربية من الهند، وهي الحضارة التي كثيراً ما تعرف بحضارة وادى الإندوس Indus. وكانت البراهين القائمة حتى الفترة الأخيرة توحي بأن هذه الحضارة كانت مقتصرة على منطقي «موهنجودارو» Mohenjodaro و«هارابا» Harappa، وإن كان قد

عثر على بعض آثارها في الحقبة الأخيرة في وادي نهر «سُتلج» Sutlej في «جيسلمير» Jaisalmer من أعمال «راجستان» Rajasthan. وامتدت هذه الحضارة إلى أبعد من ذلك جنوباً حتى «لوتال» Lothal الواقعة على مقربة من «أحمدأباد». وقد غدا من الواضح الآن أن هذه الحضارة القديمة لم تنحصر في وادى الإندوس، بل انتشرت شرقاً وجنوباً فشملت نصف شبه القارة الهندية.

لا يمكن الفصل بصورة قاطعة في حقيقة السكان الذين استوطنوا منطقتي موهنجودارو وهارابا أو التثبّت من الأماكن التي نزحوا إلى الهند منها، لكن البقية الباقية من آثارهم تشير إلى وجود تشابه مدهش بينهم وبين سكان «سومر». وللمؤرخين آراء شتى في تعليل هذا التشابه، فيرى بعضهم أن هذه الحضارة امتدت من حوض الإندوس باتجاه غربي حتى بلغت شواطئ دجلة والفرات. واعتقد بعضهم الآخر بأنها وصلت إلى الهند من «سومر». مهما يكن من أمر فإن هذه الحضارة كانت قد بلغت درجة من النضوج حوالي عام 3000 قبل الميلاد. لذا يجوز لنا أن نقرر بأن بدايتها ترجع إلى ما قبل ذلك التاريخ بخمسمئة عام.

تعتبر حضارة وادى الإندوس من أول العناصر الملموسة في تطور الثقافة الهندية. وقد استمرت آثار هذه الحضارة إلى يومنا هذا، الأمر الذي حمل بعض المؤرخين على الاعتقاد بأنها هي الأم للهند الحديثة. وقد يكون هذا الادعاء مبالغاً فيه بيد أنه إغراق في تأكيد حقيقة واقعة. وانحرفت ثقافة الهند التاريخية من عدة نواح عن طابعها العريق. ويلوح أن حضارة موهنجودارو تركزت في المدن، بينما نرى الحياة الهندية تتفجر عيونها على مر القرون من الينابيع الريفية. ومهما كان الأمر، فإن آثارها ما برحت تتكشف لنا من الحياة التي يحياها أفراد الشعب. والواقع أن الأزياء والأدوات المنزلية والأواني الفخارية التي ما زالت تستعمل حتى يومنا هذا

إنما يرد أصلها إلى عهد «موهنجودارو». وقد ذهب بعضهم إلى القول بأن بعض المعتقدات الدينية القائمة في الوقت الحاضر، كالاعتقاد بالأم إلهة وتقديس البقر وعبادة «شيفا» Shiva إنما ترجع في أصلها إلى تلك الثقافة القديمة.

ويؤخذ من إحدى النظريات أن أهم أثر لهذه الحضارة يتجلى في سجايا الهنود وطبائعهم، إذ لم يعرف عن الآريين الذين عاشوا في أنحاء العالم الأخرى أنهم كانوا أمة ذات نزعة سلمية. والواقع أنهم اشتهروا بنزعتهم إلى الحروب وميلهم إلى القتال. لذا فإن من المشكوك فيه أن موقف الهنود المعروف حيال الحرب والعنف يرجع في أصله إلى أرومة آرية. أما النزعة السلمية التي ربما تجلت في سكان منطقة موهنجودارو وهارابا، فكانت في رأى بعض المؤرخين من بين الأسباب الرئيسية التي أدت إلى اندحارهم أمام جحافل الآريين. ولعل الآريين إذا ما قيسوا بمعايير الحضارة كانوا دون سكان منطقتي موهنجودارو وهارابا تمدناً، غير أن ما عرف عنهم من شدة البأس والمران في الشؤون الحربية، أتاح لهم النصر والغلبة على خصومهم.

وبقدر ما تصل إليه معلوماتنا من مدى، فإن الآريين أخذوا يتوافدون على الهند حوالي العام الألفين قبل الميلاد، إلا أن هجرتهم هذه لم تكن على نطاق واسع، ولم تنطوِ على حركة تنقل واسعة. والمفهوم أن جماعات منهم شقت طريقها عبر المناطق الجبلية التي تحمي الحدود الشمالية للبلاد الهندية. ويجب ألا يغرب عن البال أن عملية العبور قد استغرقت عشرات السنين، إن لم تستمر طوال قرون. فقد كانوا قوماً رحّلًا والماشية من أهم مصادر الثروة عندهم، وإن ورد في شعرهم القديم ما يشير إلى اهتمام بالزراعة. ومما لايستبعد أنهم برعوا في استخدام الحديد وترويض الخيل، على عكس ما كان عليه سكان منطقة «موهنجودارو»، وذلك مما ضمن لهم التفوّق عليهم في ميادين الحرب ومهّد السبيل إلى الانتصار الآري.

وقد حطّ الآريون رحالهم في القرى. وبعد أن استقروا فيها أخذوا يعملون على تنمية ذلك النمط من الحياة الريفية الذي استمر إلى يومنا هذا دون أن يطرأ عليه تغيير أساسي. وتأثرت مؤسساتهم الاجتماعية ومعتقداتهم الدينية وأساليب عبادتهم بما كان يسود الهند في ذلك الحين من معتقدات وطقوس، إلا أنهم بدورهم تركوا أثراً في حياة سكان البلاد الأصليين. وليس من الثابت ما إذا كان الآريون جاؤوا بالأسفار الفيدية معهم أم قاموا بتأليف الترانيم الفيدية بعد وصولهم إلى البلاد. وسيان أكان الأمر هذا أو ذاك، فإن هذه الأسفار أصبحت بالنسبة إلى أغلبية سكان الهند مصدراً للمعتقدات الدينية. والواقع أن الإيمان بالخالق والتعاليم الفيدية وبفلسفة تقمص الأرواح لا تزال وحدها أساساً للعقيدة الهندوسية على وجه التقريب. ومن أبرز آثار الآريين في البلاد، تقسيم المجتمع الهندي على أساس المهن إلى أربع طبقات، وتقسيم حياة الفرد إلى مراحل أربع. ولسنا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن المجتمع الآري الحديث الذي وجد في الهند ما بين العام الألف والعام الألف والخمسمئة قبل الميلاد لا يزال حتى يومنا هذا يعتبر أساساً للحياة عند الهندوس الذين تتألف منهم أغلبية السكان.

ولا تتوفر لدينا مصادر تاريخية مضبوطة تميط اللثام عن المراحل الأولى لاستيطان الآريين للهند، على أنه من الميسور رسم صورة عن حياة السكان في تلك الحقبة من بطون الملاحم وغيرها من المصادر الأدبية الهندية. وأهم هذه الملاحم ملحمتي راماينا ومهابهارتا. ويؤخذ من رواية راماينا أن هناك حقبة أقدم من هذه، لم يتمكن خلالها الآريون من بسط سيطرتهم على الهند بأسرها. ويميل بعضهم إلى اعتبارها سجلاً لتسلل الآريين إلى المناطق الجنوبية من الهند. وقد وردت عدة إشارات إلى قيام الآريين ببناء المدن، ولكن من الواضح أن أهم المدن وأعظمها شأناً قد بناها واستوطنها أناس من غير الآريين. ذلك أن أغلبية العناصر الآرية قد آثرت الانصراف

إلى الشؤون الزراعية رغم اتساع المجال للقيام بنشاط ارتيادي على أطراف المستعمرات التي أقاموها.

وفي عهد مهابهارتا خضعت الهند بأسرها للنفوذ الآري. ومع أن الآريين أقاموا وشيدوا بأنفسهم عدداً من المدن الكبيرة، إلا أن أغلبيتهم استمرت تعيش في المناطق الريفية. أما نمط الحياة الذي اختاره الآريون لأنفسهم فلا يختلف كثيراً عن نمط الحياة السائد في الوقت الحاضر. وفي عهدهم شهدت التجارة انتعاشاً ولاقت الأسواق رواجاً، ولكن مما يجدر بالملاحظة أن الآريين مع ذلك كانوا يعتمدون على غيرهم من البنائين والمهندسين العاديين في تنفيذ مشاريعهم الجبارة.

ويلاحظ أن شخصيتي «رام» Ram و«كرشنا» Krishna تسيطران على هاتين الملحمتين، وإن كانت الفترة التاريخية التي عاشا فيها لم تعيّن بعد. وليس من الثابت حتى الآن إذا كان رام شخصاً واقعياً أم أنه في عداد الملوك المتألّهين، وما تحيط به من شكوك تحيط أيضاً بشخصية كرشنا. وتجدر الإشارة إلى أنهما كانا من ذوي البشرة السوداء على ما يعتقد، في حين أن الآريين كانوا من ذوى البشرة البيضاء. وكانوا في المراحل الأولى من استيطانهم البلاد يتفاخرون بهذه الميزة. وفي احتقارهم وامتهانهم لأعدائهم من ذوى البشرة السوداء مصدر غبطة لذلك النفر الذين يتعصبون للنظرية القائلة بتفوق الجنس الأبيض. أما الأساليب التي حملتهم على الاعتراف بـ «رام» و«كرشنا» كأبطال وآلهة فما زالت سراً من الأسرار، وإن كان في الإمكان تفسيرها وتعليلها بأنها حركة دبلوماسية بارعة كان لها آثارها البعيدة في كسب ود سكان البلاد الأصليين.

وما إن استقر بهم الحال حتى غدت نظمهم الاجتماعية أشد صرامة، كما أن التقسيم المحقق السائد للمجتمع مهنياً، وهو التقسيم الذي كان متبعاً منذ العصور السالفة، أخذ يتحوّل إلى تقسيم على أساس الطبقات. وشهدت

البلاد لمدة طويلة صراعاً لانتزاع السلطة والسيادة بين طبقة البراهمة أو القساوسة الهندوس وطبقة «الكشتريين» Kashattriya أو طبقة المحاربين. وقد نجح البراهمة بمرور الزمن في بسط سيطرتهم على المجتمع الهندي بأسره، كما أخذت الديانة الفيدية البسيطة تنهار أمام ديانة البراهمة التي كانت تهتم بإقامة طبقة من الإكليروس تعنى بطقوس العبادة. ويلاحظ أن المجتمع الآري القديم كان يقوم على أساس الانتخابات وفي جو نظمهم الاجتماعية الديمقراطية، وقد أخذ هذا النظام الاجتماعي مع مرور الزمن يتحول إلى إمارات ملكية ومجتمعات كهنوتية في روحها وشكلها.

وبقيام عهد «بوذا» Buddha و«مهافيرا» Mahavira دخلت الهند في عصرها التاريخي، إذ من المعروف أن العالم شهد انتعاشاً ثقافياً وروحياً حوالي القرن السادس قبل الميلاد. وكان المعلم الصيني «كونفيوشس» والمصلح الإيراني «زردشت» من الشخصيات المعاصرة لبوذا، كما أن نفس الحقبة شهدت بعثاً روحياً عند بني إسرائيل في فلسطين. ومهما كانت العوامل التي أدت إلى هذا الانتعاش الروحي، فإن الحركات الدينية التي نتجت عنها وتبلورت فيما بعد، كان لها تأثيرها البعيد في تاريخ البشرية. ولسنا معنيين في هذا العرض المقتضب بإبراز ما خلفه كونفيوشس وزردشت وراءهما من آثار، ولكننا سنكتفي بالإشارة إلى أن آثار بوذا كانت من أعظم الآثار في تاريخ الإنسان. ولعله أول من حاول تعليل سر الوجود على وجه منطقي دون الرجوع أو الاعتماد في ذلك على نظريات التصوّف. فقد حث على حسن المعاملة أو السلوك كما رسم طريقاً ذات مبادئ ثمانية يتسنى بواسطتها للإنسان أن يعيش مع أخيه الانسان بسلام واطمئنان.

وخرج بوذا عن جادة الطقوس وصرامة النظام الطبقي التي غدت طبيعة ملازمة للمجتمع الهندي في ذلك الحين ولم يكن نفوذه ليقتصر على الهند فحسب بل تعداها مع مرور السنين إلى العالم بأسره.

تعتبر غزوة الإسكندر للهند في عام ثلاثمئة وستة وعشرين قبل الميلاد أول تدوين وتقويم للتاريخ الهندي، على الرغم من أن الإسكندر لم يمض في التوغل داخل الأراضي الهندية، وعلى الرغم من أن غزوته للهند يسرت للعالم الغربي معلومات جمة عنها. فقد اصطحب الإسكندر إلى البلاد عدداً من العلماء والفلاسفة والمؤرخين اليونان، وقد قيل إن أرسطاطاليس أعرب عن رغبته في مناقشة أحد الفلاسفة الهنود في النظرية الهندية المتصلة بموضوع ما وراء الطبيعة. ويؤخذ من بعض الأساطير أن الإسكندر اصطحب معه عدداً من العلماء الهنود تحقيقاً لرغبة أستاذه ومعلمه أرسطاطاليس عند مغادرته للهند. ومن الثابت أن الاتصالات القديمة التي قامت ما بين غربي آسيا والهند قد تعززت أكثر فأكثر بفضل هذه الغزوة.

كانت أول إمبراطورية عرفتها الهند قد أنشئت بعد انسحاب الإسكندر على الفور. وهناك أساطير تشير إلى قيام إمبراطوريات وحّدت البلاد، إلا أن هذه الأساطير لم تخرج عن نطاق الخرافة وليس هناك ما يثبت صحتها. ومن الناحية الأخرى فقد كان «شندراجبتا موريا» Chandragupta Maurya شخصية تاريخية نجحت في إنشاء إمبراطورية امتدت أرجاؤها من أفغانستان حتى حدود البنغال. وكان يحتفظ بجيش مجهز كامل العدة، ويعود إليه الفضل في استحداث نظام حكومي تتولاه وترعاه هيئات معيّنة، والمعروف أنه عهد إلى لجان وهيئات خاصة القيام بأعمال إدارية واضحة المعالم كما اتخذ إجراءات معينة لتنمية الزراعة والتجارة والصناعة. وكان يستقبل في بلاطه مبعوثين عن الملوك الأجانب. ونجد في رواية «ماجسثينس» Magasthenes اليوناني أول عرض يقوم به أجنبي لحياة ومعابد البلاد في تلك الفترة. ويدعي بعضهم أن التجديدات المتعددة التي أدخلت على الجهاز الحكومي إنما تحققت بفضل «شانكيا» Chanakya رئيس الوزراء الذي أجمعت المصادر التاريخية على وجوده وعلى وجود «كوتيليا» Kautilya صاحب أول رسالة هندية في الشؤون الاقتصادية والسياسية.

وبتولي «أشوكا» Asoka حفيد «شندرجبتا» الحكم، خضعت الهند بكامل أجزائها تقريباً «للإمبراطورية المورية». وقد خلّف أشوكا وراءه نهجاً قويماً وعدة مراسيم في مختلف أنحاء البلاد تتضمن نصائحه وإرشاداته لشعبه. والمفهوم أنه اضطلع بحرب واحدة عندما غزا «كالنجا» المعروفة حالياً بولاية «أوريسا» وتغلب عليها. ويعتقد أن إمبراطوريته كانت أعظم اتساعاً وشأناً من الإمبراطوريتين اللتين أسسهما والده وجده. ولا تتوفر لدينا أية وثائق لتعليل الأسباب التي أدت إلى توسع هذه الإمبراطورية، وامتداد أطرافها. يعزو بعض الأشخاص هذا التوسع إلى النظام الاتحادي الذي قامت الإمبراطورية على أساسه. ثم إقبال الولايات الصغيرة المتاخمة لها على الانضمام إلى هذا الاتحاد بمحض إرادتها واختيارها.

أما حكم أشوكا فيمكن وصفه بأنه حكم أبوي عادل، فقد كان يعتبر نفسه وصياً وقيماً على شعبه لا فيما يتصل بثرائهم ورفاهيتم المادية فحسب، بل فيما يتصل بشؤونهم الأخلاقية والروحية أيضاً. وكان أشوكا أشد الحكام تحمساً للبوذية ودعوة إليها. وقد بذل كل ما في وسعه لنشرها داخل البلاد الهندية وخارجها، على أنه دأب على عدم التمييز بين البوذيين وأصحاب الديانات والمعتقدات الأخرى. ومن أقواله المأثورة التي وردت في إحدى مراسيمه: «إن المؤمن الورع يحرص على احترام جميع الأديان». وواقع الحال أن انتشار البوذية إلى ما وراء الشواطئ الهندية إنما يعود في الدرجة الأولى إلى رعايته وتشجيعه لها. ويستدل من بعض السجلات والوثائق أن أشوكا قام بإيفاد بعثات تبشيرية إلى سيلان وغربي آسيا ومصر. ويقال إن هذه البعثات توجهت أيضاً إلى بورما والصين واليابان.

وبعد وفاة أشوكا أخذت الإمبراطورية المورية في التصدع والانهيار. أما العوامل التي أدت إلى انهيار سلطة الموريين فليست معلومة على وجه التعيين. ويذهب بعضهم إلى تعليل ذلك وردّه إلى الغزوات الجديدة التي تعرضت لها

الهند من حدودها الشمالية الغربية في وقت كانت تعاني ضعفا من الناحية العسكرية. ويرد هذا الضعف من جهة إلى فترة السلام الطويلة التي شهدتها البلاد في ظل العهد الموري، ومن جهة أخرى إلى تأثير التعاليم البوذية التي كانت تقاوم النزعة الحربية مهما كانت أسبابها ودواعيها. ومهما يكن الأمر، فالمعتقد أن أول غارة قام بها «البختريون» Bactrians (البلخيون) على منطقة البنجاب وقعت حوالي سنة 200 ق. م.؛ على أنه يجب أن لا يفهم من ذلك أن البلاد لم تبدِ مقاومة في وجه الغزاة، فهناك من الأدلة ما يثبت أن «بوشيامترا» Pushyamitra قد صد أحد الملوك البختريين اليونانيين ورده على إعقابه، وإن كانت مقاومته هذه مؤقته. ومما يثبت ذلك قيام عدد من الإمارات اليونانية في النواحي الشمالية الغربية من الهند في هذه الفترة. ومن بين الذين اكتسبوا شهرة واسعة من الأباطرة اليونانيين الهنود ملك يسمى «مينندر» Menandar وهو الذي يعرف في الأساطير البوذية باسم «ميلندا» Milinda .

أما فترة الحكم الواقعة ما بين سقوط الإمبراطورية المورية في القرن الثاني ما قبل الميلاد وقيام إمبراطورية «جُبتا» Gupta في القرى الرابع بعد الميلاد، فقد تميزت بالفتن والاضطرابات على الأقل فيما يتصل بشمالي الهند. وبتداعي النفوذ الإمبراطوري استمرت القبائل الجديدة في التدفق على البلاد. وجاء في أعقاب حكم الأباطرة «اليونانيين البختريين» على التوالي الأباطرة «الهنود البرثينيون» Indo-Parthian فـ «السكيون» Sakas و«الكوشانيون» Kushanas. وعندما أسس «كانيشكا» Kanishka إمبراطوريته في عام 78 للميلاد نعمت البلاد بفترة قصيرة من السلام النسبي، وبنصيب من التدعيم والتوطيد. والمعروف أنه كان بوذياً واتخذ «برشابور» Purushapura أى مدينة «بيشاور» الحالية عاصمة له. وقد ساس إمبراطورية واسعة امتدت من آسيا الوسطى حتى أواسط الهند، ومما تحلو

مشاهدته تمثال لـ «كانيشكا» وقد ارتدى زياً يشبه «الشرواني» و«البيجاما» في عصرنا، وهذه أول دالة يعثر عليها بصدد إدخال هذا النوع من الزي على الهند.

ولما انهارت إمبراطورية «كانيشكا» دخلت البلاد في فترة امتازت بالحروب التي وقعت بين الإمارات الصغيرة. مع أن بعض هؤلاء الأمراء أو الحكام كانوا دخلاء على البلاد، إلا أن المجتمع الهندي ما لبث أن استوعبهم. على أن فترة الحروب المتواصلة والفوضى آلت إلى نهايتها عندما قام «جُبتا» بتأسيس إمبراطوريته. وقد امتاز هذا العهد شأن العهود السالفة التي شهدت توطيد الإمبراطورية وتدعيمها بانتعاش ثقافي، مما حمل بعضهم على وصف عهد «جُبتا» بالعهد الذهبي في تاريخ الهند. والواقع أن استتباب الأمن والنظام في عهد «جُبتا» بعد فترة الاضطرابات والقلاقل التي سبقته قد جاء بشيراً بالخير والرخاء. فلقد انتعشت التجارة والزراعة كما نعمت البلاد بفترة من السلام والرفاهية. وازدهرت فيها الفنون على مختلف أنواعها وأشكالها. والمعتقد أن أروع ما أنجبته الهند في عالم النحت والرسم يرجع إلى هذا العهد؛ فقد شهد هذا العهد إنتاج وانتعاش الشعر السنسكريتي. وذلك لأن «سنندرجبتا» Sanundra Gupta لم يكن مجرد فاتح عظيم فحسب، ولكنه اختص العلوم والموسيقى برعايته وعطفه. أما «شندرجبتا» الثاني الذي كان يعرف «بشندرجبتا فكرمادتيا» Chandra Gupta Vikramadittya فإنه يعتبر من أعظم ملوك الهند القدماء، ويعتقد أن أشعر شعراء السنسكرتية «كاليداس» Kalidas كان شاعر بلاطه.

وبسقوط الإمبراطورية المورية أصيبت البوذية بنكسة. والواقع أنها في عهد أعضاء أسرة «جُبتا» المالكة لم تعد الديانة السائدة في البلاد. ومع أن أعضاء هذه الأسرة المالكة شملوا الهندوسية برعايتهم إلا أنهم لم يضطهدوا البوذيين. فكان هؤلاء الملوك وشعوبهم ينظرون إلى قديسي

البوذية ونساكها بنفس الإجلال الذي ينظرون به إلى قساوسة الهندوسية وآلهتها. أما الحياة في عهدهم فامتازت ببساطتها وكانت الدولة هي التي تتولى السهر على الأمن والنظام والمحافظة عليهما، على أن القوانين كانت خفيفة الوطأة على كاهل الأهلين. ولقد ورد وصف ممتع لنمط الحياة في ذلك العهد في مؤلفات «فاهيان» Fahien أول الحجاج الصينيين المتعددين الذين زاروا الهند بوصفها مهداً للبوذية.

إن إمبراطورية «جُبتا» كغيرها من الإمبراطوريات آلت بدورها إلى الانهيار والتفكك، ويرجع ذلك إلى الانحلال الداخلي من ناحية، ومن ناحية ما إلى الغزوات التي شنها عليها من الخارج. وانقسمت الهند من جديد إلى عدد من الولايات والإمارات الصغيرة. وعزا بعضهم انهيار إمبراطورية «جُبتا» إلى غارة «هونا» Huna على الهند. ونظراً لانعدام وجود سلطة مركزية موحدة في البلاد تتمكن من صدهم، أخذ المغيرون يتدفقون على البلاد أفواجاً. وقد أدى ذلك إلى إضعاف السلطة المركزية، مع أن هذه الغزوات صدت أحياناً وبصورة مؤقتة، إلا أن الغزاة استمروا يتدفقون رغماً عن مقاومة الولاة والحكام المحليين. والمعروف أن الحروب الداخلية المتواصلة لم تضعف هؤلاء الملوك فحسب، بل حالت أيضاً دون تأليف جبهة موحدة ضد العدو الدخيل.

وفي أوائل القرن السابع تمكن الملك «هارشا» Harsha من جديد من إقامة إمبراطورية موحدة في المناطق الجنوبية صدها «البولاكشينيون» Pulakeshin، وهكذا قامت في البلاد إمبراطوريتان جبارتان، إحداهما في الشمال والأخرى في الجنوب، واهتمتا باستتباب الأمن والسلام وبعث الطمأنينة في نفوس الأمة. ولما استتب الأمن وعم النظام عادت الفنون إلى الرواج والانتعاش. ولقد لازم انتشار السلام انتعاش اقتصادي في جميع أرجاء الهند. ومع أن البوذية فقدت سيطرتها، ولكنها استمرت في التمتّع

بانتشار عظيم. وكان «هارشا» يرعى البوذية والبرهمية على السواء، كما أنه رحب في بلاطه بـ «هيون تسانج» Hiuen Tsang أعظم وأجل الحجاج الصينيين الذين زاروا الهند. وقد خلف وراءه سجلاً طريفاً وصف فيه «هارشا» والحياة التي كانت تخيّم على الهند في تلك الأيام.

ويلاحظ أن تاريخ الهند في جميع العصور حتى العصور الأخيرة سار على وتيرة واحدة، فكانت البلاد تتعرض من جديد إلى غزوات قبلية كلما ظهر الوهن والضعف في السلطة المركزية. على أن هذه القبائل لم تلبث أن اصطبغت بصبغة المجتمع الهندي. والواقع أنه لم يتمكن أحد من القبائل المتسللة من مقاومة تيارات الهندوسية ونفوذها إلى أن جاءت الطائفة الفارسية (أتباع زرداشت) إلى الهند في القرى الثامن بعد الميلاد. وذلك لأن كثيراً من هذه القبائل لم تكن تهتم بثقافة خاصة بها، كما أن تقسيم المجتمع الهندي إلى طبقات على أسس مهنية وحرفية سهّل عليهم من الناحية الأخرى أن يندمجوا وينخرطوا في المجتمع الهندي. ومنذ القرن التاسع فما بعده نعثر على إشارات ورد ذكرها باستمرار عن جماعة من الناس عرفوا «بالراجبوت» Rajputs. فقد أخذ هؤلاء يحلون تدريجياً محل «الكشتريين» Kshattriyas كطبقة حاكمة محاربة. أما لفظة «راجبوت» فتنصرف حرفياً إلى أداء معنى «أنجال الملوك». وكان تبجح هؤلاء بأرومتهم ورفيع نسبهم وإصرارهم على أن نسبهم يتصل بأبطال الأساطير موضع نقاش وجدل. ويذهب عدد كبير من المؤرخين إلى الاعتقاد بأن القسم الأعظم من هؤلاء هم من سلالة القبائل التي جاءت إلى الهند بعد سقوط إمبراطورية «جُبتا». ونظراً لكونهم حديثي العهد بالبلاد، فقد حرصوا على إثبات عريق نسبهم، كما أن تحولهم في العصور الأخيرة إلى طبقة حاكمة جعلهم أشد اهتماماً بإثبات صحة هذا النسب. ومهما كان الأمر فإن «الراجبوت» منذ القرن التاسع للميلاد حتى نهاية العهد المغولي قد لعبوا دوراً هاماً في التاريخ السياسي للمنطقة الشمالية من الهند.

وغني عن القول إن التاريخ ليس بعلم بالمعنى المفهوم ولا يسمح بكثير من التعميم، ولكن على الرغم من كل ذلك، ففي وسعنا أن نشير إلى اتجاهين عامين يعتبران من العوامل المميزة لتلك الفترة القديمة من تاريخ الهند. أما الاتجاه الأول فينحصر في العملية الرامية إلى جعل الهند بلداً آرياً بصورة تدريجية. فعندما تيسر للآريين إخضاع سكان وادي الإندوس الأصليين واستيعابهم، انتشروا في طول البلاد وعرضها وطبعوهم بطابعهم الآري. أما اتجاههم الثاني فيتجلي في المحاولات المستمرة التي ترمي إلى توحيد الهند سياسياً. وعندما نتفحص تاريخ الهند منذ عهد الأسر المالكة التي ورد ذكرها في الأساطير، فإننا نلمس جهوداً متواصلة لبناء إمبراطوريات تتفق وحدود الهند المترامية الأطراف. والمعروف أن «الموريين» وأعضاء أسرة «جُبتا» المالكة حاولوا إقامة مثل هذه الإمبراطورية ونجحوا في مهمتهم وإن كان لمدة قصيرة. على أن الأحوال المادية الضرورية لإقامة هذه الوحدة لم تتوفر. ولعل في ذلك ما يفسر لنا أن النجاح الذي أحرزوه كان قصير الأمد.

تصبح معالم التاريخ الهندي أجلى وأظهر خلال العصور الوسطى، وإن لم يطرأ تغير ملحوظ على الوتيرة التي سار عليها هذا التاريخ. فلقد شهدت الهند بعد وفاة «هارشا» و«بولاكشين» صراعاً بين ثمانين أميراً من أمراء الولايات المختلفة في سبيل الجاه والسلطان. واستمرت هذه الأحوال وتكررت نفس الرزية خلال القرون الوسطى. ومع أن القسم الأعظم من هؤلاء الحكام كانوا ينتمون إلى قبائل مختلفة من «الراجبوت»، إلا أن بعض الأمراء كانوا من المسلمين. وشأنهم شأن المسلمين في خارج الهند، فقد جمعوا في بلاطهم عدداً من المؤرخين وعشاق التاريخ الذين خلّفوا وراءهم وثائق محكمة عن الأحداث السياسية في ذلك العصر وعن الأحوال التي كان أفراد الشعب يعيشون فيها. والواقع أن المؤلَّف الشهير للمؤرخ الكبير

البيروني هو أول سجل كامل عن الهند يوجد في أي لغة من اللغات، وهو ليس كنزاً زاخراً بالمعلومات القيمة عن أحداث هذا العصر وعاداته فحسب، بل نجد فيه محاولة لتفسير الحضارة والثقافة الهندية وشرحهما أيضاً. وقد عقّب البيروني على تعدد المذاهب والعقائد القائمة في الهند وتباينها، وهي تتراوح بين عقيدة التوحيد الخالص والاعتقاد بالأوثان التي كان يعبدها عامة الناس. وكان المجتمع مقسماً إلى طبقات وانعدمت فيه الروح الوطنية سواء من الناحية السياسية أو الاجتماعية.

جاء دخول المسلمين إلى الهند على فترات امتدت إلى عدة قرون، على نحو دخول الآريين إلى هذه البلاد. وكثيراً ما نعد الغزو العربي لبلاد السند في أوائل القرن الثامن الميلادي أول ظهور للمسلمين على مسرح الهند. وفي عام 712 للميلاد، تحولت السند في تلك الحقبة إلى مقاطعة تابعة للخلافة في بغداد. وظلت هذه المقاطعة كغيرها من المناطق الأخرى التي احتلها العرب، فلم تعرف الاضطهاد الديني ولم تشهد أي تدخل منهم في حياة السكان الأصليين العادية. على أن سيطرة الخلافة على السند لم تعمر طويلاً وإن كانت البلاد بقيت خاضعة لسيطرة الحكام المسلمين زهاء قرنين.

أنشأ المسلمون قبل مئة عام من ذلك التاريخ أول مركز إسلامي لهم في المقاطعات الجنوبية. ولعل العرب لم يقوموا بمحاولات معينة مركّزة لغزو البلاد عسكرياً وإن كانوا قد أغاروا على «تهانا» Thana الواقعة على مقربة من مدينة «بومباي». ولقد كانت الموانئ الغنية الواقعة على الشواطئ الغربية للهند محط أنظار العرب فجاؤوها تجاراً ثم استوطنوها وأقاموا لأنفسهم عدداً من المستعمرات على سواحل «مالابار» Malabar. ومما يسلم به على العموم أن الغرض العاجل من وراء غزو العرب للسند هو حماية طرقهم التجارية مع الهند الجنوبية وسيلان. على أن العرب ما لبثوا أن أصبحوا قوة لا يستهان بها في هذه المناطق على مر الأيام، وأدى تبادل

السلع التجارية إلى تبادل الأفكار والنظريات، وذهب بعضهم إلى القول بأن الانتعاش الديني والفلسفي الذي شهدته هذه المنطقة الواقعة في أقصى الجنوب في القرن الثامن والقرون التي تلته يعود إلى المؤثرات الأجنبية الجديدة في الثقافة المحلية.

وفيما عدا هذين المركزين من مراكز النفوذ العربي، فإن أغلبية المسلمين الذين وفدوا على البلاد كانوا من الترك والأفغان، على اختلاف أنواعهم، أو من الفرس. ولما كان عدد كبير منهم حديثي العهد بالإسلام فقد أخذوا بقشور الدين وأهملوا لبه، على أن هذا لم يمنعهم أن يعتبروا أنفسهم حملة لواء الدين الإسلامي. وكان بعض المعابد الهندوسية تزخر بثروة طائلة إلا أنها تحولت في بعض الظروف إلى قلاع وحصون تمتاز بأهميتها الاستراتيجية، فكان احتلالها ضرورة عسكرية. كما أن ثرواتها كانت مصدر إغراء للغزاة الفاتحين. ويستنتج من كل ذلك أن اقتحام المعابد وإخضاعها كان لأسباب متعددة.

وقد اجتذب غنى الهند وثروتها الخيالية القبائل من أفغانستان وما ورائها من البلاد. ومما لاشك فيه أنهم استغلوا الدين وصبغوا غاراتهم السلبية بصبغة من الإجلال والتقديس مع العلم بأن طبيعة هذه الغزوات تناقض وتكذّب ما كانوا يدعون. شنّ هؤلاء غزوات خاطفة على المعابد والحصون أعقبتها عمليات سلب ونهب لكل ما كان في إمكانهم حمله ونقله. وبالاضافة إلى ما وقع من غزوات متقطعة ومتفرقة، فقد شهدت البلاد دائماً محاولات لتأسيس إمارات صغيرة. وكان السلطان محمود الغزنوي في مقدمة الغزاة المعروفين. وقد شنّ عدة غزوات على البلاد الهندية. ويظهر أن همه الوحيد كان الحصول على أموال وثروات طائلة وتعزيز نفوذه وسلطانه داخل مملكته. فلم يكن من أهدافه العاجلة أن يتوخى، بحال من الأحوال، إقامة إمبراطورية هندية أو نشر الإسلام في الهند. بل إن قيامه بضم مقاطعة

البنجاب إلى بلاده يعتبر لدوافع عسكرية أكثر من أي دافع آخر. وكان خلو البلاد من سلطة مركزية وانهماك الإمارات الصغيرة في محاربة بعضها بعضاً أن سهل على الفاتحين مهمتهم نسبياً. ومع ذلك فقد أبدى سكان البلاد أحياناً مقاومة منظمة وإن كان تفوّق الغزاة في القيادة واستعمال الجياد الأصيلة ما رجّح كفتهم في المعارك الحاسمة التي خاضوها.

جاءت أول محاولة جدية من جانب أحد الحكام المسلمين لتأسيس مملكة في الهند في أواخر القرن الثاني عشر. وذلك أن الأحقاد الداخلية والضغائن الكامنة بين عدد من الإمارات الصغيرة لم تفسح المجال لمقاومة مشتركة منسجمة. وعلى الرغم من كل ذلك، فإن مهمة الفاتحين في شق طريقهم إلى الهند لم تتحقق بصورة هينة لينة. ولئن كان نصيب شهاب الدين الهزيمة في المعركة الثانية، وقد وقعت هذه المعركة على مقربة من «باني بت» Panipat على مسافة ستين ميلاً تقريباً في الناحية الشمالية من دلهي. فكانت إحدى المعارك الحاسمة في تاريخ الهند.

أما قطب الدين الذي كان مملوكاً في أول الأمر وأصبح فيما بعد قائداً لدى شهاب الدين ونائباً له، فقد شيد أول سلطنة له في دلهي عام 1206م. وقد تمكن بالتعاون مع قادته من إخضاع قسم عظيم من شمالي الهند. غير أن الأوامر الصادرة من دلهي بقيت نافذة ما بقي الجالس على العرش في دلهي متمتعاً بقوته ونفوذه. ومن البديهي أن يكون الحكم أتوقراطياً إن لم يكن عسكرياً بالمعنى الصريح. فالمواصلات صعبة ولم يكن هناك نظم إدارية محكمة. كما أن تعاقب الحكام والأمراء على البلاد حال دون وفاء الشعب وولائه لأية أسرة من الأسر المالكة. وكثيراً ما كان الملك يعتمد في تأمين ولاء الشعب له على قوته العسكرية، ولتحقيق غايته هذه كان مضطراً للاعتماد على قوّاده. وفي معظم الأحيان كان ولاء هؤلاء القادة للملك إسمياً فقط، وكل منهم يحكم كأمير داخل دائرة نفوذه. ويمكن وصف هذا النظام

الذي ساد البلاد في تلك الفترة بأنه نظام إقطاعي يتولاه الملك مع عدد من الإقطاعيين المتساوين في المرتبة.

تلا ذلك شرذمة من الحكام الذين ينتمون إلى أسر حاكمة مختلفة. وفي فترة الثلاثمئة والعشرين عاماً التي قامت فيها سلطنة دلهي، طالبت تسع من هذه الأسر بحقها في السيطرة على الهند، وإن كانت حقوقها في ذلك إسمية أحياناً. وكان همّ هؤلاء الحكام الوحيد تأمين نفوذهم العسكري بدلاً من نفوذهم السياسي. ولكن هذا الاتجاه كان يختلف باختلاف الملوك. وفيما عدا فترة قصيرة من الزمن فإن مناطق واسعة شاسعة من جنوبي الهند كان يحكمها حكام مستقلون، في حين أن الأقاليم المترامية الأطراف، كالبنغال وغجرات، كثيراً ما نفضت عن نفسها غبار سلطة دلهي كلما استطاعت إلى ذلك سبيلاً. ومع أن سلطان دلهي انتحل لنفسه لقب «شاه عالم»، أي ملك العالم أو المهيمن على شؤون العالم، فإن أحد المهرجين في البلاط وصفه بأنه «شاه بالم» أي ملك «بالم». ومعنى ذلك أن حدود نفوذه لا تتجاوز القرية المسماة «بالم» Palam وهي تقع في ضواحي دلهي حيث مطار بالم المعروف.

يعتبر علاء الدين الخلجي، الذي نودي به سلطاناً في عام 1296م، أول إمبراطور مسلم في الهند. والواقع أنه بسط نفوذه وسلطانه على المناطق الشمالية من الهند بأسرها كما تغلغل بعيداً في المناطق الجنوبية. وما إن مضت عدة قرون حتى قامت سلطة مركزية كانت كلمتها مسموعة وقوانينها نافذة في القسم الأعظم من البلاد. وقد طرأ تغيّر ملموس على طبيعة الإدارة، فكان علاء الدين يهدف إلى إقامة حكومة مركزية موطدة. وتحقيقاً لهذه الغاية فإنه طالما تجاهل مشورة رجال الدين كما تجاهل سلطتهم ونفوذهم. والواقع أنه أقام جهازاً إدارياً صارماً قصد من ورائه تعزيز سلطة الملك، وكان في ذلك كالملك هنرى السابع في بريطانيا الذي

كان همه الأكبر زيادة سلطانه وتعزيز نفوذه. أما الوسائل التي اتبعها لتحقيق هذه الغاية فتتجلى فيما عمد إليه من وضع حد لحرص الشعب على جمع الثروة وتعزيز الجاه. ولم يكن في محاولته هذه يميّز أو يفرق بين المسلمين والهندوس من رعاياه. ولعله كان أحياناً أشد بطشاً بالمسلمين لاعتقاده باحتمال تمردهم عليه أو إحداث الفتن والقلاقل في البلاد. ومع أنه لم يعمد إلى إلغاء نظام الإقطاع إلا أنه وفق توفيقاً عظيماً لتحديد سلطة النبلاء تحديداً صارماً.

وعلى نحو ما وقع في عام 1200م، فقد شهد عام 1500م انقسام الهند إلى عدة إمارات وولايات صغيرة، ولعل الفارق هو أن الفترة الأخيرة شهدت عدداً أكبر من الحكام المسلمين. وسواء أكان هؤلاء الأمراء والحكام من المسلمين أم من الهندوس فإنهم حاربوا بعضهم بعضاً بشدة وحرارة لأتفه الأسباب وأحقرها. وقد بينا فيما سبق أن حب المال والسلطان ـ وليس الإيمان بالرسالة ـ هو الذي جذب الغزاة المسلمين إلى الهند. وواقع الحال أن صراع الحكام والولاة قلما كان له صلة تذكر بالدين. وقد جند السلطان محمود وغيره من أوائل الفاتحين عدداً من الهندوس للعمل في جيشه ومحاربة خصومهم من المسلمين في داخل الهند وخارجها. وبعد أن تم إنشاء إمارات إسلامية في الهند، أخذ الطابع الديني لهذه الحروب يتضاءل ويزول شيئاً فشيئاً. وتدل الأرقام على أن من بين ما يقرب من 130 معركة دارت رحاها في الهند بين عام 711م وعام 1700 بعد الميلاد، فإن ما يزيد على نصفها كانت معارك بين المسلمين أنفسهم.

فبعد تأسيس السلطنة في دلهي، انتهز القادة المسلمون، الذين عهد إليهم بإخضاع بعض الولايات النائية وحكمها، أول فرصة سنحت لهم لإعلان استقلالهم وانفصالهم عن دلهي. ولما لم يكن من الميسور لهم توطيد نفوذهم إلا بتأييد السكان المحليين فإنهم تعاونوا وتفاهموا معهم.

وقد أرغمهم منطق الحوادث على انتهاج سياسة الحياد الديني حتى في العصور الأولى، حيث أصدر قطب الدين أول سلطان على دلهي مرسوماً حظر فيه التدخل في الأعياد الدينية الهندوسية والتعرض إليها. وهكذا فإنه على مر الزمن وبفضل إنشاء ممالك جديدة، فقد تسنى لقوى التسامح أن تنشر وتتعزز. غير أن ذلك لم يحل دون وقوع بعض الحوادث الأليمة التي تركت في النفوس أثرها البليغ والتي ما لبث أن تبدد ذكرها بعد أن ألف من جديد الحب والتسامح بين شتى الطوائف على مر الأيام. وكانت المحافظة على الأمن والنظام همّ إدارة الحكومة الأكبر. وما دام الملك جواداً كريماً وبارعاً في الشؤون العسكرية، كانت البلاد تنعم بالازدهار والرخاء والرفاهية.

أما ونحن في صدد دراسة عن الحكام المسلمين في الهند، فلا بد لنا من أن نقرر أن المسلمين جاؤوا إلى الهند بموجات متوالية. وكانوا في أكثر الأحيان من المحاربين الذين لم يصطحبوا أزواجهم فاتخذوا لأنفسهم أزواجاً هنديات. ونرى في كثير من الأحيان أن أسرى الحرب من أهل الهند لم يكن أمامهم سبيل إلا الاختيار بين عبودية دائمة أو اعتناق الإسلام. وقد أدى ذلك، بالإضافة إلى أعمال الدعوة، إلى قيام طائفة إسلامية مع مرور الأيام لها شأنها وخطورتها. ومن ناحية أخرى فإن العادات الاجتماعية عند الهندوس قد ساعدت على زيادة عدد المسلمين. فقد وجد فريق من المنبوذين في الإسلام فرصة للمحافظة على كرامتهم. أما ذوو الحساسية الفائقة من الطبقات المحظوظة فقد استهوتهم ديموقراطية الإسلام. ناهيك من أن المجتمع الهندوسي كان ينظر بعين الازدراء إلى الأسرى المسرّحين. وكثيراً ما حدث أن هؤلاء لم يجدوا أمامهم سبيلاً للاختيار سوى الدخول في حظيرة الإسلام. وكان من نتائج استيعاب الإسلام للهندوس على نطاق واسع، أن أخذت طبيعة المجتمع الإسلامي تتغير تدريجياً. بل إن أولئك الذين وفدوا

على البلاد من الخارج أصبحوا يعتبرون أنفسهم هنوداً. وكثيراً ما حدث أن المسلمين من أهل الهند والهندوس تعاونوا وتضافروا لصد بعض المسلمين الذين أغاروا على البلاد من الخارج.

ونرى أن النفوذ الإسلامي لم تتوطد دعائمه وأركانه إلا بعد أن نجح «بابر» في تأسيس إمبراطورية بفضل انتصاره في معركة في «باني بت» عام 1526. وخلافاً لمن سبقه من الفاتحين، كانت له آراؤه الخاصة في حقوق الملك وواجباته. وقد ادعى بحكم انتسابه إلى «تيمور» و«جنكيز» بأنه الوارث الشرعي للهند بأسرها. ونظراً لما اشتهر به من براعة كقائد، لم يحاول أن يقوم بفتوحات واسعة قد يتعذر عليه فيما بعد إدارتها والمحافظة عليها. ويلاحظ أنه لم يقم بأي محاولة لإخضاع «راجبوتانا» Rajputana لحكمه حتى بعد أن تمت له الغلبة على «سنجرام» Sangram وقهره. واكتفى ببسط سيطرته الحازمة على مقاطعة البنجاب والمناطق المحيطة بدلهي. على أنه لم يعمر طويلاً ليقوم بمهمة توطيد أركان الإمبراطورية، مع العلم أن المبادئ التي قامت عليها سياسة أباطرة المغول إنما استمدت وحيها مما كان يتحلى به من صفات التسامح والانسانية. ويستدل من النصائح التي أسداها إلى نجله «همايون» أنه أوصى بضرورة معاملة جميع رعايا المملكة على قدم المساواة، واختص بالذكر معتقدات الهندوس الدينية وحث همايون على احترامها.

شهدت البلاد فترة جديدة من حكم «الباتان» Pathan عند ما نجح «شيرشاه» في إعادة السلطنة إلى دلهي. وكان قد جمع تحت رايته قسماً عظيماً من المسلمين والهندوس. والواقع أن انتصارة على الملوك المغول يعتبر غلبة للهنود على الأجانب. وليس من المستبعد أن اهتمامه بمصالح رعيته وحرصه عليها يعود إلى شعوره المتأصل بهنديته. ومهما يكن الأمر فلقد أحدث تعديلات هامة في جميع الدوائر الحكومية كما تمكن خلال

عهده الزاهر القصير من وضع الأسس للمواصلات الهندية الحديثة وإدارة الدخل.

أما «أكبر» وهو أعظم أباطرة المغول فقد استكمل البناء الذي وضعه «شيرشاه». والمعروف أنه لم يكتف بتطبيق نظام الدخل الذي وضعه «شيرشاه»، بل أدخل عليه بعض التحسينات. كما ألغى نظام إقطاع مناطق زراعية من الأراضي إلى القادة العسكريين والزعماء الاقطاعيين. واستعاض عن ذلك النظام بإقامة إدارة مسؤولة مباشرة أمام الحكومة المركزية، ولعل أهم الخدمات التي أسداها إلى البلاد هي القضاء على التمييز بين الرعايا على أساس الدين. ثم ما قام به من تأمين الفرص المتكافئة للعمل والترقية لجميع أفراد الرعية. وينطبق هذا القول بصورة خاصة على الإمارات التي أقيمت وأسست في أماكن نائية بعيدة. وامتاز إقليما «البنغال» و«غجرات» بعدد من الملوك الذين أبدوا تسامحاً رائعاً تجاه رعاياهم من غير المسلمين، وما يقال فيهم يقال أيضاً في «المملكة البهمنية» Bahmani وغيرها من إمارات الجنوب. ولعل عظمة «أكبر» تتجلى لنا فيما وفق إليه من النهوض بسنة التسامح.

وكان قلبه يفيض بشعور التقدير والإجلال لجميع الديانات كغيره من أعاظم أباطرة الهند القدماء. وكان في طبيعته ميل شديد إلى التصوّف، وكان «أكبر» حاكماً بكل ما في هذه الكلمة من معنى. ولعل حكمه يمثل لنا أول محاولة واعية لاستنباط نظرية الدولة العلمانية، وقد نهج سياسة اجتماعية ودينية حرة هدفت إلى دمج العناصر المختلفة التي يتألف منها الشعب الهندي في ذلك الحين وصهرها في بوتقة واحدة. والواقع أن أكبر يمكن اعتباره، من نواح عدة، واضع أسس الهند الحديثة وبانيها.

ولو أن الأسرة المغولية لم تنجب أحداً سوى «بابر» و«أكبر» لكفاها ذلك فخراً. فكيف وقد أنجبت خلال فترة تمتد حوالي ستة أجيال من عمرها

رجالاً امتازوا بمقدرة وكفاءة عظيمتين. ولعل في هذا ما يفسر توسع الإمبراطورية المغولية وازدهارها لمدة طويلة ومدى تأثيرها في نفوس الشعب. أما السبب الآخر فينحصر فيما قام به «أكبر» من إعادة تنظيم الجهاز الإداري. ومع أنه ليس في مقدورنا أن نجزم بأنه أقام الحكم وفقاً للقوانين إلا أن إصلاحاته قد ساعدت كثيراً في التخلص من الحكم الفردي والاستعاضة عنه بحكم يقوم على القوانين. وقد حذا خلفاؤه حذوه، وساروا على السياسة التي وضعها، إلى أن حاد «أورنجزيب» عن طريقة سلفه «أكبر» من ناحيتين. فقد احتفظ «أكبر» لنفسه بسلطة تدبير سياسة الدولة وخوّل سلطات أخرى عديدة إلى موظفيه، وأقام إدارة البلاد على أساس من الثقة. أما «أورنجزيب» فإنه لم يكن يثق حتى بنجله، ولم يكتف بمراقبة السياسة العامة والإشراف عليها بنفسه، بل تعدى ذلك إلى الاهتمام بالتفاصيل الإدارية. ويختلف «أورنجزيب» اختلافا جوهرياً عن «أكبر» في موقفه من الرعية. فبينما كان «أكبر» يعامل أفراد رعيته على قدم المساواة ويتيح لهم الفرص المتساوية لخدمة الدولة، فإن «أورنجزيب» لم يوفق حتى إلى تأمين المساواة بين المسلمين أنفسهم، وذلك لأنه اختص أفراد الطائفة السنية بعطفه ورعايته.

يستنتج من كل ذلك بأن سياسة «أورنجزيب» لم تصلح كأساس لإمبراطورية ثابتة الأركان في زمن من الأزمان، كما أن ما شهده الشعب من تسامح في عهد «أكبر» جعل حكم «أورنجزيب» أقل قبولاً. وكان «أورنجزيب» قبل أفول نجمه قد أثار عداء كثير من طبقات الشعب تقريباً. وأشد مقاومة لاقاها كانت من «الراجبوت» الذين كانوا منذ عهد «أكبر» من أهم الدعائم التي قامت عليها السياسة الإمبراطورية. وكذلك أثار «أورنجزيب» نقمة العناصر الفارسية عليه، وهي العناصر التي كانت مصدراً لتزويد نظام الإمبراطورية بعدد كبير من الموظفين في مختلف الدرجات والمناصب.

بل إن سياسة «أورنجزيب» لم تحظ حتى بتأييد أنجاله وعطفهم. وعلى الرغم مما امتاز به من كفاءة وما عرف عنه من نشاط، فأن مصير الأسرة المغولية قد قدر وتقرر حتى قبل أن توافيه المنية في عام 1707. واتفق أن قوى جديدة تمثل عناصر التحدى للسلطة المغولية بدأت تظهر جنوباً في «الماراتا» Marathas بزعامة «شيفاجي» Shivaji. وعلى الرغم من الهزائم المتكررة التي مني بها «الماراتا» في المعارك التي خاضوها مع «أورنجزيب» فقد أدت وفاته إلى زعزعة دعائم السلطة المغولية.

يبدو لنا جلياً أن تطور الحكم الإسلامي في الهند قد اجتاز مرحلتين متباينتين. فمع أن السلطنة كانت قد بدأت بسلسلة من الغارات القبلية، ولكنها ما لبثت أن وطدت أركانها في مملكة على ممر الأيام إن لم تتسم بسمة الإمبراطورية. وكما حدث في عهد الآريين في الأزمنة السالفة، فإن السلطة في هذه الآونة أيضاً أخذت تتجه جنوباً وشرقاً. ولم يقع أى تدخل يذكر في الحياة الريفية، ذلك أن المغيرين، نظراً لقلة عددهم، ركزوا معظم نشاطهم في المدن التي كانت لها أهمية استراتيجية. وكانوا في بادئ عهدهم لا يحفلون بشيء آخر سوى جباية الضرائب والدخل. وقد تسنى للمسلمين بعد ثلاثمئة عام من الحروب والسلام أن ينتشروا في جميع أرجاء شبه القارة الهندية، فبلغوا أقصى حدودها حيث أقاموا لأنفسهم مراكز وحاميات. ولما ازداد عددهم بفضل من دخل في حظيرة الإسلام من سكان البلاد، أصبحت عرى الاتصال تتوثق بين المسلمين والهندوس في كثير من النواحي. وتغيرت طبيعة الحكم بصورة غير ملموسة لم تكن في الحسبان. وبدأت سلسلة من العمليات في الأيام الأخيرة لقيام السلطنة في دلهي وبلغت ذروتها في أيام أكبر. فبتأسيس الإمبراطورية المغولية بدأت فترة لم تقتصر على عمليات التوطيد والتوحيد فحسب، بل تعدتها إلى التنسيق والجمع بين الثقافتين. وكانت السنن التي اشترعها «أكبر» من مقومات ذلك النمط الذي لا يزال باقياً في الهند حتى يومنا هذا.

وشهد قيام السلطنة في دلهي تجارب في إدارة البلاد، فقد كانت المشكلة القائمة تنحصر في الكيفية التي يتسنى بها للأقلية الضئيلة الاحتفاظ بسيطرتها على أغلبية ساحقة. ولعل المحاولة التي قام بها «علاء الدين خلجي» لإقامة إدارة الحكم على أساس مركزي لتنظيم الأسعار وتأمين حد أدنى من المعيشة للأهالي من أقدم المحاولات للتجارب العصرية في هذا الميدان. وسعى «محمد تُغلق» Tughlaq إلى أن يدخل على البلاد نظام النقد الجلدي أو العملة الجلدية. وعلى الرغم من الاخفاق الذي لازمه في هذه المحاولة، فإن الفضل يعود إليه في ابتكار نظام أصبح اليوم معمولاً به في جميع أنحاء العالم.

ولعل ما كان أهم من الإصلاحات الإدارية ما شهدته هذه الفترة من محاولات لتشجيع نمو اللغات الهندية العصرية. ويلاحظ أن مقداراً لا يستهان به من العادات الشعبية قد نما وترعرع في «براكرت» Prakrit و«بالي» Pali حتى قبل دخول الإسلام إلى الهند. ولعل أغلب المؤلفات التي دونت في تلك اللغات قد تأثرت كثيراً بالتعاليم البوذية ودعوة «مهابيرا» Mahabira التي قام أصحابها بنشر دعوتهم بين السكان، واستعملوا في ذلك لغة يتيسر للسكان فهمها ووعيها. على أن اللغة السنسكرتية كانت من أهم المناهل للتيارات الأدبية والفكرية، فالمعروف أن ازدياد النفوذ البراهمي وتعاظمه قد لازمه تعاظم اللغة السنسكرتية في الأهمية. وحينما تسربت المبادئ الإسلامية إلى الهند كانت البوذية في دور الاحتضار وإن لم تكن قد اندثرت كلياً. وعلى ذلك فإن المساعدة العظيمة التي نعمت بها اللغات المحلية لم يبق لها أي فعالية. بيد أن السنسكرتية ما لبثت أن استعادت مكانتها ونفوذها بفضل رعاية عدد من الملوك والشخصيات التي تعاقبت كشخصية «شنكراشاريا» Shankaracharya، فهو وأمثاله ممن شملوها بعطفهم ورعايتهم.

تغيرت الأوضاع كلياً بفضل تأسيس السلطنة. وذلك لأن المسلمين لم يكن لديهم من الأسباب ما يحملهم على تفضيل السنسكرتية واحتضانها. ولسنا نعدو الحقيقة إذ نقرر أن المسلمين في المراحل الأولى من حكمهم وقفوا من السنسكرتية موقف الخصومة والعداء. وبينما كانوا من ناحية يعملون على إدخال الفارسية كلغة رسمية للبلاد، كانوا من ناحية أخرى يعملون على إقامة علاقات وروابط أوثق وأمتن مع رعاياهم الهندوس. وكان استعمال اللغات المحلية بطبيعة الحال خير وسيلة لتحقيق هذا الهدف. أما رعاية الحكومة للغات المحلية، كاللغة البنغالية، فتعود إلى القرن الرابع عشر. وبعد مرور زهاء قرنين على قيام الحكم الإسلامي في الهند، تبوأت اللغات المحلية مكانة جديدة تقوم على العزة والكرامة. والفضل في ذلك يرجع إلى المصلحين الروحين من الصوفيين والأولياء الذين ظهروا في هذه الفترة من الزمن. ونخص بالذكر من هؤلاء «كبير» و«نانك» Nanak و«شيتانيا» Chaitanya «وتلسي داس» و«توكارام».

بعد وفاة «أورنجزيب» انقسمت الهند من جديد إلى عدد من الإمارات الصغيرة والكبيرة. وجرت هذه الممالك على سنة التحالف والتقاتل بعضها مع بعض لأسباب ليس لها ما يبررها. وقد لاح في مرحلة من المراحل أن «الماراتا» أوشكوا أن يوفقوا إلى إقامة إمبراطورية موحدة في البلاد، على أن كفاءتهم الادارية لم تكن تعادل مقدرتهم وتفننهم في ضروت القتال. وقد ظهروا على مسرح البلاد كحماة للهندوسية منافحين عنها ضد تعسف أورنجزيب واستبداده. بيد أن تحوّلاً هاماً قد طرأ على موقفهم من بقية الهندوس بعد وفاة «باجي راؤ» Baji Rao في عام 1740. ويرجع إخفاق الإمبراطورية الإسلامية وسقوطها إلى أن «أورنجزيب» أثار عداء وخصومة العناصر الموالية كالراجبوت أو المسلمين من غير الهنود. ويلاحظ أن المراتيين لم ينجحوا في توطيد سلطانهم إلا لفترة قصيرة من الزمن،

وذلك في عهد «شيفاجي» خلفه، كما أن المراتيين لم يتمكنوا من الاحتفاظ بثقة وصداقة الراجبوت أو «الجات» Jat.

خلال العهد الإسلامي لم يطرأ أي تغيير على الأحوال الاجتماعية السائدة بين السكان. ذلك أن الرعيل الأول من الحكام المسلمين لم يكن لهم همّ آخر سوى الاحتفاظ بقوتهم العسكرية والسياسية. فلم يحاولوا أن يتدخلوا في حياة الشعب العادية ما دام لم يخرج من بينهم أحد يتحدى سلطانهم. أما أمر جباية الدخل وتأمين العدالة فقد بقي إلى حد بعيد في أيدى الهيئات المحلية. وما كانت الجهود التي بذلها «أكبر» لإعادة تنظيم شؤون الدخل والإدارة السياسية لتؤثر في الوضع بصورة جوهرية. ذلك أن القرويين آثروا المحافظة على طرق معيشتهم وحياتهم الخاصة. وجل ما حدث هو قيام طائفة إسلامية إلى جانب الطائفة الهندوسية الموجودة. ومع أن المسلمين درجوا على مشاركة جيرانهم الهندوس في طرق معيشتهم وحياتهم، إلا أنهم في حالة اشتباكهم أو اصطدامهم مع الآخرين كانوا يحظون بمعاملة استثنائية نظراً إلى انتسابهم إلى الطبقة الحاكمة.

وكان أول اتصال بين الهند وأوروبا قد وقع في عام 1498. وذلك عندما انتهى المطاف بـ «فاسكو دي جاما» حول القارة الأفريقية إلى نزوله بميناء «كاليكت» Calicut، وهي التي أقام البرتغاليون لأنفسهم فيها مركزاً تجارياً صغيراً. ومع أنهم في أوائل عهدهم قصروا نشاطهم على مزاولة التجارة، فقد كان يساورهم منذ البداية مطامع استعمارية. ولعل المتابعين للتاريخ الأوروبي يذكرون أن من بين الأسباب التي حدت بالبرتغاليين إلى تحويل اهتمامهم صوب الشرق أن البابا كان قد اختص العالم الغربي بإسبانيا. وسرعان ما نجح البرتغاليون في توطيد أركانهم وانبروا يعملون في تأسيس إمبراطورية برتغالية في الهند.

ومع أنهم نجحوا في بادئ الأمر في عدم إثارة عداء ضدهم، إلا أن

تصرفاتهم ما لبثت خلال فترة قليلة من السنين أن ورطتهم في اشتباكات مع أصحاب البلاد الهنود. وعندما تحالف بعض الحكام الهنود مع العرب ونجحوا في إنزال الهزيمة بالأسطول البرتغالي في عام 1508، بدا أمر طردهم من البلاد ممكناً. ولما لم يتابع الهنود والعرب انتصاراتهم تمكن البرتغاليون من إعادة تأمين سيطرتهم وتفوقهم البحرى في العام الذي تلاه. على أن هزيمتهم أضعفت من آمالهم وأحلامهم بإقامة إمبراطورية عن طريق الغزو المباشر وغدوا أشد احتراساً وأكثر حذراً، ولكنهم استعملوا دهاءهم للتدخل في المنازعات المحلية. وذلك بالانحياز إلى فريق دون آخر، كما أثاروا النعرة الطائفية بين الهندوس والمسلمين كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. ومن ناحية أخرى أقام البرتغاليون جهازاً عسكرياً متيناً لتدريب القوات الهندية عسكرياً على أيدى ضباط أوروبيين، ونجحوا بعد قرن مفعم بالدسائس والقتال في إقامة مملكة لهم على سواحل الغربية من البلاد، وإن كانت الجهود التي بذلوها لإقامة إمبراطورية برتغالية قد ذهبت أدراج الرياح. وقد نبيح لأنفسنا أن نقرر هنا أنهم لم يتمكنوا من الاحتفاظ بأي منطقة من المناطق التي لم تكن في متناول نيران مدفعيتهم البحرية.

وجاء في أثر البرتغاليين الهولنديون والبريطانيون والفرنسيون، وكلهم يحلم بثراء الشرق العظيم. وليس من السهل الميسور أن نقرر ما إذا كان الرعيل الأول من هؤلاء يعللون النفس في بادئ الأمر بمطامع استعمارية، لأنهم عندما قدموا إلى البلاد كانت الإمبراطورية المغولية قوية موطدة الأركان والدعائم. فاقتنعوا واكتفوا بالحصول على تراخيص وأذونات تجارية من الحكومة القائمة. يتضح من كل ذلك أنهم استهلوا أعمالهم كتجار، ولكن سرعان ما استهوتهم فكرة الإمبراطورية وأخذت تداعب أحلامهم، فبدؤوا يعملون من أجلها. أما مراكزهم التجارية فقد أقاموها على أطراف الإمبراطورية، واهتموا في بادئ الأمر بتحصينها، دفاعاً عن

أنفسهم ضد اللصوص وغيرهم من المغيرين. وكان لا بد لحروبهم في أوروبا من أن تؤثر على المراكز التجارية التي أسسوها في الهند. وهكذا أنهم حولوا هذه المراكز إلى قلاع لعمليات دفاعية أو هجومية إما ضد بعضهم بعضاً وإما ضد الحكام الهنود.

وكان البرتغاليون أول من أفل نجمهم بين الأوروبيين الذين وفدوا على الهند. ويعود ذلك إلى عدة عوامل، أولها أن انهيار قوتهم البحرية تدريجياً أدى بدوره إلى ضياع نفوذهم في أوروبا. أما السبب الثاني فنلمسه فيما وقع بعد اكتشاف البرازيل من تحول الاهتمام إلى العرب. ولعل العامل الحاسم لأفول نجمهم يعود إلى عدم تسامحهم الديني الذي أثار سخط الهنود ونقمتهم عليهم. والمعروف عنهم أنهم كانوا أشد العناصر الأوروبية تعصباً لنشر الدعوة الكاثوليكية، ولم يكتفوا بالقيام بعمليات واسعة النطاق لرد الهنود عن دينهم وإدخالهم في حظيرة الديانة المسيحية، ولكنهم شجعوا التزاوج مع الهنود تحقيقاً لهذا الهدف. وكان لهذا النشاط التبشيري أن قامت في البلاد طائفة كاثوليكية كبيرة إلى جانب الطائفة المسيحية السورية، وهي طائفة محلية عاش أفرادها في الهند بسلام وأمان منذ 2000 عام.

وكان الهولنديون ثاني العناصر الأوروبية في الهند التي خسرت في السباق من أجل النفوذ والسلطان، على أنهم نجحوا في إقصاء البرتغاليين عن الهند الشرقية أي إندونيسيا، وأصبحوا من أشد المنافسين للبريطانيين والفرنسيين في التجارة الهندية. بل إن الهولنديين استمروا زهاء عشرات السنين من أكبر المروجين لهذه التجارة والمشتغلين بها. وقد أسفر ذلك السباق تدريجياً عن قيام مناطق نفوذ مختلفة. فبينما كان الهولنديون يركزون اهتمامهم في الهند الشرقية كان البريطانيون يوجهون كل اهتمامهم إلى الهند. أما الفرنسيون فكانوا آخر من ظهر على مسرح الحياة الهندية من

بين الأوروبيين. ولم يؤدّ نجاحهم في بادئ الأمر إلى إثارة القلق، ولكنهم كانوا أول من فكروا بإقامة إمبراطورية لهم بعد المحاولة الفاشلة التي قام بها البرتغاليون في هذا الصدد. وفي منتصف القرن الثامن عشر بدأت مطامعهم السياسية تطغى على أغراضهم التجارية. والطريف في الأمر أنهم استخدموا الأساليب والخطط نفسها التي استخدمها البرتغاليون من قبلهم. وقامت سياستهم على التدخل في الخصومات المحلية وتأسيس جيش هندي مدرب على أحدث الفنون العسكرية الأوروبية تحت إشراف ضباط أوروبيين. أما تدخلهم في المنازعات المحلية فقد أثار عليهم نقمة البريطانيين، وأسفر بالتالي عن تأسيس إمبراطورية بريطانية في الهند.

ويلاحظ أن الأوروبيين عند قدومهم إلى الهند كانوا على وجه التأكيد دون الهنود خبرة في ميادين السلام. ولا يستبعد أنهم في بادئ الأمر كانوا دون الهند معرفة بفنون الحرب. على أنهم، رغم كل هذه الاعتبارات، ربحوا في النهاية معركة النفوذ والسلطان. ويعود فوزهم في هذه المعركة إلى عدة عوامل. وسنكتفي بتلخيص المهم منها فيما يلي:

أولا: انهيار الامبراطورية المغولية والاخفاق الذي لازم الهنود في تأسيس حكومة مركزية قوية. ولعل من المشكوك فيه أن يوفّق البريطانيون أنفسهم في تأسيس إمبراطورية لهم، لولا ما شهدته البلاد في عام 1761 من ركود حربي نشأ عن معركة «باني بت» الثالثة، ذلك أن هذه المعركة لم تضعف «المراتين» فحسب، بل أدت إلى إضعاف المسلمين. فهيأت للبريطانيين فرصة لتعزيز قواهم في المناطق الشرقية والجنوبية من البلاد.

أما العامل الثاني الذي يفسر لنا سر نجاح البريطانيين فيعود إلى عدم توفر قوة بحرية هندية. ذلك أن المغول، رغم ما قاموا به من تكوين جيوش جبارة، لم يدركوا ما للأساطيل البحرية من أهمية: وكان «المراتيون» و«حيدرعلي» الوحيدين من بين الهنود الذين لديهم فكرة عن أهمية القوات

البحرية، فسعوا لبناء أسطول جبار. بيد أنهم لم يوفقوا، لأن المحاولة جاءت متأخرة من ناحية، ونظراً إلى أن الأوروبيين سبق لهم أن سجلوا تفوقاً عظيماً في الميادين الفنية. والواقع أن التفوق الفني عند البريطانيين هو العامل الحاسم الثالث الذي ضمن للبريطانيين إقامة إمبراطورية في الهند. ذلك أن أوروبا منذ القرن السابع عشر فما بعد كانت قد سجلت سلسلة من الاكتشافات العلمية. وقد أدت هذه مع مرور الزمن إلى إحداث تغيير هائل في وسائل الانتاج الصناعي وفنون الحرب والقتال. وقد تسنى للعرب والأتراك، بفضل تفوقهم عسكرياً وما كان يتوفر لديهم من خبرة علمية، دحر الأوروبيين وإلحاق الهزائم بهم. ويلاحظ أن الأوروبيين وإن مكثوا مدة من الزمن متأخرين في ميدان الفنون البحرية، إلا أنهم استطاعوا فيما بعد اللحاق بقافلة الزمن، في حين أن آسيا بأسرها من الناحية الأخرى تخلفت عن قافلة العالم في هذا الميدان. وعلى ذلك فإن ملوك الهند وحكامها عندما اصطدموا بالبريطانيين لم يتمكنوا من الصمود أمامهم.

وبوفاة «أورنجزيب» في 1707 أصبحت الهند لمدة مئة وخمسين عاماً مسرحاً للدسائس والأحقاد المستمرة، وأصبح المتربع على عرش دلهي إمبراطوراً بالاسم، إذ إن النفوذ الحقيقي آل إلى الحكام وقادة الأقاليم. على أن هؤلاء الملوك استمروا يعيشون في أبراجهم العاجية كأن شيئاً لم يكن. وعمد المتنافسون من هؤلاء الحكام والولاة إلى استغلال لقب الإمبراطور الاسمي لتأمين مصالحهم. ويلاحظ أن الأمراء المراتيين حاربوا بعضهم بعضاً كما حاربوا المناطق الأخرى من الهند. وشهدت الأجزاء الشرقية والجنوبية والشمالية من البلاد اشتباكات حادة بين عدد من المتنافسين على العروش والمطالبين بها. ولعل ما أبداه الهنود من ضعف وانحلال يفسر السبب الذي بعث فكرة إنشاء إمبراطورية في عقول الأوروبيين. وكما بينا فيما سبق فإن الفرنسيين كانوا أول من أحيى سنة البرتغاليين بالتدخل في

الخلافات المحلية بين الأمراء الهنود والانحياز إلى فريق دون آخر. وقد أفاد الفرنسيون من هذا التدخل من حيث المغنم والنفوذ. وسرعان ما شرع البريطانيون يقلدون الفرنسيين ويحذون حذوهم. وعندما شرعوا في هذا التقليد بتدخلهم في الصراع الذي قام بين المطالبين بعرش «أركوت» تمكنوا في مدة لا تكاد تتجاوز أربعين سنة من بسط سيطرتهم بحكم الأمر الواقع على أقاليم «البنغال» و«بهار» و«أوريسا» وإن احتفظ الحكام والولاة المحليون بنفوذهم في الظاهر. وقد دأب البريطانيون طيلة القرن الثامن عشر وقسم من القرن التاسع عشر على الادعاء بأنهم مجرد جباة للدخل باسم الامبراطور. بيد أنهم خلال حكم «كورنواليس» Cornwallis (1793-1786) إن لم يكن في عهد «وارن هيستنجز» Warren Hastings (1774-1785) أصبحوا في الواقع الأداة الحكومية الفعالة لقسم عظيم من أجزاء البلاد.

ولم يكن الانتصار الذي أحرزه البريطانيون بالأمر الهين، فقد منوا بنكسات عديدة أولاها تلك التي منوا بها في الجنوب. وتراءى إلى حين أن مملكة «ميسور» Mysore ونجله السلطان «تيبو» Tipu بكفاءتها وبسالتها ستتمكّن من الوقوف في وجه البريطانيين. ولئن رجحت كفة الوالد على نجله في القيادة، إلا أن الابن فاق والده وطنية، ووضع قضية استقلال البلاد فوق كل اعتبار. على أنهما لم يتمكنا من الاتحاد مع «المراتيين» و«النظام»، رغم إدراك «تيبو» بأن البريطانيين هم مصدر الخطر الذي يهدد استقلاله دون أي سلطة من السلطات القائمة في البلاد. ومن ناحية أخرى فإن تعاظم نفوذ حيدر علي بسرعة أثار حسد «المراتيين» و«النظام». وقد استغل البريطانيون هذا الشعور على أحسن وجه لحمل النظام والمراتيين على التحالف معهم ضد صاحب ميسور الذي غلب على أمره نهائياً بعد عشرين سنة من الحروب.

وكان المراتيون السلطة الهندية الثانية التي تغلب عليها البريطانيون، ومع أن «وارن هيستنجز» كان قد حاربهم إلا أنه لم يشعر بمقدرته على تحديهم بصورة جدية، إلا بعد انهيار مملكة صاحب «ميسور». وتمكن البريطانيون من التغلب على «المراتيين» والقضاء على نفوذهم في الفترة الواقعة ما بين 1800-1820. ولم يبق أمام البريطانيين من خصوم سوى «السيخ» الذين كانوا يسيطرون على منطقة «البنجاب». على أن هؤلاء فقدوا بوفاة «رنجيت سنج» Ranjit Singh القائد الذي لم تكن تعوزه القوة والنبوغ. ووقعت أول محاولة جدية من جانب البريطانيين للتدخل في السياسة الهندية حوالي عام 1750. وبحلول عام 1850 أصبحوا أصحاب الكلمة العليا والنفوذ في البلاد.

وفي وسعنا أن نلخص مراحل التوسع البريطاني في الهند على الوجه التالي؛ فقد مكّنهم انتصارهم في معركة «بلاسي» Plassy عام 1757 من بسط سيطرتهم على البنغال، وإن لم يصبحوا حكام هذا الإقليم الحقيقيين. وفي عام 1765 استحصلوا من الإمبراطور المغولي حق جباية الدخل في أقاليم «البنغال» و«بهار» و«أوريسا». وادى تداعي ممكلة «ميسور» في عام 1799 إلى أن يبسطوا سيطرتهم على جزء كبير من المناطق الجنوبية. وقد تمكن «ولسلي» Wellesley في ما بين 1798-1805 من تنظيم وإبرام عدة تحالفات فرعية لإخضاع الأمراء الهنود إلى النفوذ البريطاني دونما حاجة إلى الدخول معهم في معارك. و«ولسلي» هذا هو الذي قضى على مملكة «ميسور» وقوّض أركانها. واستمرت عملية استيلاء البريطانيين على ممتلكات وأراض جديدة في عهد «دلهوزي» Dalhousie ما بين 1848-1856، فاندفع مستغلاً الفرص السانحة لبسط السيطرة البريطانية على البلاد كلما قام نزاع حول وراثة العرش بحكم انعدام وارث طبيعي، أو كلما وجد البريطانيون أنفسهم غير مطمئنين إلى الوارث الشرعي. ولما كان

للبريطانيين القول الفصل في جميع الشؤون المتصلة بوراثة العروش، فقد مكنتهم هذه الصلاحية من الاستيلاء على أي منطقة من المناطق التي يريدونها. وقد أدى الشعور بالاستياء والتذمر الناشئ عن هذا السياسة إلى ثورة عام 1857 وإخضاع شركة الهند الشرقية إلى المراقبة والإشراف. غير أن التاج البريطاني أخذ على عاتقه منذ ذلك الحين مسؤولية الإدارة الهندية بصورة مباشرة، معلناً في الوقت نفسه الكف عن سياسة التوسّع. وفي عام 1877 نودي بملكة بريطانيا إمبراطورة على الهند.

إن تاريخ نمو النفوذ البريطاني في الهند يختلف من عدة نواح عن قيام الإمبراطورية المغولية وتأسيسها. ومع أن المسلم به أن «بابر» وضع أسس الامبراطورية في عام 1526 بعد معركة «باني بت» الأولى، إلا أن جميع معالم النفوذ المغولي وآثاره كانت قد زالت في غصون خمسة عشر عاماً. وعلى هذا فإن العهد المغولي يبدأ في الواقع من عام 1556، عندما كسب «أكبر» معركة «باني بت» الثانية. ولا خلاف في أن الإمبراطورية المغولية كانت توطدت في شمالي الهند، وقسم من مناطقها الجنوبية، بعد مرور ثلاثين عاماً على هذا التاريخ. وبالمقارنة نجد أن البريطانيين احتاجوا إلى مئة عام لتدخلهم في السياسة المحلية وتأسيس حكمهم بالتالي.

أما نقطة التباين الهامة الثانية بين العهدين فهي أنه في حين أن الإمبراطورية المغولية كسابقاتها من الإمبراطوريات الهندية اعتمدت في قيامها على القوات البرية، إنما تحقق الحكم البريطاني بفضل تفوق البريطاني البحري. والواقع أن هذه كانت أول مرة في تاريخ البلاد تقوم بها دولة بحرية بتأسيس إمبراطورية لها في الهند. وعلاوة على ذلك، فإنه بينما قامت الإمبراطورية المغولية في الزاوية الشمالية الغربية في البلاد، ثم امتدت تدريجياً إلى النواحي الشرقية والجنوبية منها، فإن السلطة البريطانية بدأت تظهر على السواحل الجنوبية الشرقية. ولعل تهديد حيدر

علي المتواصل جعل من المتعذر على البريطانيين اتخاذ «مدراس» نقطة وثوب للزحف البريطاني. وكذلك فإن مدينة «بومباي» كانت تعيش في ظل الحكم «المراتي». وكما أسلفنا فإن حيدر علي و«المراتيين» انفردوا من بين الولاة الهنود في إدراك أهمية الأساطيل البحرية. وليس من المستغرب في مثل هذه الظروف أن يتحول مركز النفوذ البريطاني إلى النواحي الشرقية من البلاد. والواقع أن النفوذ البريطاني أخذ يمتد تدريجياً عبر البلاد عن طريق «كلكتا».

ولعل أهم فارق بين الإمبراطورية البريطانية والإمبراطوريات التي سبقتها في الهند يتجلى في نوع وطبيعة السلطة التي تولت حكم البلاد. فبينما نلاحظ أن الإمبراطوريات السابقة تأسست بفضل جهود الجنود المغامرين الذين كرسوا حياتهم لتأسيس الإمبراطوريات، فإن البريطانيين تسللوا إلى البلاد عن طريق التجارة. وحتى بعد أن حققوا لأنفسهم ما كانوا ينشدونه من سلطة سياسية، فإن الشركة التجارية البريطانية هى التي مارست السلطات في البلاد، وكان الطابع التجارى لهذه الشركة قد أثر تأثيراً محسوساً على نوع الجهاز الإداري في البلاد ووظيفته. وما كان لملك ـ وإن كان دخيلاً أجنبياً ـ إلا أن يسهر بحكم مقتضيات الأمور على مصالح رعاياه إلى حد ما. أما شركة تجارية فكانت تعمل صراحة بوحي من منافعها ومصالحها المادية، وكان طبيعياً، ما دامت هذه الشركة التجارية السلطة الحاكمة، أن يسخر الجهاز الإداري لتأمين مصالح حملة الأسهم بدلاً من الاهتمام بمصالح أفراد الشعب الذين آل إليها أمر حكمهم.

لم يستمر الطابع التجاري المحض للجهاز الإداري طويلاً. ولا خلاف في أن الشركة حتى في بادئ عهدها كانت تضم عدداً من ذوى الكفاءات والآفاق الواسعة. وكذلك فإن البرلمان البريطاني انبرى للتدخل في شؤون الشركة في موعد مبكر. فقد أخضعت إدارة المستر «كلايف» Clive، إلى

رقابة برلمانية. وما كادت تنقضى عشرة أعوام على تأسيس المحاكم العرفية «ديواني» حتى صدر قانون التنظيم لعام 1773. وهو القانون الذي هدف إلى الحد من نشاط الشركة غير المرغوب فيه. أما قانون «بت» Pit الصادرة في عام 1784 فقد فرض قيوداً أخرى على الشركة وموظفيها، وتكشفت محاكمة «وارن هيستنجز» من عيوب خطيرة في الإدارة، مما أدى إلى المطالبة بتوسيع نطاق المراقبة البرلمانية على الشركة. وبتعين المستر «كورنواليس» Cornawallis في عام 1786 حظيت الشركة أول مرة بشخصية عسكرية سياسية امتازت باستقلالها في الرأي. وكان «كورنواليس» قد قبل رئاسة إدارة الشركة شريطة أن تكون له الكلمة العليا على جميع الموظفين.

نستنتج من كل ذلك أن ازدياد اهتمام البرلمان البريطاني بشؤون الشركة أدى إلى تغير تدريجي في طابعها. وقد فرض قانون التنظيم على الشركة أن تنقل إلى الحكومة البريطانية جميع المراسلات الصادرة عن الهند والخاصة بالدخل والمسائل المدنية والعسكرية. أما قانون 1781 فوسع نطاق هذه الأحكام بحيث أصبحت تشمل المراسلات الموجهة إلى الهند. ومن ناحية أخرى فإن قانون «بت» سنة 1784 الخاص بالهند قد حول الشركة في الواقع إلى دائرة حكومية. ومع أن «القانون الميثاقي» Charter Act لعام 1813 لم يحدث تغيرات دستورية واسعة إلا أنه ألغى الامتياز التجاري الذي طالما تمتعت به الشركة، كما نص على اعتمادات مالية سنوية لتشجيع التعليم والآداب والعلوم. أما قانون 1833 فقد جرد الشركة من طابعها التجاري وأفسح المجال للمرة الأولى أمام الهنود لإشغال مناصب عالية فيها، على أن ما نص عليه هذا القانون من إسناد وظائف للهنود بقي مجرد حبر على ورق ووعد لم ينفذ لسنين. وكان آخر قانون ميثاقي قد صدر في عام 1853، فأفسح مجال العمل والتوظيف في الشركة على أساس المسابقة. وعلى ذلك جرّدت الشركة من أي رعاية وفقدت طابعها التجاري. والواقع أن ما بقي

لها من نفوذ صوري لم يلبث أن زال بعد ثورة عام 1857، عندما أخذ التاج البريطاني على كاهله مسؤولية الحكومة الهندية.

ولعل ما أوردناه عن الكيفية التي تم بها الاستعاضة عن حكم الشركة واستبداله تدريجياً بإدارة عامة مسؤولة أمام البرلمان البريطاني لا يخرج عن كونه نصف الرواية. أما النصف الآخر والأهم فينحصر في نقل شؤون الإدارة تدريجياً من البريطانيين إلى الشعب الهندي. وكانت الشركة منذ البداية هيئة تجارية تعمل بصورة سافرة من أجل الربح، على أن ممارسة البرلمان البريطاني للسلطان لازمه اهتمام بمصالح الشعب ورعايتها. ومن الواضح أن هذا الاهتمام بمصالح الشعب لم يصبح فعالاً شاملاً إلا بعد أن تحولت الإدارة إلى حكومة من الشعب تعمل لمصلحة الشعب الهندي.

وكانت أولى المحاولات التي بذلت للتجاوب مع رغبات الشعب الهندي هي قانون «متكاف» Metcalfe للمطبوعات الصادر عام 1835. وقد ألغى هذا القانون المراقبة على الصحف وأتاح الفرصة للصحف الهندية أن تعبر عن آرائها بحرية. ولعل قانون «متكاف» كان سابقاً لأوانه، إذ لم يكن من الميسور إذ ذاك دائماً ممارسة الحقوق الدستورية بحرية، بل إن هذا الحق ألغي بفضل «قانون الصحافة الوطنية المحلية» لعام 1878، الذي ميز وفرق بين الصحافة البريطانية والهندية. على أن العام الذي تلاه شهد خطوة كبيرة إلى الأمام. ولما كان الهنود لا يشغلون مناصب إدارية هامة، فإن القوانين التي سنّت عن حسن نية لم تنفذ وبقيت حبراً على ورق، ولكن لما تم تأسيس الخدمة المدنية في عام 1779 فقد تحققت لأول مرة العهود التي قطعت بمقتضى القانون الميثاقي لعام 1833.

وفي غضون ذلك أخذ اشتراك الشعب ومساهمته في الحكومة ينمو ويتطوّر تدريجياً. وقد نص قانون المجلس الهندي لعام 1861 على إشراك

عدد من غير الموظفين في الأعمال التشريعية التي تقوم بها الحكومة المركزية وحكومة المقاطعات الثلاث. ورغم أن صلاحيات هؤلاء كانت محدودة وأن تعيينهم تم عن طريق الترشيح، إلا أن القانون أتاح لهم الفرصة للإشراف على أعمال الهيئة التنفيذية. وفي عام 1883 أصدر «رَيبن» Ripon قراراً بمنح الحكم الذاتي المحلي على غرار القوانين المعمول بها في بريطانيا في ذلك الحين، وتلا ذلك إلغاؤه لقانون المطبوعات المحلية. كما سن تشريعات تقضى بإزالة التمييز القائم في الهيئة القضائية. على أنه اضطر في النهاية إلى التخلى عن مشروع القانون، وهذا نظراً للمعارضة القوية التي أبداها الرأي العام البريطاني. ويلاحظ أن انعقاد أول دورة لحزب المؤتمر الهندي بعد مرور عام واحد على مغادرة «رَيبن» البلاد لم يأت عفواً أو عن طريق المصادفة، على أن قانون المجلس الهندي لعام 1892 يعتبر خطوة أخرى إلى الأمام. ذلك أنه أحدث النظام التمثيلى، وإن لم يكن النظام الانتخابي، في المجالس التشريعية، مركزية كانت أو إقليمية، كما منح حق مناقشة الميزانية وتوجيه الأسئلة حول المشاكل ذات الأهمية العامة.

ولعل أهم انقلاب وقع تمثل في إدخال النظم التعليمية الغربية على البلاد. ومع أن هذه الخطوة لم تكن موضع التشجيع من الحكومة القائمة في ذلك الحين، إلا أن الحماسة التي أبداها نفر من رجال الإرساليات المسيحية وبعض الزعماء الهنود من ذوي الآفاق الواسعة والإيمان القوي مكّنهم من التغلب على جمود الإدارة في هذا الصدد. وجاء إصرار «مكاولي» Macaulay على تطبيق النظم التعليمية الغربية بمثابة القوة المشجعة لنشاط وجهود رجال الإرساليات أمثال «كاري» Carey والزعماء الهنود من طراز «راجه رام موهن روي» Raja Ram Mohan Roy . وقد رجحت كفة الداعين لاقتباس النظم التعليمية الغربية عندما تم تأسيس ثلاث جامعات

في «كلكتا» و«مدراس» و«بومباي». وبفضل قيام هذه الجامعات تهيأت الفرصة للعقلية الهندية أن تتصل مباشرة بالأفكار السياسية الأوروبية الحرة والانتفاع من الطابع العلمي الأوروبي، ومهما أخذنا على ذلك النظام التعليمي من عيوب ونقائص إلا أنه من غير المشكوك فيه أن النهضة الهندية مدينة إليه بالشيء الكثير.

وأدى تقسيم إقليم البنغال في عام 1905 إلى خلق جو سياسي جديد في البلاد، ذلك أن انتشار التعليم وما بدا في البلاد من وعي سياسي متزايد قد عزز المطالبة بالحكم الذاتي. بيد أن الاصلاحات التي أدخلت وفقاً لتوصيات «مورلي منتو» Morley Minto في عام 1909 وما أعقبها من إصلاحات أخرى أوصى بها «مونتفورد» Montfords في عام 1919 قد أثبت أنها قصة. وكان انهيار الامبراطوريات القديمة في أوروبا وتحول الإمبراطورية البريطانية نحو نظام «الكومنولث» الذي وضع المستعمرات القديمة كـ «كندا» و«أستراليا» على قدم المساواة مع بريطانيا، مصدر إلهام للشعب الهندي وحفزه على بذل مزيد من الجهود للحصول على حريته. والواقع أن مؤتمرات المائدة المستديرة التي عقدت ما بين 32-1930 كان لها فضل يذكر في هذا الاتجاه. ذلك أن هذه المؤتمرات والاجتماعات هيأت أول فرصة لمثلي الشعب الهندي للاجتماع بممثلي الحكومة البريطانية على قدم المساواة والتداول معهم بشأن مستقبل البلاد. وقد نص قانون حكومة الهند لعام 1935 على منح الأقاليم نوعاً من الاستقلال الذاتي وتعهد بفرض مدى أوسع في المراقبة على الحكومة المركزية. وقد أدى قيام الحرب الكونية الثانية واندلاعها إلى عرقلة إقامة النظام الاتحادي وتقدمه. وفي هذه الظروف تحوّلت جهود الهنود نحو المطالبة بالاستقلال التام وقطع العلاقات مع بريطانيا. وفي عام 1947 صدر قانون استقلال الهند الذي اعترف بحق

الهند في تقرير مصيرها. ومن الطريف حقاً أن الهند عندما حصلت على السيادة والاستقلال استقر رأيها على الأخذ بالنظام الجمهوري إلا أنها لم تر ما يبرر لها التخلي عن رابطتها بمجموعة دول «الكومنولث».


غزاة الهند
1. الآريون 2500 ق.م.
2. الفرس 500 ق.م.
3. الإغريق 300 ق.م.
4. البرثيثيون والسكيثيون 100 ق.م.
5. قبائل الهون القرن السادس الميلادي.
6. العرب القرن الثامن الميلادي.
7. الباتانيون القرن الحادي عشر الميلادي.
8. الأهوميون القرن الثالث عشر الميلادي.
9. الدورانيون القرن الثامن عشر الميلادي.
10. المغول القرن السادس عشر الميلادي.
11. البرتغاليون القرن الخامس عشر الميلادي.
12. الإنكليز القرن السابع عشر الميلادي

عمليات
التنسيق والتوفيق في العهد الآري

إن الهند منذ أقدم العصور، هي نقطة التلاقي لمختلف الأجناس والعناصر والحضارات المتضاربة. وقد حاولت الهند منذ القدم أن تؤلف هذه العناصر المتضاربة التي تكوّن وحدتها الكاملة. ولعل الحضارة الهندية بتاريخها المتواصل هي من أقدم الحضارات. وفي حين أن حضارات البلدان الأخرى، التي عاصرتها، لم تعمر بل آلت إلى الزوال، فإن الهند لم توفق إلى أن تعمر وتستمر على قيد الوجود فحسب، بل احتفظت أيضاً بثقافة مستمرة غير متقطعة. وقد شهدت الهند تلاقي أجناس مختلفة تصادمت وتصارعت ثم ما لبثت أن تآخت على أراضيها، فقد استوعبتها جميعاً في النهاية. ربما تبارت الثقافات المتباينة التي شهدتها الهند وتنافست من أجل السيادة والسيطرة، إلا أنها صهرتها في بوتقتها وصاغتها على النحو والكيفية التي اختطتها. والواقع أن العناصر والحقائق الأجنبية على السواء تفتّت في طواحينها. وقد تمخض الصراع بين هذه العناصر والأفكار في النهاية عن قيام عملية امتزاج فيما بينها، تعتبر في مستواها من أسمى ما حققته النفس البشرية. لقد صمدت الهند أمام الأعاصير والحروب المتكررة التي دارت رحاها في أراضيها قروناً طويلة كما صمدت أمام الآفات والأوبئة التي منيت بها. وخرجت منتصرة مظفرة من نضالها وصراعها ضد الكوارث الطبيعية وإساءات الحكم البشرى. فما أعجبها حيوية تلك التي تغلبت على الفناء والموت. وما أعظمها حكمة تلك التي استطاعت أن توفق وتؤلف بين الآراء والنظريات المتناقضة. إن قصة الثقافة الهندية تكشف لنا عن السر الكامن وراء هذه الحيوية والحكمة. وهي في الواقع قصة تروي لنا عملية التوحيد والتركيب، والوفاق والتحسين، والانصهار الكامل بين التقاليد القديمة والقيم الحديثة.

1 - الوحدة في التناقض

كان يعتبر حتى عهد قريب أن الآريين هم أقدم الأجناس التي غزت الهند. وقد اعتُد أنهم عندما وفدوا إلى الهند فقد حلوا ببلد غير متمدن بربري، على أن الأبحاث العلمية الحديثة قد ردت تاريخ الهند القديم إلى ما وراء الآريين. ذلك أن أقواماً آخرين كانوا قد سبقوا الآريين الذين جاؤوا إلى هذه البلاد في أعقابهم. والمعروف أن الذين سبقوا الآريين إلى غزو البلاد، قد شتتوا سكانها الأصليين وأقاموا حضارة بهرت العلماء المعاصرين من حيث اتساع نطاقها وعمق غورها. على أن الغزوة الآرية كرّرت الرواية نفسها بفضل ما أسفرت عنه من الجمع والتوفيق ما بين القديم والحديث. وقد استمرت عملية الجمع والتوفيق هذه، باستمرار تسلل العناصر المحاربة إلى الهند، وهي التي جاءتها بقصد الفتح والتوسع، ولكنها ما لبثت أن فقدت هويتها وذابت في مرجل الأعراق الهندية. وجاء على أعقاب الغزو اليوناني للهند غزوات «الساكاس» و«الهون» ومئات غيرهم من القبائل التي لم تعرف أسماؤها. ومع أن هؤلاء ظهروا على المسرح الهندي كفاتحين مظفرين، إلا أن الشعوب التي تغلبوا عليها ما لبثت أن استوعبتهم وصهرتهم في أتونها.

ويلاحظ أن كل غزوة من الغزوات الجديدة التي تعرضت لها البلاد سواء أكانت فكرية أم مادية، وجدتها أكثر بلاغة، وسرّعت عملية الاستيعاب والتنسيق، وأدت في أسوأ الأحوال إلى التجاور التلقائي. ولكن من محاسنها أنها بعثت إلى الوجود نمطاً أساسياً جديداً من الحياة. والجدير بالذكر أن المرجل الذي يجيش ما كان ليهدأ أو يفتر، لأنه كان يتغذى باستمرار بمكوّنات حديثة تضاف كل بدورها إلى ثراء الحياة الهندية وتنوعها. وقد يحاول نفر من المشتغلين في العلوم الاجتماعية أن يربطوا بين الانقلابات التي طرأت على النواحي الاجتماعية الهندية ودياناتها المتنوعة، ويقيموا صلة بينها وبين غارة خارجية أخرى في جانب مغيرين آخرين، ولكن هذه الرواية بقيت غير

مكملة، وما زالت تعتبر في عداد النظريات. وجل ما نستطيع أن نقول، هو أن كل ما يمكن اعتباره هندياً اليوم سواء في الأفكار والتعابير أو الأساليب أو الفنون أو المؤسسات السياسية والعادات الاجتماعية، لا يخرج عن كونه مزيجاً من عناصر وتراكيب مختلفة.

ورغم أن الهند قد استمدت وأخذت من مختلف المصادر والموارد، وبغض النظر عن اختلاف المصادر التي استقت منها وتنوّعها وتعدّد أساليبها ونماذجها وأشكالها، فإننا نلمس فيها وحدة رائعة في الشعور، هذه الوحدة التي ظلت على مر العصور والأجيال مصدر وحي وإلهام الثقافة الهندية. وباستثناء محتمل للحضارة الصينية، فما من حضارة من حضارات العالم تستطيع أن تضاهي الحضارة الهندية من حيث سعة حجمها وزمنها. فمساحة الهند وتعداد سكانها وتنوع أجناسها وعمق تاريخها قلما يوجد لها مثيل في العالم. أما حيوية الثقافة الهندية فهي بدورها مثيرة للدهشة. وعلى الرغم من آلاف التقلّبات، فإنها استطاعت البقاء حتى العصر الحديث. على أن الهند لم يتسن لها أن تعمر فحسب، ولكنها أبدت من النشاط والحيوية ما يبشر بأنها ستتحول إلى مصدر من أنفع المصادر وأكثرها فائدة للثقافة العالمية في المستقبل. وقد اكتسبت الهند هذه الميزة بفضل ذاتيتها الهندية التي فرضت الوحدة على كل التباين والتنوّع وحاكت في نسيج واحد من الحياة الوطنية مختلف العناصر التي تسربت إليها بأنواعها وألوانها وصفاتها المتعددة.

إن عاملي الوحدة والتناسق هما الدعامتان الأساسيتان لاستمرار التقاليد الهندية. لقد أنتج العالم القديم الكثير من الحضارات في مختلف البلدان، وقد تلاشت وانهارت جميعها باستثناء الحضارتين الهندية والصينية. وربما ازدهرت حضارات جديدة في مثل هذه البلدان القديمة، إلا أنها حديثة العهد والنمو. والواقع أن الهند وحدها هي البلد الذي شهد قيام حضارات قديمة وتبدّلها دون أن تمس هذه الحضارات بوحدة البلاد

الأصلية، وما يقال في الهند يقال عن الصين إلى حد ما. وما كان لهذا أن يتحقق إلا بفضل مقدرة المجتمع الهندي وطاقته على تكييف نفسه كلما دعت الضرورة إلى ذلك. والواقع أن مقدرة بلد ما واستعداده على تكييف نفسه هي دليل الحياة. ويكمن استمرار الحضارة الهندية وتعميرها طويلاً فيما أبداه الفكر الهندي والمجتمع الهندي من تكيّف مع الظروف في مختلف العهود والأوضاع بمرونة لا تجارى، ثم تكرار عملية التكيّف هذه كلما دعت الضرورة إلى ذلك.

تعكس لنا عملية التكيّف هذه روح التسامح التي امتاز بها التاريخ الهندي على مر العصور. وكانت السياسة الهندية من جميع النواحي، تقوم على أساس التعايش. وقد حدث أحياناً أن غالى الهنود في سياسة التسامح هذه إلى درجة أدت إلى نتائج واتجاهات معاكسة، بل متناقضة. وقد بلغت روح التسامح هذه بالهنود حداً أدى إلى تحمل الأذى وأحياناً إلى عدم المبالاة بقيم الحياة. ولعل أردأ ما يقال عن ذلك هو أنه عيب في عمل صالح. وعندنا أن هذا التسامح أفضل من التعصب الأعمى القائم على إنكار جميع القيم الأخرى التي تختلف عن قيمه واضطهادها.

يلمس المتتبع لتصور التاريخ الهندي والتغيرات التي طرأت عليه، روح الوحدة الأصلية هذه التي تعتبر مصدر إلهام لنواحي الحياة الهندية. على أن هذه الوحدة لم تكن رتيبة جامدة تتلاشى فيها عوامل الحياة. إنها وحدة حية، فيها طابع الشمول الذي يحمل في طياته رغبة في التنوع مع الاحتفاظ بالذاتية. وكل ما هو شامل عام لا يمكن أن يستنفد في أي قوام خاص ولا يتبدّد فيه. وما ينطبق على الشمول، ينطبق أيضاً على الحقائق المجردة. ذلك أن نفس الحقيقة تؤدي معاني مختلفة باختلاف القرائن أو سياق الكلام. وإن من ينكر ذلك فإنما يحاول إنكار إمكانية الاتصال بالمنطق. ففي عالم الحقائق القائمة على التجربة والاختبار، فإن اختبارنا لحادثة ما والمعنى الذي تؤدية يختلف باختلاف الأشخاص، وينطبق هذا القول

على وجه أعم على عالم الحقائق الملموسة. وكل من يسعى إلى الشمول لابد له من أن يصطبغ بصبغة ثابتة قاطعة. أما المضمون فيختلف باختلاف الشعوب والعصور والبيئات. والطريف أن وحدة الثقافة الهندية قامت على أساس الشمول الحقيقي، على أن الذي لا يمكن إنكاره، أن هذه الثقافة في نفس الوقت لم تخل من شائبة التنوّع والتباين، بل على العكس، فقد تغلبت على مظاهر الاختلافات السطحية وأوجدت فيها الوحدة.

إن عاملي الوحدة والشمول يلازمان كل ثقافة حية صادقة، ولا بد لهما إلى حد ما أن ينتميا إلى صميم هذه الثقافة. وكما هو معروف، فإن الثقافة من المعاني التي لا يمكن تحديدها بسهولة. وذلك لانعدام أي ميزة أو علامة فارقة تميزها عن أي شيء آخر. وهي دائماً وأبداً خليط ومزيج من عناصر متباينة الأهمية والحيوية. وإذا ما حاولنا التمييز بين الثقافة والحضارة، قلنا إن الحضارة عبارة عن نظام من الحياة يتسنى معه تحقيق مجتمع مدني، وقيام مثل هذا المجتمع المدنى هو شرط لأي حياة مشتركة تمكّن الأفراد وحدهم من متابعة نشاطهم الإبداعي المفيد. أما الثقافة فهي وليدة هذا النظام وتعبر عن نفسها عادة بواسطة اللغة والفنون أو الفلسفة أو الدين والعادات والطقوس الاجتماعية والمؤسسات السياسية والاقتصادية. على أن واحدة منها على انفراد لا يمكن اعتبارها ثقافة، ولكنها بمجموعتها تعبر تعبيراً حياً عما نصفه بالثقافة. وعلى ذلك فإن الثقافة والحضارة متلازمتان تتمم إحداهما الأخرى. فليس هناك ثقافة من دون حضارة وإن كان من الممكن قيام حضارة لم يتيسر لها بعد تنمية ثقافتها. والسائد في أكثر الأحيان هو وجود شعوب متمدنة لم يتسن إلا لعدد ضئيل منها أن يحقق ثقافة لنفسه. ولعل هذا ما يفسر عثورنا على سابقة تكون فيها بعض الشعوب والأجناس متمدنة، لكننا لا نعرف سابقة يمكن فيها اعتبار أمة أو جنس ما مثقفاً ثقافة تشمل جميع العناصر والطبقات التي يتألف منها. والثقافة، فيما نرى، هي ازدهار المدينة وانتعاشها.

أما والحالة كما هي عليه من إخفاق الانسان في التغلب على قوى الطبيعة، فلا مندوحة للثقافة من حيث مداها ونطاقها أن تكون دون الحضارة نفسها. ذلك أن طاقة الانسان وموارده المحدودة اضطرته ودفعته إلى الاختلاط ، لأن بقاءه دون ذلك يغدو مهدداً. فبفضل الاختلاط تسنى للإنسان نفسه هذا البقاء والاستمرار، وعندما ضُمن البقاء انطلقت منه تلك القوى الضرورية لتنمية الثقافة على نطاق بدائي. ويستنج من ذلك أن الثقافة هي وليدة للتحرّر من إلحاح مشكلة البقاء، في حين أن الحضارة هي الأداة التي استُنبطت واستخدمت لتحقيق هذا التحرر. وليس بمستغرب في هذه الحالة أن تكون الثقافة أقل انتشاراً وتغلغلاً من آلية الحضارة. أما الغريب في الأمر فهو أن الهند على ما يلوح، هي البلد الذي أقام الدليل على أن ثقافته ليست بأقل حظاً من حضارته.

وكثيراً ما نشاهد بين البلدان الغربية أمثلة على قيام حضارات لا تتوفر فيها الثقافة. والواقع أن من أخطر المشاكل التي يجابهها العصر الحاضر هي إيجاد وخلق ثقافات لتلك البلاد التي أحرزت تقدما باهراً في إعداد وتطوير نظم الحضارة ووسائلها. أما في الهند فكانت عمليات الحضارة أقل تطوّراً من مثيلاتها في أوروبا وأمريكا، ويتجلى مدى هذه الحضارة ودرجتها في طابع الشمول الذي تتميز به الثقافة المنتشرة بين صفوف الأغلبية من سكانها. وعندنا أنه حتى الزائر العابر بهذه البلاد لابد أن يدرك بأن الفوارق بين مجموعة الشعب وطبقاته لاتقوم على اختلاف في الجودة أو النوع، بل عن عدم التكافؤ في الفرص والمعلومات. أما الأمر في البلدان الأوربية فكان على العكس، حتى الآونة الأخيرة. ذلك أن الاختلاف في الجودة بين مجموعة الشعب والطبقات الأخرى بلغت في حين من الأحيان درجة زعزت الثقة في الديمقراطية، حتى بين أشد المتحمسين لها. وما كان للتقدم التكنولوجي أن يغيّر الوضع العام، بل الأمر على العكس، فقد اتجه هذا التقدم في المراحل الأولى على الأقل إلى خلق طبقة من البلداء والبلهاء. ويلاحظ أن تأخر الهند في تنمية الأساليب العلمية وتطبيقها لم يؤدِ

إلى هبوط مستوى التفوق بين الأفراد، كما أنه لم يجحف بما يتوفر بالفطرة من ذكاء ومهارة عند أصحاب الحرف والصناع المهرة من القرويين.

وعندنا أنه لا يمكن تعليل هذه الظاهرة الرائعة إلا على ضوء وحدة الثقافة الهندية واستمرارها. وكما سبق لنا أن لاحظنا، فإن هذه الوحدة من بعض النواحي تعتبر القاسم المشترك الأعظم بين جميع الثقافات. على أن أهم ما يميز الثقافة الهندية هو استمرارها دون توقف أو انقطاع. والهند لم تعرف الطفرات والهزات الفجائية العنيفة في ثقافتها، بل على العكس فإن الثقافة الهندية نمت وانتشرت تدريجياً، وما لبثت أن نفذت إلى جميع طبقات المجتمع الهندي وأقسامه. ولا شك أن ما لازم تاريخها من طول الأمد هو من أهم العوامل المساهمة في هذا التدرّج والنمو، على أن طول أمد تاريخها ما كان ليكفي لولا تسامحها الذي يعود إليه الفضل في تأمين وحدة تقاليدها واستمرارها.

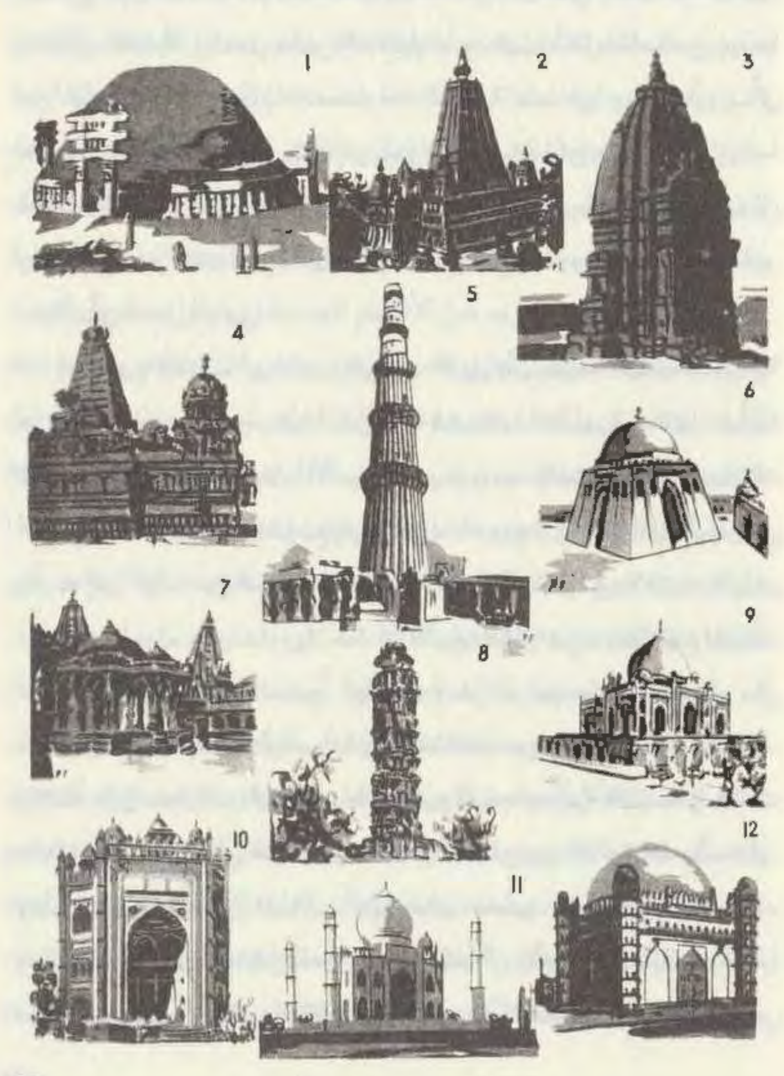
2 - التأثيرات الجغرافية

إن طبيعة الهند الجغرافية قد ساعدت إلى حد كبير بطريقة مباشرة وغير مباشرة على بعث روح التسامح القائم فيها. أما التأثير الجغرافي المباشر فيتجلى في مناخها وضخامة حجمها، وذلك أن اتساع حجمها أثر على تفكير السكان وعقليتهم من ناحيتين. إن التنوّع العظيم في مناظرها ومناخها وطرق معيشتها، هيّأ العقول لقبول الفوارق الشتى القائمة. وعلاوة على ذلك فإن ضخامة مساحتها أوجدت متسعاً جديداً لإسكان الذين تسلّلوا إليها من الخارج رويداً رويداً، وهيّأت لكل مجموعة فرصاً واسعة لتنمو وتترعرع وفقاً لأحوالها وظروفها. إن مناخ الهند على وجه العموم يساعد على التراخي والاستسلام، لاسيما إذا قورنت سهولة ظروف العيش فيها بالطبيعة الجبلية القاسية في أواسط آسيا، وهي مناطق أكثر القبائل التي غزت الهند. وهكذا تباطأت وتيرة التغير وهدأت، وسارت عمليات التاريخ سيراً وئيداً. وفي حين أن جغرافية البلاد تفسر لنا الميزات الخاصة لتاريخ الهند، فإن عوامل التاريخ والجغرافيا المشتركة تتجلى في عالم الروح. ولذا كان التسامح والتساهل مع الآخرين من ميزات الهند الخاصة. وقد نسلم بقيام اصطدامات واشتباكات في ميادين المادة. أما في عالم الروحانية حيث الانتعاش الثقافي فكل الأدلة تشير إلى وجود التنسيق والمزج بينها.

إن جغرافية البلاد مسؤولة إلى حد كبير عن خلق الذاتية الهندية. ذلك أنه قلما نعثر على بلد آخر خلقته الطبيعة على نحو يؤهله بأن يكون وحدة في ذاته. فالهند معزولة عن بقية القارة الآسيوية بتلك السلسلة من جبال الهملايا المنيعة. أما الجبال المحاذية لها فتمتد على شكل ساعد أيمن واق حتى تبلغ البحر. والبحر الذي يحيط بالهند من بقية النواحي يجعل منها وحدة جغرافية متراصة لا تختلف اختلافاً حاداً عن بقية أراضي العالم

عيّنة تمثّل تنوّع الهندسة المعماريّة في الهند بين عامي 300 ق.م. - 1700م.

1 - سانتشي استوبا. 2 - معبد بودغايا بعد ترميمه. 3 - فشنوشرين، بروار ساغار 4 - المعبد الكبير، تانجور. 5 - منارة قطب، دلهي 6 - ضريح غياث الدين توغلوك. 7 - معبد جين، پاليتانا. 8 - برج النصر، شيتور. 9 - ضريح همايون، دلهي. 10 - بولند دروزة (الباب العالي). 11 - قصر تاج محل، أغرا. 12 - ضريح محمد عادل شاه، بيجاپور.



فحسب، ولكن الطبيعة حبتها بجميع الموارد التي يحتاج إليها الانسان لتأمين حياة إبداعية غنية. ولما كانت الهند تقع في زاوية من زوايا القارة الآسيوية فإنها لم تشعر بصورة ملحوظة بتأثيرات حركات تنقل السكان الواسعة عبر القارة الأوروبية الآسيوية. وإلى جانب كونها صعبة المنال والوصول من الخارج، فإن الهند تنعم بمساحات واسعة من الأراضي الصالحة للسكنى والتطوّر الثقافي. وبفضل هذين العاملين غدت الهند أكثر مناعة من غيرها من البلدان من أصحاب الحضارات القديمة ضد أي عدوان أو تدخّل خارجي. ومع أن الهند تعرضت إلى غزوات متعددة، لكن هذه لا تذكر إذا ما قيست بالتقلّبات التي تعرضت لها بلدان أخرى كإيران وبلاد ما بين النهرين وسوريا ومصر، فقد نعمت الهند بالسكينة والطمأنينة ونمت حضارتها غير عابئة بأي تدخل أجنبي.

وقد نبيح لأنفسنا أن نذهب إلى حد القول بأن طبيعة الهند الجغرافية هي التي أملت عليها وحدتها التاريخية. فميزاتها الطبيعية جعلتها متباينة كل التباين عن بقية البلاد الآسيوية بحيث باءت بالفشل جميع المحاولات التي بذلت لتقسيمها أو للتوسع إلى ما وراء حدودها. إن القبائل الآرية التي وفدت إلى الهند من الخارج سرعان ما فقدت صلاتها وعلاقتها بالآريين المقيمين ما وراء حدودها، ويلاحظ أن الآريين فشلوا في محاولاتهم للإبقاء على أفغانستان ضمن الحدود الهندية. وعلى الرغم من بقاء أسماء مثل «قندهار»، فإن أفغانستان سرعان ما انسلخت من دائرة الحياة الهندية. وكذلك فإن محاولات اليونانيين ضم إقليم البنجاب إلى أفغانستان، فشلت بالطريقة نفسها التي فشلت فيها محاولات الموريين للاحتفاظ بقندهار. وعلى هذا النحو فإن المساعي التي بذلها محمود الغزنوي لإدارة الهند وحكمها من كابل آلت إلى نفس المصير، كما أن الأباطرة الباتانيين فقدوا سيطرتهم على الأراضي الواقعة ما وراء حدود الهند. وتكررت الرواية في

العهد المغولي. ولطالما ضمت مقاطعة السند إلى فارس، إلا أن عملية الضم هذه لم يكتب لها البقاء.

إن هذه الميزات التي تجعل من الهند بلداً مختلفاً اختلافاً كلياً عن بقية العالم الخارجي، يقابلها حركة داخلية ملحة لتحقيق وحدتها. ويلاحظ أن الهند منذ أقدم العصور شاهدت قيام ممالك وإمارات سعت إلى فرض حكم موحد مشترك على جميع أنحاء البلاد. وقد روت لنا الأساطير الهندية التي وردت في المهابهاراتا والرامايانا قصة هذه الوحدة. ولعل «تشاندرا جوبتا» هو أول شخصية في تاريخ البلاد، تتوفر عنها وثائق تاريخية، سعت لإخضاع البلاد بأسرها لحكم موحّد. ولقد سار أشوكا على نفس السنّة، والواقع أنه هو الوحيد في العهد الذي سبق قيام الاتحاد الهندي الحديث الذي وفق إلى إخضاع مزيد من الأقاليم الهندية تحت لواء حكومة واحدة. ونهج الملوك المتعاقبون على نفس النهج، وتكررت العملية خلال حكم الأباطرة الباتان والمغول. وقد هدف نظام الحكم الهندي منذ فترة ما قبل التاريخ حتى العصر الحديث إلى هدفين: الأول جعل الهند متباينة مختلفة عن بقية العالم الخارجي، والثاني إقامة حكومة موحّدة في الداخل. وهكذا فإن مجرى تاريخ البلاد الهندية المدوّن يشهد على قيام حركة التوحيد التي أملتها على الهند طبيعتها الجغرافية.

وكذلك كان لوحدة البلاد الجغرافية أثرها على الحياة الاقتصادية، وبمعنى آخر فقد أدت وحدتها الجغرافية إلى قيام نظام اقتصادي موحّد. وكان لحجم البلاد وخصب تربتها فضل كبير في تحقيق هذه الوحدة، ذلك أن حجم البلاد وجودة أراضيها ساعدت على تزايد السكان وتوسيع الأعمال الزراعية بصورة تدريجية، ولو أن الهند كانت أصغر حجماً لعمد القادمون إليها إلى طرد الآخرين ممن استوطنوها من قبل أو إبادتهم، وتعزيز الزراعة وجعلها أكثر إنتاجاً، وكذلك لو قدر لأراضيها أن تكون

متباينة مختلفة النوع، لاختلف النمو والتطوّر في مختلف المناطق ولم يكن من مناص في كلتا الحالتين من إجراء تجارب مستمرة في وسائل الانتاج وقيام أنواع جديدة من المجتمعات الاقتصادية. ومما لاشك فيه أن لأشكال الإنتاج وعلاقة الطبقات المختلفة بقوى الإنتاج أثرهما العميق على نوع المجتمع وطبيعته. إن احتفاظ الهند خلال الأربعة أو الخمسة آلاف عام بنظام اقتصادي زراعي يفسر لنا ما تمتاز به ثقافتها وتقاليدها من عمق وصلابة. وقد ساعد عامل طول الزمن في خلق عقلية مشتركة، وتعزز ذلك الاتجاه بفضل وحدة المنظمات الاقتصادية في طول البلاد وعرضها.

من المألوف أن يتمتّع الأشخاص الذين يزاولون نفس المهنة عادة بعقلية متماثلة. وبما أن المجتمع الهندي زراعي في أسسه، فقد أدى ذلك إلى خلق ميزات مشتركة ووجهة نظر واحدة إلى الحياة. وغير خاف أن المجتمعات الزراعية في العالم أجمع منساقة بطبيعتها إلى النظم العشائرية المحدودة. ومحور الحياة فيها يقوم عادة على المجتمع القروي، كما أن التعاون الاجتماعي مقصور على أعضاء الجماعة القروية. ومثل هذه الظروف لا تعترض سبيل نمو الشعور الفردي فحسب بل تحول دون قيام وعي اجتماعي يتعدى العصبية العائلية أو العشائرية، ويلاحظ أن العصبية العائلية أو القبلية في الهند كانت متوفرة، ولكن قلما وجد دليل على ولاء قومي أو وطني مماثل. وواقع الحال أن تركز الحياة الاقتصادية في المجتمع القروي واقتصارها عليه قد حال دون نمو الوعي القومي.

من ناحية أخرى، أثّر اتجاه الاقتصاد الهندي نحو الزراعة بصورة رئيسية على الطابع القومي بطريقة أخرى. ذلك أن الفلاحين، وخصوصاً قبل أن يتمكنوا من التغلب جزئياً على قوى الطبيعة، كانوا يعتمدون في ثروتهم على عوامل لا يد لهم في تكييفها. فلم يكن باستطاعتهم أن يدرؤوا عن أنفسهم أخطار القحط أو الأمطار الغزيرة بالرغم من أن هذه الظواهر

هي من العوامل الفاصلة في حياتهم الاقتصادية. ومما يدعو إلى الدهشة أن طبقة الفلاحين في العالم أجمع تقف موقف المستكين المستسلم الصابر لحكم القضاء، خلافاً لما هو عليه الحال في الميادين التجارية والصناعية التي تتطلّب مزيداً من الجهود من الفرد وتنمي فيه روح الاعتماد على النفس والاعتداد بها والمغامرة. ومن عادة المجتمع الإقتصادي القائم على أسس تجارية وصناعية أن ينمي في نفوس أفراده قدراً أكبر من المرونة والحيوية والمبادرة الفردية.

لذا فإن التقلبات السياسية في الهند قد تكيّفت إلى حد بعيد مع انعدام التوازن بين جغرافية البلاد واستعداداتها العلمية وعدم صلاحية هذه الاستعدادات لمجابهة المقتضيات الجغرافية. ففي حين أن جغرافية البلاد كانت تستدعي توحيد البلاد تحت لواء دولة واحدة، إلا أن المراحل التي قطعتها حتى ذلك الوقت في التغلب على القوى الطبيعية جعلت تحقيق هذا الهدف والمحافظة عليه من الأمور المستعصية. وعلى ذلك فإنه وإن تسنى للهند حتى ذلك التاريخ أن تحقق وحدة ثقافية، إلا أنها لم توفّق إلى إقامة وحدة إدارية. على أن الأحوال قد تبدلت فيما بعد، ذلك أن التقدم العلمي وما أسفر عنه من تقريب المسافات والزمن قد هيّأ الظروف للوحدة السياسية. إن قيام دولة موحّدة في الهند تعززها ثقافة الوحدة وتدعمها موارد طبيعية جبارة لجديرة بأن تحمل الهند على تزعّم العالم في كثير من مجالات النشاط البشرى.

لكن عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم. فقد أفادت الهند من التقلّبات السياسية التي شهدتها، وكان لها فيها بعض العزاء. فالمعروف أن التسامح قد عزّز تطوّر عناصر متنوعة في آن واحد. وكما سبق لنا أن بينا، أن طابع التعدد والتنوّع هو من أهم ميزات الثقافة الهندية. وكذلك فإن التقلبات السياسية قد ساعدت بدورها في تعدد نواحي الحياة وتباينها. فالموجات

المختلفة من الأجناس والقبائل التي تدفّقت على الهند منذ القدم أدت بدورها إلى تغييرات مستمرة في تكوين السلطة السياسية وتوزيعها. ومن النتائج الفورية الأخرى لهذه الموجات البشرية المتنوعة التي تسللت إلى الهند، انقسام البلاد إلى عدة دويلات. وقد أدى وجود العديد من الممالك واستمرار التغيّر في قوّتها إلى جعل الشعب أكثر تسامحاً وأقل بغياً. وفي هذا ما يفسر لنا تسامح الشعب وتساهله في قبول الأجانب والدخلاء.

ورغماً عما شهدته الهند من غزوات وما تعاقب عليها من أسر مالكة، فإن حياة الشعب سارت في اتجاه دائم من التقلبات التدريجية. فالآريون مثلاً لم يقوموا بالقضاء على الحضارة التي ازدهرت في موهنجودارو بل اقتبسوا منها وبنوا حضاراتهم عليها. ويتجلّى عامل الاستمرار إلى درجة حملت بعض المؤرخين على أن يشك بأن حضارة موهنجودارو تمثل ثقافة مستقلة قامت قبل قدوم الآريين. ويرى هذا الفريق أن الهند هي موطن الآريين وأن ثقافة موهنجودارو تعتبر مرحلة متقدمة في مراحل الثقافة الآرية. ليس علينا ولوج مسألة الانتماء العرقي، بيد أن ما لا يمكن إنكاره هو أن آثار موهنجودارو عُثر عليها، واكتشفت في مراحل مختلفة من الحياة والثقافة الهندية. وقد أشارت بعض الطقوس الهندوسية الحديثة الخاصة بسيفا وساكتي، إلى التقاليد التي كانت سائدة في عهد موهنجودارو. كما عثر هناك على نحوت على الأحجار للتماثيل الأصلية لبوذا وهو جالس.

وقد أدت المشاحنات السياسية إلى انسجام بين القبائل المختلفة والثقافات في مراحلها المتباينة، ويستدل من ذلك على أن قدماء الهنود اضطروا إلى الإقرار بأن معرفة الإنسان وإدراكه للحقيقة ليست جامدة، بل دائمة الحركة والتطوّر. والهند كما هو معروف، تضم مجموعة مدهشة من الديانات والمعتقدات التي تعكس وتصوّر تقريباً كل مرحلة من مراحل التطور الروحي، وهي تتراوح بين عبادة الأوثان والتمائم التي كانت سائدة

بين مجموع الشعب، ومذهب التوحيد الخالص الخشن الذي كان مذهب أصحاب فيدا. وإدخال معتقدات قبلية مختلفة في جميع مراحل التطور على الأفكار الدينية الهندوسية هو العامل الوحيد الذي يفسر تعدد الديانات الهندية على هذا الشكل الغريب.

ومع أن طبيعة البلاد الجغرافية اقتضت عملية توحيد سياسية، بيد أن المرحلة المحدودة التي قطعتها البلاد حينذاك في الميادين العلمية لم تساعد في تحقيق هذا الهدف. ولهذا نجدنا وجهاً لوجه أمام المحاولات المستمرة التي قامت في البلاد لإقامة إمبراطورية موحدة. ولعل الظروف المادية تفسر لنا لماذا لم تعمّر هذه الإمبراطوريات القديمة طويلاً. واليوم لا تذكر هذه الإمبراطوريات ومحاولات التوسع والاستعمار إلا لماماً. ومع أنه لا تتوفر لدينا بصددها سجلات تاريخية، إلا أن ما تردده الأساطير والتقاليد بصددها قد لبثت في ذاكرة الشعب، وحتى يومنا هذا ما زالت حافزاً للتدعيم والتوطيد. وقد بلغ شعور الوحدة والتوحيد حداً لم يتسن للأجانب فيما عدا نفر ضئيل منهم الصمود أمام تياراته. لا يذكر إلا القلة أن الراجبوت كانوا في الواقع دخلاء، ظهروا على مسرح الهند في وقت متأخر، وما لبث أن أصبحت هذه الحقيقة طي النسيان. لم يستوعب المجتمع الهندوسي الراجبوت فحسب ولكنهم كثيراً ما يُعتبرون حماة الثقافة الهندية وحاملي لوائها. وسنأتي على شرح مفصل حول دخول الإسلام القارة الهندية في مرحلة متأخرة من هذا الكتاب. على أن المسلمين ما لبثوا أن استوعبتهم التربة الهندية. الأوروبيون هم الذين انفردوا من بين الأجانب في مقاومة عملية الهضم الهندية، واحتفظوا بهويتهم سليمة منيعة. ولهذا لم تقبلهم الأرض أو الشعب، وبقوا كالطيور العابرة رغم العديد من نقاط الاتصال.

3 - التفاعل الاجتماعي والسياسي

لقد سبق وأن وقفنا على حقيقة الإخفاق الذي لازم رغبة الهند القديمة في الاتحاد وسعيها إلى إقامة وحدة سياسية تقوم على أسس ثابتة دائمة. كما لمسنا أن الرغبة في الاتحاد برزت في صورة وحدة الحضارة والثقافة. وتتجلى لنا الوحدة الثقافية التي عرفتها الهند في المؤسسات السياسية التي قامت في ذلك الحين، واستمرت حتى يومنا هذا. وثمة حقيقة تسترعي الانتباه، هي أنه رغم تعاقب الملوك والممالك المختلفة، فإن الحياة الاجتماعية المنظمة قلما طرأ عليها تحوّل أو تبدّل يذكر خلال الألفين أو الثلاثة آلاف عام الأخيرة. والواقع أن الجمهوريات أو المجالس القروية التي عرفتها الهند منذ القدم ما زالت قائمة حتى يومنا هذا.

أما المجتمعات التي أتت على ذكرها النصوص «الفيدية» و«الأوبانيشاد» Upanishad، فقد امتازت بطابعها الديمقراطي. فدرج الشعب على التعبير عن إرادته بواسطة الجمعيات المنتخبة والمنظمات الديمقراطية، كما وردت إشارات عن ملوك ارتقوا عروشهم عن طريق الانتخابات وعن سلطات كانت تمارس بين حق عزل الملوك أو إعادة الملوك المعزولين. على أن الجمعيات المنتخبة ما لبثت أن فقدت أكثر نفوذها بقيام الإمبراطوريات، وتوطد أركانها. وفي استمرار المجالس القروية وما كانت تمارسه من سلطات واسعة ولو ملتبسة ما يثبت أن التقاليد الديمقراطية في الهند لم تمح بأجمعها.

كان النظام المتبع عند قدماء الهنود أن تتمتع كل قرية بمجلس قروى منتخب، ودرجت هذه المجالس على منح أفراد الشعب حرية التعبير والمناقشة الظاهرة، وكانت لا تبت في الشؤون السياسية فحسب، بل وفي الشؤون الاجتماعية والدينية. والمعروف عن الأديرة البوذية أنها كانت تقوم على أسس ديموقراطية أيضاً، وهناك من القرائن ما يثبت أن قيام إمبراطورية موريا

لم يؤد إلى تقويض دعائم هذه الجمهوريات. ومن الممكن أن الإمبراطورية التي شادها أشوكا كانت اتحاداً متفككاً أكثر منها إمبراطورية بالمعنى المفهوم. ولعل هذا يفسر لنا مدى اتساعها. على أن لدينا من الأسباب ما يحملنا على الاعتقاد بأن الإمبراطورية في عهد «بندوسارا» Bindusara لم تتعد حدود ما يعرف اليوم بولاية «حيدرآباد». وكانت «كالينجا» Kalinga أو «أوريسا» من بين البلدان التي تغلب عليها أشوكا بالقوة. ومهما يكن الأمر فإن إمبراطورية أشوكا امتدت وتوسّعت بحيث شملت الهند بأسرها على وجه التقريب. أما أسباب توسع هذه الإمبراطورية فقد تعود إلى اندماج الجمهوريات الصغيرة الواقعة جنوبي حيدرآباد بهذا الاتحاد الإمبراطوري المتفكك بمحض إرادتها واختيارها.

وتؤلف هذه المجالس والجمهوريات القروية الوحدة الطبيعية للنظام الإقتصادي القائم على أسس زراعية. ولعل في استمرار الهند كبلد زراعى في الصميم، حتى يومنا هذا، ما يفسر لنا النجاح الذي صادفته في المحافظة على تقاليد الحكم الذاتي في الريف وصيانته رغم تعاقب الأسر المالكة المختلفة. إن في وسع المجتمعات المؤسسة على الزراعة أن تكون قائمة بذاتها وربما تمثّل الحالات الوحيدة للاكتفاء الذاتي في الواقع. لذا فقد كانت المجتمعات القروية في الهند تنعم باستقلال وتمكّنت إلى حد بعيد من الاحتفاظ بكيانها المستقل حتى يومنا هذا. ويعتبر الحكم الذاتي القروى في الهند من عوامل الاستمرار والاستقرار في حياة البلاد الاجتماعية.

وعلى الرغم من أن الاقتصاد الهندي بقي زراعياً في الصميم، إلا أنه لم يستمر على هذا النحو لمدة طويلة. فسرعان ما أخذت التجارة تنمو وتزدهر، الأمر الذي أدى إلى توزيع العمل وتقسيمه، وقد تصلّب هذا التقسيم في النهاية وتمخض عن قيام نظام الطبقات. وأدى نمو التجارة وازدهارها إلى توسيع نطاق وحدة الحياة الاقتصادية، وشكّل اندماج الجمهوريات

في الممالك والإمبراطوريات التعبير السياسي الوحيد عن هذا التحوّل. ولما اتسع نطاق الوحدة السياسية غدت مهام الحكم وواجباتها أشد تعقيداً، الأمر الذي أدى إلى مزيد من المركزية حرصاً على الانسجام وسعياً وراء إقامة جهاز إداري أصلح وأنسب. وكذلك ازداد الميل للتمييز بين الحكومة المحلية والمركزية، وفقدت الهيئات القروية كثيراً من سلطاتها وواجباتها الإدارية. ورغم كل ذلك بقيت الزراعة الصناعة الرئيسية في البلاد، كما أن تقاليد الحكم الذاتي في القرى بقيت قائمة حتى يومنا هذا. فالمجالس القروية الحالية لا تمارس صلاحيات تنفيذية وقضائية فحسب بل تشريعية أيضاً. وهي تمارس هذه الصلاحيات بإذن الحكومة أو من دونه. والواقع أن هذه المجالس لها نفوذ على الحياة الاجتماعية والدينية للمجتمع القروي لا يمكن للحكومة أن تحاكيه بنفسها. ولا ينطبق ذلك على المناطق الجنوبية من الهند حيث شكّل الهندوس الأغلبية فحسب، بل ينطبق أيضاً على المناطق الشمالية والأخرى منها حيث الأغلبية هي من المسلمين.

كان لاستمرار المجتمع القروي سياسياً واقتصادياً أثر على العادات الاجتماعية أيضاً، وإن لم يكن مرغوباً فيه. والملاحظ أن عدم مرونة الأساليب الاقتصادية وجمودها حالت دون نمو الثروة، كما بعثت روح الجمود في الطبائع التي من شأنها أن تعترض الإصلاح والتجديد. وليس بمستغرب أن تتميّز المجتمعات القروية في العالم أجمع بنظرة محافظة وضيّقة الأفق. أما التجارة فليس من طبيعتها أن تشجع على دوران السلع المادية بسرعة فحسب، بل من شأنها أيضاً أن تساعد في انتشار الأفكار وترويجها، وبالتالي في خلق اتجاه واستعداد لتقبل التغيير والإقبال على كل حديث جديد. وفي الهند اجتمع الاقتصاد الزراعي والهيئات القروية معاً لجعل القروي محافظاً وغير متفاعل. كما أنهما أسهما في تصدع الوحدة القومية وحدّا من إمكانيات القيام بأي عمل سياسي متحد. ويلمس الإنسان

هذه التناقض الغريب في الهند. فرغم وعى الشعب وإدراكه بضرورة تحقيق الوحدة الثقافية فإنه يعاني نقصاً في ميوله العزيزية للقيام بعمل سياسي قومي موحد.

ولعل أجدر وسيلة للوقوف على مواطن الضعف والقوة في الثقافة الهندية من نواحيها الاجتماعية يتأتى عن طريق الإلمام بنظام الطبقات السائد فيها ودراسته. إن الانتقادات التي توجّه عادة إلى هذا النظام جلية واضحة. فمن ناحية حطّم هذا النظام وحدة الحياة الهندية، كما حال بين الديمقراطية ونموها. وبعث في الطبقات العليا روح الكبرياء والغطرسة، كما أشاع روح الاستكانة والشعور بالنقص بين الطبقات السفلى. أما تأثيراته على مجموعة الشعب فتتجلى في منع تطور إنسانية مشتركة. ورغم هذه الانتقادات وانتقادات أخرى وجيهة لهذا النظام، لا مناص من أن نسلّم بأن هذه المؤسسة تدين بأصولها إلى روح التسامح والاستمرار.

قد يتراءى للقارئ لأول وهلة أن هناك تناقضاً بين التسامح ونظام الطبقات، ولكن هذا التناقض سرعان ما يتلاشى إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أن الهند كانت مسرحاً للفاتحين والغزاة الذين تعاقبوا عليها. ففي مثل هذه الأحوال من اختلاف الدم وتعدد الألوان واللغات والعادات والمعتقدات، فإن مهمة تحقيق كيان اجتماعي سياسي موحّد تبدو شبه مستحيلة. وقد واجه المستعمرون الأوروبيون خلال القرنين الثامن والتاسع عشر نفس المشاكل في أمريكا وأستراليا وأفريقيا، فكانت الاختلافات بين الأوروويبين والسكان الأصليين كبيرة جداً، على أنها لم تكن أوسع من الاختلافات التي واجهها الآريون عند غزوهم الهند. بل إن مشكلة التكيّف كانت أشد وأكثر تعقيداً في الهند. واجه الأوروبيون في البلاد التي استعمروها قبائل محلية متجانسة إلى درجة لا بأس بها، كما أن هذه القبائل كانت تمثل مراحل متجانسة من النمو والتطور. أما في الهند فلم تكن العناصر أو القبائل التي وجدت

متعددة فحسب، بل كانت تمثل أوسع مجموعة ممكنة من ثقافات وحضارات مختلفة. بعبارة أخرى، ففي حين أن المشكلة التي جابهها المستعمرون الأوروبيون هي مشكلة التوحيد بين عنصرين مختلفين، فإن المشكلة التي جابهها الآريون كانت الجمع بين أجناس وعناصر متعدّدة متباينة والعمل في التالي على صهرها في وحدة عملية.

عالج الأوروبيون مشكلة تنوّع السكان في البلاد التي استعمروها وتغلبوا عليها، إما بإبادة سكان البلاد الأصليين كما وقع في أمريكا وأستراليا، وإما بتحويلهم إلى عبيد أرقاء كما وقع في أفريقيا. أما الآريون فقد حلوا هذه المشكلة بواسطة نظام الطبقات. وقد لا يقوى هذا النظام على الصمود إذا ما قيس بمعايير العدالة المجردة لما يقتضية من نبذ الملايين من الأنفس البشرية والحكم عليها بأن تحيى حياة منحطة، لا لسبب آخر إلا لمولدها أو نسبها. على أننا إذا حكمنا على هذا النظام على ضوء الاعتبارات التاريخية، وقفنا على بعض محاسنه، ومنها أنه مكّن الطبقات الضعيفة من البقاء. وعلى ذلك نبيح لأنفسنا أن نقول دفاعاً عنه ولو جزئياً أنه سعى إلى تنسيق ودمج عناصر وأجناس مختلفة في وحدة اجتماعية كاملة، وأفسح مجالاً لحضارات في مختلف المراحل والأدوار أن تعيش في ظل وحدة ثقافية واحدة.

إن نظام الطبقات من حيث منشئه وأهدافه، إن لم يكن من حيث الواقع العملي، لا يخرج عن كونه أداة لتمكين مجموعات من العناصر والأجناس المتعددة ومساعدتها في أن تتعايش معاً في جو من الانسجام والتجانس. أما سر نجاح هذا النظام فيعود إلى ما يلازمه من المرونة التي مكّنت الأفراد من تكييف أنفسهم معه. والطريف في الأمر أن نظام الطبقات في الأصل كان يقوم على أساس المهنة والعمل لا على أساس الوراثة. وكان في وسع الأفراد والأسر أن تنتقل من طبقة إلى أخرى. ومما يقيم البرهان

على مرونة هذا النظام أنه سمح بإقامة وتنصيب آلهة «الدرافيدين» Dravidians في هياكل آلهة الآريين، كما أقر انتساب قساوسة الدرافيديين إلى طبقة البراهمة. وقد بعثت إمكانية انتقال الأفراد من طبقة إلى أخرى روح التضامن وخففت حدة العداء القائم بين الآريين والدرافيديين. كما ساعدت في إزالة الخلافات الاقتصادية التي تعتبر مصدراً لجميع الشرور التي تعانيها أوروبا الحديثة. ولعل الطابع الزراعي لاقتصاديات الهند هو من بين الأسباب التي حالت دون قيام مثل هذه الخلافات الطبقية في الهند القديمة. أما السبب الآخر لهذه الظاهرة فهو إخفاق الهنود في التغلب على قوى الطبيعة، ولكن السبب الأساسي لكل ذلك يعود إلى مرونة نظام الطبقات. ولما كان من المألوف أن يصبر الناس على ما يحل بهم من بلاء أو مكروه أملاً في سعادة مقبلة، فإن عندما فقد نظام الطبقات كان بمثابة هذا الأمل في الدنيا والآخرة، لكن نظام الطبقات مرونته فقد معها ما يبرر قيامه ووجوده.

تعكس لنا لغات الهند المتعددة وحدة ثقافتها واستمرارها. وهناك ميل للمغالاة في تصوير خلافات الهند اللغوية. أما هذه المبالغة فترجع إلى اعتبارات سياسية معروفة. ولكن مهما يكن الأمر فليس من الممكن تجاهل وحدة الطبع والمزاج والتطلع إلى الحياة القائمة بين ناطقي مختلف اللغات. وليس في وسع أحد أن ينكر أنها مستمدة من مصادر مختلفة، عشائرية أو درافيدية أو آرية. وعلى نحو التدامج الذي تم بين الطبقات، فإن التدامج اللغوي قد حافظ على كثير من اللغات، ومكّن كلاً منها من أن تتمتع بحرية النمو والتطور في نطاق وجهة نظر مشتركة. والسنسكريتية كما يؤخذ من مدلولاتها الإسمية لغة اشتقت من لغات سابقة. ولكن ما لا مراء فيه أنها أثرت تأثيراً محسوساً على جميع اللغات الهندية بما زودتها به من مفردات وتركيبات.

ولقد بلغ تأثير السنسكريتية في اللغات الهندية الأخرى مدى حمل

المؤرخين في بعض الأحيان على الاعتقاد بأن لغات الهند المتعددة هي عبارة عن تغييرات مختلفة للأصل السنسكريتي العام. ويلاحظ أن اللغة التاملية نفسها التي ازدهرت آدابها قبل ظهور الآريين على مسرح الهند لم تخل من تأثيرات سنسكريتية. كما أن التأثيرات السنسكريتية لم تضعف أو تضمحل على مرور الزمن. ومع أن اللغات التي ظهرت وقامت بفضل قدوم المغيرين والفاتحين أخذت تتحدى زعامة السنسكريتية، فإن الأخيرة صمدت بل غدت أشد رسوخاً وأعمق غوراً. لذا فإننا نجد أن جميع اللغات الهندية لها قاعدة مشتركة واسعة، من المفردات، كما أنها تتشابه كثيراً في التراكيب النحوية. ولعل الأهم من هذا كله ما يجمع بينها من وحدة الطبع والمزاج التي تتجلى فيها جميعاً. الأشعار التاملية القديمة مليئة بحقد الدرافيدين على المغيرين الآريين، وكذلك يظهر الخوف والحقد في كتب الآريين على الدرافيديين وغيرهم ممن سبقو الآريين. على أن مزاج الحقد والخصومة لم يستمر طويلاً. فقد حل محله روح التسامح التي جمعت بين الأجناس والعناصر المختلفة وصهرتها في نظام اجتماعي، وهي الروح التي طغت على آداب الهند وخفضت من غلواء الحقد والعداء بين قبائلها وأجناسها المختلفة.

4 - الراوي القصاص



بعض الرحّالة أو الحجاج يستمعون للرّاوي القصّاص.

يعتبر الفتح الآري للمناطق الشمالية الشرقية والجنوبية من الهند فتحاً ثقافياً لا فتحاً مادياً. فسرعان ما تمت عملية الاندماج بين الأجناس والعناصر حتى لم يتذكر الدرافيديون أنهم كانوا أصحاب حضارة أقدم من حضارة الفاتحين الجدد. وما لبث كذلك أن تحولت الكراهية التي كان يكنها الآريون للثقافة الدرافيدية وامتهانهم لها إلى شعور بالتسليم والاستيعاب. وقد وجد الفريقان المتخاصمان في الثقافة الجديدة المشتركة نقطة للتلاقي كما رأوا فيها رمزاً للوحدة. ولا شك أننا نجد في ملحمتي رامايانا ومهابهارتا إشارات إلى قيام صراع قديم بين الدرافيديين والآريين، ولكن قيام مثل هذا الصراع لم يمنع الجانبين من الاعتراف والتسليم بأن لكل

من الحضارتين من المحاسن ما يعود بالنفع والفائدة على الفريق الآخر. ولعل ملحمة مهابهارتا ساعدت أكثر من ملحمة رامايانا في تحقيق عمليات التدامج التي استمرت في أساطير البوذيين الشعبية وغيرها من حركات الاصلاح.

والواقع أن الشعراء الجوّالين ممن ينتمون إلى مذاهب وعقائد مختلفة كانوا مصدراً هاماً في بعث نظرة موحدة إلى الحياة، ووحدة في الطباع ما زالت حتى الآن من العوامل المميزة للعقلية الريفية في سائر أنحاء البلاد، رغم ما يقوم بين القرويين من اختلافات محلية. وطالما كانت نظرة القرويين الهنود الفلسفية للحياة ومقدرتهم على التحمّل والصبر موضع دهشة الناس، حيث يتعذر أحياناً تمييزها عن صفات الاستكانة والخضوع التي تميزهم. والمعروف أن النقص في الحيوية يدفع أصحابه إلى الاتكالية والتسليم بالقضاء والقدر، على أن هناك حداً لمقدرة الإنسان على خداع نفسه وتعزيتها بالقيم الفلسفية. وغير خاف أن مقتضيات العيش في الهند بلغت من الضآلة والقلة حداً جعل من السهل إشباعها وإرضاؤها، لكن حتى في الأيام التي لم يشكُ فيها الفلاح الهندي من قلة الطعام أو ندرته، فإنه كان قانعاً دائماً بالتأمل والتفكّر في أسرار الحياة. وقد يكون للمناخ دخل في ذلك حتى ولو تغاضينا عن هذه العوامل، فالذي لا مراء فيه هو أن القروي الهندي تتوفر عنده نظرة فلسفية إلى الحياة. وفي مقدوره أن يتحدث عن القدر والظروف بإخلاص ونفاذ بصيرة يثير دهشة الأجنبي الذي لم يألف مثل هذه الأمور. ولعل في الاستسلام والتسامح اللذين يتصف بهما تكوينه العقلي ما يثير دهشة أكبر، نظراً لنقص التعليم في الهند حتى يومنا هذا. فنتساءل من أين وكيف أوتي الفلاح الهندي هذا العقل المثقف وهو محروم من ثقافة القراءة والكتابة؟

يُحل هذا التناقض الظاهري إذا استعدنا إلى الأذهان الدور الذي لعبه القصاص القروي والمعلم المتجوّل والمتسوّل الذين كانوا يجوبون المناطق

الريفية. كانت مهمتهم أن ينقلوا التعاليم الدينية والأخلاقية بحيث تصبح في متناول القروي العادي. والواقع أن هذه القصص والروايات قد عوّضت الشعب عن كثير مما فاتهم من التعليم. فقد تحولت الفلسفة إلى أسطورة، وتجسّدت المعتقدات الدينية في أعمال الإنسان. أما التعاليم الأخلاقية فتدفقت إلى القرويين بسهولة بواسطة القصص المنقولة، وأما العفة والطهارة فبضرب الأمثال التي اتسعت وازدادت بفضل ما أدخل عليها من حكمة الأجيال المتعاقبة. وتثقفت الحياة في القرية بفضل ما تلقنه القرويون من هذه الحكم والمواعظ.

أصبح فن الرواية في الهند الآن نسياً منسياً. فلم نعد نلقى في هذه الأيام شعراء متجولين يروون قصص البطولة والغرام القديمة في أثناء تنقلهم من مكان إلى آخر. وكذلك لم يبق أثر للقصاص القروي فخلّف مكانه فارغاً يصعب ملؤه. وكان هؤلاء الرواة والشعراء يؤدون وظيفة هامة في الاقتصاد الاجتماعي للقرية. فكانوا في الواقع رعاة التقاليد والمعتقدات المحلية وحماتها. وأبقوا ذكرى أعمال البطولة والتضحية متوقّدة في الأذهان. وهم الذين كانوا رواة للأحداث والوقائع الهامة كما صاغوا الأنباء الجارية بقالب الأساطير الخالدة.

ولم يكن راوي القصص مجرد مؤرّخ وشاعر فحسب، بل كان بنفسه السلف الوحيد للمسرح الهندي. لم يعرف في ذلك الحين المسرح والسينما الحديثين. وليس من المغالاة أن نقول إنهما لا يزالان يعتبران من أمور الرفاهية التي لا تدخل في أحلام الأغلبية من القرويين. توجد في أكثر المدن الصغيرة في الهند دار للسينما ولو رديئة. ويحتشد القرويون، رغماً عن الكساد في السوق والانحطاط في الأسعار، لمشاهدة هذا الكمال المدهش من الرفاهية والسخافة على الشاسة الفضية. إن السينما الحديثة تثير حتى العواطف الدينية وتشبعها، لكن الأمر كان مختلفاً في الماضي. فقبل عهد المسرح المؤقت البدائي، كان راوي القصص هو الوحيد الذي يبعث العزاء

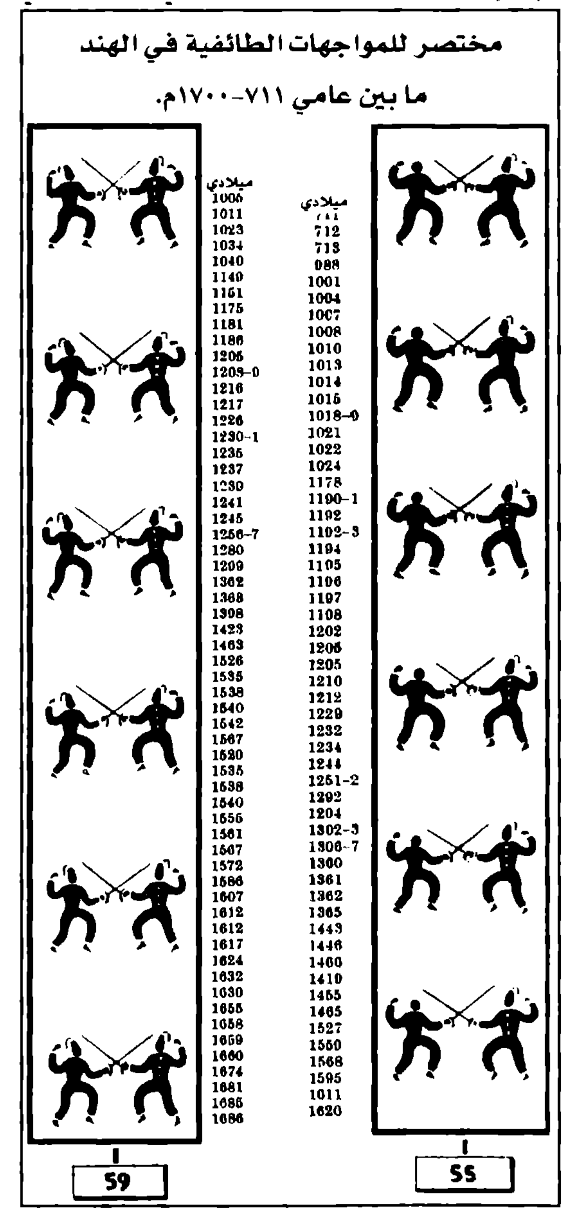
والسلوى في قلوب القرويين. فكان فنّه يخيل إليهم تمثيلاً الوقائع التاريخية التي لم يروها. وكانت عباراته وألفاظه البليغة ترسم لهم صوراً مختلفة من البطولة والتضحية، وتعيد إلى ذاكرتهم ألواناً من الصراع الذي ينتهي عادة بانتصار الفضيلة على الرذيلة، والحق على الباطل.

ورغماً عن كل ما أسلفنا عن راوي القصص نشعر أننا لم نبرز الدور الهام الذي كان يلعبه. ومن الخطأ أن نصوّره كرجل عادي، لأنه كان بمثابة مؤسسة، تفقد من دونه الحياة القروية طرافتها ومعناها. أما من حيث النشاط فقد كان راوي القصص مجموعة أشياء في شخص واحد، كما كان المحور الذي ترتكز عليه الحياة الاجتماعية في القرية والمصدر الذي يجعلها تضجّ بالحياة. وكان القرويون يلتفون حوله لسماع ما يقصه عليهم من روايات. وعندما يجتمعون تدور أحاديثهم بطبيعة الحال حول المشاكل التي تهمهم. لذا فإن أمسيات راوي القصص كانت بمثابة وكالة اجتماعية لجمع المعلومات وتوزيعها، لا يقتصر غرضها على تبادل الأفكار وبحث المشاكل فحسب وإنما على إقامة العدالة ومعاقبة الجانحين في المجتمع أيضاً. لم يكن القرويون في ذلك الحين يعرفون شيئاً عن النوادي ولم يسمعوا بها، لكنهم لم يشعروا بعدم وجودها إذ تيسر لهم أن يجتمعوا في أواخر النهار ويستمعوا لروايات القصاص.

وكان من النادر للقصاص أن ينحرف عن مستوى معيشة القرية إذا انحرف بتاتاً، وكان لا مندوحة له في خلواته وتأملاته أن يتذكر مستمعيه، لأن نجاحه ورزقه مرهونان بتقديرهم وتفهمهم له. وما كان يرويه عليهم من قصص البطولة والتضحية كان يبعث الفرح والسرور في قلوب القرويين، ولكنها لم تكن تتجاوز عالمهم اليوم بالمألوف. وكان يتعمّد الغمز واللمز والتلميح البارع إلى الأحداث المحلية فيضفي بذلك على قصصه طابعاً من الواقعية.

وقد نتصور أحياناً بأن الديانة في الهند تقوم على التقشف والكفارة واستغراق الذهن في الأناشيد التي كانت تفنى فيها التجربة اليومية المعتادة.

وقد تكون الديانة في الهند كل هذه الأشياء مجتمعة. ومع ذلك فإنها لا تقتصر عليها، ذلك أننا ميالون إلى إغفال تلك الفضائل البسيطة التي تتجلى لنا في الحياة العادية المنبعثة من العبادات اليومية المعتادة التي لا تقل صلتها بالحياة اليومية عن صلة أعضاء الجسم بوظائفها. وقد تنبه راوي القصص إلى هذه النقطة فلم يقع في الخطأ نفسه. ولذلك جاءت رواياته وقصصه مزيجاً من اختبارات الشعب الدينية وآماله. فكانت قصص البطولة التي يرويها تدور حول شخصيات أسطورية اقتبست من المذاهب المعروفة واستنبطت قصص خدماتهم وتضحياتهم لإبراز حكمة أو تأكيد عظة.



5 - الدين والفلسفة

تروي الأديان الهندية لنا قصة الوحدة والاستمرار نفسها. وقد سبق لنا أن ألمعنا بصورة عابرة إلى أن التنوّع المدهش في الديانات الهندية يعود إلى اندماج عدد من الديانات المختلفة المتباينة في الأفكار الدينية الهندوسية. وقد درج الآريون القدامى على عبادة قوى الطبيعة وصوروها في أساطيرهم وترانيمهم. وما إن استوطنوا البلاد واستقروا بها حتى أخذت الآلهة الفيدية تتوارى وتزول تدريجياً ليحل محلها ثالوث إلهي استثني منه «برهما» وأقصي عنه تدريجياً لتحل محله الإلهة «شكتي» التي تمثل حيوية الأنوثة. ولا تتضمّن المؤلفات الفيدية أي إشارة إلى وجود إلهة مؤنثة تشبه «شكتي». وكذلك كانت إشاراتها إلى «فشنو» و«شيفا» جد نادرة.

أما «شيفا» مع صولجانه المثلث فقد رد عهده إلى هند الموهنجودارو، في حين استغل بعضهم عنصر عضو التناسل في عبادته لإثبات انتسابه إلى أصل غير آري. ويميل المؤرخون إلى الاعتقاد بأن بعض النظريات التي قامت حول شيفا في الفترة التي سبقت قدوم الآريين، قد فرضت على المعتقدات الفيدية وأنها حددت طبيعة الإله «شيفا» وطرق عبادته على نحو الديانة الهندوسية الحديثة. ويذهب بعضهم إلى القول بأن القصة التي وردت حول وليمة «الدكشا» Daksha التي استثني منها «شيفا» تنطوي ضمناً على الاعتراف «بشيفا» اعترافاً متأخراً. وكذلك النظرية التي تصور فشنو على أنه إله ذو بشرة سوداء، فهي بدورها نظرية غير آرية، كما هو واضح. ولعل أفضل تفسير لهذه النظرية هو أنها محاولة من جانب الفاتحين الآريين لكسب عطف الشعوب المغلوبة بتنصيب آلهتهم الرئيسية في الهياكل الهندوسية. وعلى هذا النحو، اعتُبرت «شكتي» إلهة النباتات، وكانت في البداية تعبد في الربيع. ثم أخذت تدريجياً تحتل مكانة الشرف بين الآلهة الهندوسية.

والطريف في الأمر أن الآريين عند قبولهم بآلهة الدرافيديين وإلهاتهم

وآلهة غيرهم ممن سبق الآريين وإلهاتهم، قد بدلوا أشكالهم وطقوس عبادتهم. على أن هذه التغييرات لم تثر أية مقاومة، بل كانت موضع قبول من جميع طبقات الشعب. إن عملية الدمج التي تمت بين آلهة الأجناس والأمم المتنافسة لا تقتصر على الهند وحدها. أما الذي ميز الهند عن غيرها من هذه الناحية فهو نطاق ومدى عملية الدمج هذه. وقد يكون مرد ذلك إلى روح التسامح التي أشعتها طبيعة جغرافية البلاد وتاريخها في نفوس السكان. وقد أدى هذا بدوره إلى التسليم بأن طريق التعبير عن الحقيقة تختلف باختلاف الشعوب ومراحل الحضارة التي قطعتها، وإن كانت الحقيقة واحدة وموحدة عند الجميع. نستنبط من كل ذلك بأن الآريين في غابر عهدهم كانوا يعتقدون بأن أي مذهب من المذاهب ينعم بنصيب من الحق والصواب، نظراً لأنه وليد تبصّر وتأمل قام بهما الإنسان على درجات مختلفة لتلمس نفس الصواب عن الحقيقة عينها.

إن وحدة النظر إلى الأديان والمعتقدات في الهند لمستمدة من عقلية فلسفية تعترف وتسلّم بما تنطوي عليه الطقوس الخارجية والعقائد الكامنة من أهمية، شكلاً وروحاً. ويستفاد من العبادات القديمة التي كان يمارسها الآريون على نحو ما جاء في المؤلفات الفيدية، أنها لم تُعن كثيراً بطبيعة الطقوس أو شكلها. فقد كان الأفراد يشبعون ميولهم الدينية الكامنة باتصالهم روحياً بالقوى الطبيعية بوصفها مظهراً من مظاهر الحقيقة العليا. ويعتقد على العموم أنه رغم عدم وجود نظام الطبقات بين القبائل الآرية عند نزوحها إلى الهند، فإن هؤلاء سرعان ما شكّلوا طبقة من رجال الدين. وعندما فُرغ من تأليف «الرجفيدا» Rigveda وتدوينها، كانت هذه الطبقة من القساوسة قد انفصلت انفصالاً كلياً عن بقية القبيلة. وكنتيجة حتمية لهذا الانفصال نشأت الطقوس ومعها أشكال متقنة من العبادة وتقديم القرابين. وبمرور الأيام تضاعفت النواحي المادية لهذه الطقوس، وتعدّدت كثيراً بحيث مال الناس إلى نسيان أهداف الدين وأغراضه الأصلية.

وإنا نلمس آثار هذا التزايد في التفاصيل في انقسام المجتمع إلى أربع طبقات تبعاً لفيدا. ونتيجة لتقسيم المجتمع على أساس مهني، تدهور الدين ما أدى إلى قيام نظام الطبقات. وأصبحت العبادة مقصورة على طبقة معينة احترفتها، وجعلت منها مورداً لرزقها. وغني عن القول إن حاجة الإنسان إلى الروحانية كحاجته إلى الطعام، لا يمكن إشباعها عن طريق انتداب آخرين يتولون عنه هذه المهمة. ذلك أن من طبيعة الطقوس وأساليب العبادة الجوفاء أن تثير التذمر والاستياء عند ذوي الشعور المرهف. وهذا ما يفسر قيام سلسلة من حركات الإصلاح التي بلغت ذروتها في تعاليم بوذا. وبما أن الاتجاه نحو الطقوس المادية جاء عنيفاً، فإن رد الفعل الذي أحدثه كان بدوره عنيفاً للغاية. وذلك أن بوذا كان ينادي بنبذ الطقوس وأساليب العبادة كلياً ويركز اهتمامه في الحث على الأخلاق الحميدة والتهذيب الروحي.

ولما كانت البوذية مذهباً عقلياً للغاية فلم يكن من المقدر لها أن تكون في متناول ذهنية الرجل العادي. ولذلك سرعان ما ابتُدع شكل من الطقوس الجديدة في نطاق البوذية نفسها، لكن تبيّن أن هذه الطقوس أكثر اعتماداً على المادة من الطقوس التي سعى بوذا إلى إلغائها. وقد أخطأ كثير من الناس في فهم النظرية البوذية الخاصة بالفناء فقالوا إنه لما كان كل ما في الكون زائلاً، فأعمالنا ونتائجها لا بد أن تتسم بسمة الزوال. إن مثل هذا الموقف من شأنه أن يقوض دعائم الأخلاق ويحمل الناس على النظر إلى الحياة واعتبارها متاعاً زائفاً. وفي هذا ما يفسر لنا إلى حد ما الموقف السلبي التقشفي الذي أدى إلى التقلبات السياسية التي عرفتها الهند. وكثيراً ما تعتبر اليوم الاستكانة وعدم الاهتمام بأمور الحياة الدنيا بأنها من الأشياء التي تميز موقف الهند من عالم الحقيقة. فيجب ألا يغرب عن البال أن هذا الاتجاه جاء متأخراً، وأن حكاية الهند القديمة هي حكاية الرفاهية المادية والعظمة. من الصعب التوفيق بين روح المغامرة التي أدت

إلى قيام إمبراطوريات ضخمة وتشييد مستعمرات مزدهرة ما وراء البحار وبين تلك القائمة على الرهبانية والفكرة السلبية.

هناك دليل آخر، إلى جانب الاعتراف بالشكل والروح، على الطقس الخارجي والجوهر الداخلي في التجربة الدينية والتاريخ الهندي. وما مفهوم انقسام الحياة إلى أربع أحد المزايا الهندية الخاصة. فهو يسعى إلى الجمع بين المادة والروح، بين الفوز بالدنيا والتفوق الروحاني. فلا مندوحة للفرد من أن يمر بهذه المراحل الأربع، وهي مرحلة البداية أو الإنشاء، فمرحلة الحياة المنزلية، فالتقاعد، وأخيراً مرحلة الانطلاق والتحرر من القيود الدنيوية. ويلاحظ أن هذا المفهوم يتمتع بصفة الشمول، فهو لا يستثنى أي ناحية من نواحي الشهوات البشرية. أما الجودة التي يتوخاها فيجب أن تتحقق عن طريق الأنشطة الفردية والاجتماعية. وتشاهد الجودة كذلك في إدراك القيم التي يجب على الإنسان أن يعمل من أجلها. وعندهم أن الإنسان لا يحقق ذاته عن طريق الروح فحسب، بل عن طريق تقديره للقيم الحسنة، الدنيوية والروحية على السواء. إن مراحل الحياة التي ألمعنا إليها، وهي بالهندية «كاما» و«أرثا» و«دهرما» و«موكشا»، هي من نتاج الفكر الهندي. وعندنا أن هذا التقسيم الرباعي لحياة الإنسان إنما ينطوي على الاعتراف بالتساوي بين عناصر الشهوة والعناصر الاقتصادية والسياسية التي تتألف منها الطبيعة البشرية. والواقع أن اعتراف الهنود وتسليمهم على مدى واسع بجميع مطالب الحياة ومقتضياتها، قد أكسب نظرتهم الدينية تلك الحيوية الجبارة. ويقيناً أن هذه الحيوية هي التي مكنتهم من تحمل عاديات الزمن والتغيير وساعدتهم على الصمود أمام تحديات الأفكار الحديثة.

لذا فإن الفلسفة هي العامل الحاسم في تقرير الثقافة الهندية على مختلف أنواعها وأشكالها. وإن تباين البلاد وتغايرها من الناحية الجغرافية، ومن ناحية القبائل واللغات، ومن ناحية العادات والمعتقدات، ومن ناحية المنظمات السياسية والمراحل الثقافية، قد هيأ عقلية سكانها للاعتراف

بالاختلاف والبحث عن الوحدة في التناقض. ومن مفاخر الآريين الذين غزوا الهند أنهم استطاعوا أن يصوغوا تعبيراً فلسفياً عن هذا القبول. والنتيجة أنه رغم كل هذا التباين المدهش في المظاهر توجد هناك الوحدة والاستمرار، بل أعجب من ذلك الاتفاق في الفكر الهندي، الأمر الذي أثار دهشة المشاهدين الأجانب والدارسين الهنود على السواء.

لم تكن الفلسفة الهندية مقصورة على الشؤون الفكرية فحسب، بل تعدت ذلك العمل إلى البحث عن سبيل جديد للحياة. لذا فإن لب الفلسفة الهندية عملي. ومع أن هذه الميزة ربما رسمت حدود المغامرات الفكرية إلا أنها ساعدت على تكامل الحياة الهندية في وحدة تعترف بالتناقضات كأنها مظاهر شتى لحقيقة واحدة. ولم تكن الفلسفة الهندية لتقصر اهتمامها على أمور الدنيا دون أمور الآخرة، لكنها أعطت لكل منهما حقه وساعدت في التشجيع على خلق تفكير مركّب. فقد كانت تنظر إلى العالم كحقيقة موحّدة تعبر عن نفسها في أشكال وأساليب مختلفة. ولذلك فقد اعتبر الدين حقيقة واحدة، تتجلى في معتقدات ومذاهب مختلفة. ويعتبر الحق والحقيقة كأنهما مظهران للمبدأ الذي يكتنف الوحدة في التناقض. وبفضل روح التسامح والتنسيق والشمول، اكتسبت ثقافتها طابعاً من المرونة والتسامح والليونة. وهي الصفات التي مكنتها من التغلغل إلى نفوس عامة الشعب، ومقاومة كل محاولة تهدف إلى القضاء على حياة تقاليدها العتيقة واستمرارها.

إن وجهة النظر الموحدة التي تجلت في المنظمات السياسية والاقتصادية، والعادات الاجتماعية وأساليب الحياة، واللغات والآداب، والفنون والعمارة، والأديان والفلسفة، ما زالت قائمة حية. وهكذا فإن الثقافة الهندية منذ عهودها الأولى هي وليدة صراع وتوافق، واستيعاب عناصر مختلفة المصادر في مجموعة واحدة. ومما يقيم البرهان على أن عملية التوحيد هذه جاءت كاملة تامة، أن الأسس الثقافية وهيئتها التي تمخضت عن عمليات التوفيق

والتنسيق القديمة بقيت على ما هي عليه ولم تتغيّر. على أن هذا لا يعني أن الثقافة لم تنم ولم تلقح بلقاح جديد من الموارد والمصادر الحديثة. وعلى الرغم من التعديلات التي لا بد أن تنتج عن هذا الإدماج، فإنها في تطوراتها ونموها سارت على نفس القواعد التي رسمت لها في عهد الدواوين الحماسية، بل، ولربما في عهود أقدم من ذلك. أما الثقافات المعاصرة لها، فقد اندثرت وزالت من عالم الوجود، وغدا تراثها الثقافي مادة للأساطير والتاريخ. ومع أن الأسس العلمية والميكانيكية للحضارة الهندية قد تعرضت إلى تعديلات وتغييرات جوهرية، فإن الثقافة الهندية احتفظت بخطوطها العريضة. ولعل ألمع برهان على مرونة الثقافة الهندية وحيويتها يتجلى في أن وحدتها واستمرارها لم ينقطعا قط.

المصالحة في القرون الوسطى

إن قصة الثقافة الهندية قصة استمرار وتوفيق وتكاثر. وقد سبق أن شاهدنا ما تم في العصور القديمة من الوفاق بين عدة عناصر متضادة. ومع ظهور الإسلام في الهند تكررت عملية التعارض والتوافق نفسها، ولكن بشكل أعنف ألف مرة ومرة. فللمرة الأولى في تاريخ البلاد المعروف اصطدمت الديانة والأنظمة الاجتماعية الهندية بنظام آخر لا يقل عنها تنظيماً وتحديداً. وقد تفاقم هذا الصراع بين النظامين الهندوسي والإسلامي واشتد نظراً للتباين والاختلاف البين في وجهتي النظر. ففي الهندوسية عنصر من الرهبانية وترك الدنيا. وأدى تركيزها على المطلق إلى وضع الأمور الدنيوية في مرتبة دونية لا قيمة لها. وخلافاً لذلك، كانت الديانة الإسلامية تخلو من الرهبانية، وتعطي للدنيا حقها بتركيز اهتمامها في الأمور الدنيوية. وكانت نظرتها إلى الحياة نظرة حيوية أساسية واجتماعية. وسرعان ما وقف الدين الجديد موقف التحدي من ادعاءات الدين القديم وقوّض نظامه الاجتماعي من أسسه.

نشأ عن الصراع والاختلافات بين وجهتي النظر مشاكل، وقعت مهمة معالجتها على عاتق الثقافة الهندية. قد يبدو للوهلة الأولى من الصراع القائم حالياً بين الهندوس والمسلمين أن الثقافة الهندية لم توفق إلى وضع حل كامل. ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار حجم السكان والمشاكل المتعددة التي تجابههم أدركنا أن وجه الغرابة لا يكمن في عدم اندماجهما كلياً بعد، بل في مدى ما تحقق بين المذهبين من اندماج. ويلاحظ كذلك أنه حيثما وجدت مسائل الخصام، فقد اقتصرت حول المصالح المادية. إن تاريخ الهند في القرون الوسطى، شأنه شأن تواريخ الشعوب الأخرى في جميع العصور والحقبات، هو عبارة عن صراع من أجل النفوذ السياسي والسيطرة الاقتصادية. ومن النادر حقاً، أن نعثر على أثر لأي صراع ديني أو طائفي. لا مشادة في أن المسلمين حاربوا الهندوس في القرون الوسطى، ولكن من النادر أن تكون هذه الحروب

قد نشبت حول خلافات دينية أو طائفية. ولم تكن المشاحنات التي قامت بين الهندوس والمسلمين أقل من مثيلاتها التي قامت بين المسلمين والمسلمين وبين الهندوس والهندوس. وقلما طرأت المسائل الدينية على بال زعماء المتنافسين.

لقد أوحت الاعتبارات التجارية للعرب بغزو العرب إقليم السند. وكانت الغزوات التي قام بها محمود الغزنوي ترمي لاستغلال ثروات الهند من أجل إقامة إمبراطوريته التركية الفارسية وتعزيزها. وعندما بدأ الأفغانيون يتدفقون على الهند، كان ذلك بسبب الضغط القادم من آسيا الوسطى الذي تسبب بنزوح السكان المقيمين على الحدود الهندية. وكان مجيء الآريين إلى الهند لنفس الأسباب والدوافع. وتلا هؤلاء أفواج متعددة أخرى من الغزاة طيلة العصور القديمة. والغزو الأفغاني والتركي إنما يكرر الحكاية نفسها. ويكشف بابر في سيرة حياته بوضوح سريان هذا المبدأ وانطباقه عليه. فكانت تكراراً للرواية نفسها، إلا أنها اختلفت عنها من ناحية واحدة. لم تكن للغزاة الذين عرفتهم الهند بعد الغزو الآري، حتى ظهور العرب على المسرح، ثقافة راقية خاصة بهم. ولذلك سرعان ما استوعبتهم التربة الهندية. أما تنقلات الشعوب الجديدة فقد حملت معها إلى الهند نفراً من الناس اقتبسوا ظواهر الحضارة الإسلامية ولو لم يحظوا بروحها. وصفوة القول إن هذه المشكلة تكشفت عن أنها قضية اندماج بين ثقافتين متباينتين وليست محاولة من جانب ثقافة واحدة لاستيعاب الأخرى ابتلاعها.

1 - الطريقة الهندوستانية

كان تأثير الإسلام على الهند عميقاً جداً. فالاتصال بين الأفكار القديمة والجديدة حمل أصحاب النباهة والإحساس على أن يتأملوا ويفكروا من جديد في أسرار هذا الكون ومشاكله الخالدة، لاسيما بعد أن تجردت العقول من موانع التقاليد القديمة. وظهرت ديانات وفلسفات جديدة لتظهر التقارب بين الأفكار الهندوسية والإسلامية. مع ذلك فإن عمليات الاستيعاب والتوفيق بين النظامين لم تكتمل كلياً بسبب صعوبات المسافة والبعد. وبقي تبادل الأفكار والثقافة بين العاصمة وسائر البلاد ناقصاً، ولكن المدن شاهدت عملية اندماج بين الثقافتين وعوّضت الأهمية السياسية للمسلمين عن قلة عددهم. لذا منحت الطبقة الأرستقراطية الإسلامية الصغيرة الثقافة المدنية لونها وطابعها، بفضل ما تتمتع به من ميزات التركيز والتجانس. أما في المناطق القروية فكانت الأوضاع على غير ذلك. فصعوبة المواصلات مكّنت الوحدات المحلية من الاحتفاظ ببعض استقلالها. وتمكّن الجمود الذي يلازم النظم الاجتماعية في المناطق القروية من توكيد نفسه نظراً لانعدام حركة التبادل الفكري المستمر أو الاتصال الدائم بين السكان. ونتيجة لذلك فإن المسلمين في هذه المناطق الريفية قد وقعوا تحت ضغط أشكال الحياة الهندوسية. فبقيت الثقافة الريفية، على الرغم مما وقع في الريف الهندي من تغييرات واسعة النطاق في الدين، محتفظة بطابعها الهندوسي المسيطر، ذلك لأن تحول الأفراد عن دينهم ودخولهم في دين جديد لم ينطو على تغيير أساليب ونظم المعيشة عندهم.

وقد بقي سجل الاختلاف والصراع حياً في كتب التاريخ الهندي التي ما زالت موجودة، لكن قصة الاندماج والتوفيق بينهما، كان نصيبها النسيان أو الإهمال. فتُروى لنا حكاية قيام وسقوط أسر مالكة وغارات قبائل من الخارج، وأحوال أعمال الاستبداد والنهب والسلب، ولكن لا يكاد يذكر قيام

مؤسسات اجتماعية وثقافية أو ظهور أشكال اجتماعية جديدة. والاعتقاد السائد بين أغلبية الهندوس هو أن الحضارات التي عرفتها الهند إنما قامت في سالف العصور وحسب، ومن ثم فإن الحضارة الهندية تعني في الواقع الحضارة الهندوسية. ووقع المسلمون من ناحيتهم في شك وريبة، إذ لو صح أنه ليس هناك سجلّ لتقدم الشعب خلال القرون المتعددة التي عاشوا فيها في البلاد، فلا بد أن تكون الثقافة الهندية هندوسية، ولا تمت إليهم بصلة. والحقيقة أن كلاً من المسلمين والهندوس ينظران أحدهما إلى الآخر نظر شك وارتياب نظراً لأن جهود تعاون المسلمين والهندوس في إيجاد ثقافة الهند لم تقدّر حقّ قدرها. إن خيبة الأمل الناشئة عن الخسائر البشرية الفادحة التي منيت بها البلاد خلال ما ينوف عن ثمانمئة عام هي مبعث المرارة الطائفية في الوقت الحاضر.

وقد تكفي الاعتبارات النظرية وحدها لإلغاء تعبير مثل هذا عن تاريخ الهند خلال العصور الوسطى. ومع أننا لسنا على إلمام بجميع الحقائق المتصلة بالموضوع، ولكن في وسعنا أن نؤكد أنه من غير المعقول لثقافتين غنيتين أن تتصلا معاً ولا تسفران عن عمليات اندماج جديد. فليس في حوليات الإنسان مثيل لتاريخ عقيم مثل هذا. إن الثقافة الهندوسية كان لها روعتها من حيث اتساع نطاقها ومداها. وحتى ولو أنها فقدت شيئاً من حيويتها الرئيسية عندما ظهر المسلمون على المسرح، إلا أنها احتفظت بعناصر ذات قيمة دائمة للفكر البشري. وكان لا مندوحة للمسلمين بعد أن تم لهم الاتصال بها أن يتشربوا روحها. وكان التعاون بينهما متناسباً مع شدّة نشاطهما الروحانية. إن الحضارات المتفرقة التي قامت في الهند القديمة قبل العهد الآري، وإن هزمت عسكرياً على أيدي جحافل الغزاة الآريين، إلا أنها ساعدت تدريجياً في تحويل العقلية الآرية نفسها بتهذيب حياة الفاتحين الثقافية. وكذلك الحال في اليونان، فقد استطاعت الحضارة الميسينية البقاء في ازدهار الثقافة الهلينية على الرغم من

انهزامها في الميادين الحربية. وتكرّرت الرواية نفسها عندما دانت «روما» للثقافة اليونانية، بعد أن فتحت روما اليونان سياسياً. وكذلك الحال في الهند، فإن المسلمين وإن ربحوا المعركة سياسياً إلا أنهم تعادلوا مع الهندوس في المعارك الذهنية والروحية على اعتبار أن النصر كان مشتركاً بينهما. وهو النصر الذي يمكن وصفه عن حق بأنه كان تعاوناً ودياً ذا نتائج بعيدة.

وهكذا فإن تاريخ الهند الحقيقي خلال العصور الوسطى لا يخرج عن كونه سجلاً لمحاولات إقامة تعاون وتنسيق بين المسلمين والهندوس في ألف ميدان. وسرعان ما يخطر على البال أسماء «رامانندا» Ramananda و«كبير» و«نانك» Nanak و«كيتانيا» Chaitanya ومعين الدين. إن نموّ النزعة «الفيشناوية» Vaishnavism في البنغال والثقافة «البكتية» في «مهاراشترا» Maharashtra يمكن ردهما مباشرة إلى عملية الاندماج التي تمت فيما بين الثقافات الدينية. ولم يكن هذا النشاط التعاوني ليقتصر على الميادين الروحية، بل تعداها في العهد الباتاني وبصورة أوسع في العهد المغولي، فتطورت العادات والسلوك، والأزياء والأعياد، ووسائل إعداد الطعام والشؤون المنزلية والاجتماعية. أما فيما يختص باللباس، فقد تطوّر زي جديد يعتبر انحرافاً عن التأثيرات العربية أو تأثيرات آسيا الوسطى. وقد شهدت هذه الفترة ظهور لغة جديدة ما زالت حتى يومنا هذا وسيلة للتخاطب بين الهنود من مختلف الأجناس والمناطق. والآداب الفاخرة التي تتجلى في مختلف اللغات الهندية إنما تعيد إلى الذاكرة النمو الثقافي الذي عرفته الهند في عصورها الوسطى. ونجد أن دوافع التنسيق والاندماج قد تناولت شتى الميادين، اجتماعية كانت أم سياسية أم ثقافية، وسواء في العمارة أو النحت، أو الموسيقى، أو الرسم، أو العادات الاجتماعية والمعتقدات الشعبية. فإن عملية الدمج بين النظم القديمة والجديدة أدت إلى ابتكار ألوان جديدة جاءت مساهمة الفريقين فيها على وجه يختلط فيه على الإنسان الفصل والتمييز بينهما. وصفوة القول إن العقليتين الإسلامية والهندوسية اندمجتا

معاً في مختلف مظاهرة العبقرية الهندية إلى حد يحملنا على القول بأن أياً من الفريقين يدعي أو يفاخر الآن بصفاء ونقاوة ثقافته، هندوسية كانت أم إسلامية، إنما يثبت جهله المطبق للحقائق التاريخية وعجزه عن النفاذ إلى إعماقها. وإننا لنجد أن عملية الاستيعاب حتى في عهد بابر قد بلغت حداً حمله على أن يصفها بأنها نمط أو طريقة حياة اصطلح على تسميتها «الطريقة الهندوستانية».

ربما يبدو لأول وهلة أن ميداني الفلسفة والاقتصاد لا يمت أحدهما إلى الآخر بصلة. ومع ذلك فإننا نعثر في هذين الميدانين على أثر ملموس للتعاون بين المسلمين والهندوس. والواقع أن من العسير أن نحدد مدى اعتماد وجهة النظر الهندوسية العصرية للحياة على المصادر الفيدية والأوبانيشادية، ومدى ما استقته من التعاليم الإسلامية. وعلى نفس النحو، فإن العقائد وقواعد الآداب والسلوك، والعادات المؤسسات الاجتماعية عند مسلمي الهند تعكس ما تركته الثقافة ووجهة النظر الهندوسية فيهما من أثر. ولم تكن تأثيرات الهند مقصورة على مسلمي الهند بل كذلك تعدتها إلى التأثير على تطور العلوم الدينية الإسلامية في فارس وبلاد العرب. وقد تغلغلت الأفكار البوذية غرباً حتى وصلت مصر. ويميل بعض المؤرخين إلى الاعتقاد بأن «عظة الجبل» لها سابقتها في المؤلفات والمراسيم البوذية القديمة. ويعتقد أن طائفة الأسينيين كانت بوذية واستوطنت آسيا الصغرى. ومع أن القرآن الكريم يعتبر المصدر الأساسي للمبادئ الصوفية، إلا أن الصوفية تأثرت كثيراً بالتيارات الفكرية الهندية. ومع أن المسيحية والمذاهب الأفلاطونية الجديدة والمجوسية والمانوية قد ساهمت بدورها في بعث الصوفية وتطوّرها، ولكن أقوى التأثيرات التي تعرضت إليها، جاءت من طريق الهندوسية والفلسفة البوذية. وإلا كيف يتسنى لنا أن نفسر المبادئ الصوفية القائلة بفناء الذات الفردية في الأزلي المطلق على عكس تقاليد الديانات السامية التي عرفت منذ عهد سيدنا موسى.

ولما كان مبدأ التجاوب هو القانون الذي يتحكم بالميادين الفكرية، فلا غرابة في أن الصوفية رغماً عن تأثرها بالأفكار الهندية قد أثرت بدورها وإلى مدى بعيد في وجهة نظر الديانة الهندوسية. ومع أن نفراً قليلاً من المؤرخين يشك بأن «الفيدانتا» Vedanta التي وضعها وألفها «شانكر» قد تعرّضت لتأثيرات خارجية ولكن هناك من الأسباب ما يحمل على الاعتقاد بأن «شانكر» قد تأثر بما كان للإسلام من تأثيرات على التيارات الفكرية السائدة. وكانت المناطق الشمالية من الهند منذ أن شرع في تدوين التاريخ، مهداً لجميع الحركات الفكرية الهندية الجديدة وحركات التجديد الدينية والفلسفية. إلا أن بداية القرن الثامن سجلت تحوّلاً أساسياً في هذا الاتجاه. فقد انتقلت الزعامة الفكرية الهندية إلى المناطق الجنوبية من البلاد. فشانكر و«رامانوجا» Ramanuja و«نمبادتيا» Nimbaditya و«فلبهاشاريا» Vallabhacharyya جميعهم من أبناء الجنوب. والواقع أن المناطق الجنوبية من الهند هي التي شهدت قيام وازدهار الحركة «الفيشناوية» والحركة «الشيفاوية». فالانقلابات السياسية والاجتماعية التي وقعت في المناطق الشمالية من الهند، لا يمكن لها وحدها تعليل وتفسير هذا التحوّل الفجائي، كما أن تحوّل مركز النشاط القومي أثار دهشة المؤرخين. وقد يتسنى لنا أن نجد حلاً لهذه الظاهرة إذا أقمنا صلة بينها وبين مجيء الإسلام إلى جنوب الهند حوالي القرن السابع.

ظهر الإسلام أولاً في جنوب الهند. وقبل أن يتسنى لمحمد بن القاسم إخضاع إقليم السند كان التجار العرب قد أقاموا لهم صلات مع سكان «ترافنكور» Travancore. وقد بلغ تغلغل العرب السلمي في الهند مدى يحمل على الاعتقاد، إذا صدقت الرواية بأن آخر ملوك أسرة «شرامان بيرومل» Cheraman Perumal، وهي الأسرة التي حكمت مليبار كان قد اعتنق الإسلام وغادر بلاده لأداء فريضة الحج. ولقب «زامورين» صاحب «كاليكوت» الذي كان يحمله يقيم البرهان على صحة هذه الرواية. وحتى

يومنا هذا، ما زالت العادة أن يُختار أحد أفراد طائفة إسلامية ليقوم بمراسيم التتويج. ويؤخذ من رواية أخرى كثيرة الانتشار أن «كالادي» Kaladi، وهي مسقط رأس «شانكر»، كانت تابعة لإمارة صغيرة اعتنق حاكمها الإسلام. وليس هناك ما يثبت أن دخول هؤلاء الناس في الإسلام جاء نتيجة لفتح عسكري، كما أنه ليس هنالك ما يدل على أن اعتناق الملك الدين الإسلامي حمل رعاياه بالتالي على أن يدخلوا في دين الله أفواجاً. ورغماً عن أن هذه الدلائل ليست قاطعة، إلا أن رواج مثل هذه الروايات إنما يدل على مدى ما كان للفكر الإسلامي من تأثير على الحياة المعاصرة في جنوبي الهند.

وكان للاتصال والتصادم اللذين قاما بين هاتين الفكرتين أن انبعثت من جديد روح الاستطلاع والتشكك في ذهن الفرد. وكان لزاماً على «شانكر» بكل ما أوتي من قوة التفكير وعمقه أن يجد في هذا الطراز الجديد من الفكر الأجنبي ما يجذبه اليه وبالتالي ما يحمله على اقتطاف ما يلائمه منه. وفي حين أن المذاهب الدينية القديمة التي قامت في شمالي الهند ووجهة نظرها إلى الحياة كانت مركبة، متأنقة وقائمة على التفكير، فإن العقلية التي تمخضت عنها فلسفة الحياة الجديدة في جنوبي الهند، كانت جامحة حادة سواء من ناحية الفيض العاطفي أم من ناحية الاهتمام بالحركة والنشاط وإبرازهما. وعلى هذا فإن العقلية التي كانت تسود المناطق الشمالية بما يغلب عليها ذهنية الانكماش والانطوائية تحولت فجأة إلى إلحاح ثوري غدا معه كل شيء حتى العقل أداة طبيعية في يد العاطفة. وقد تكون كل مادة من المواد التي تضمنتها فلسفة «شانكر» رغماً عما هناك من اختلاف في مدى إبرازها وتأكيدها مستمدة من موارد «أوبانيشاد» القديمة، إلا أن طبيعة وشكل التنسيق الذي حققته يوحي بأنها تأثرت ببعض العناصر الجديدة. أليس الطريف حقاً أن نلمس في حماسة «شانكر» أثراً من آثار الحماسة الإسلامية؟

ويعتبر «شانكر» من عدة نواح من أغرب الشخصيات في تاريخ الثقافة الهندية. ومن المألوف أن ينظر إليه أنه خلاصة التفكير الهندي المحض. ويعتقد بأنه تزعم حركة الدفاع عن التقاليد الرجعية البراهمية في وجه التعاليم البوذية المتحررة المتنوّعة المصادر، ويرى بعضهم أنه ذهب في نظرية انعدام الحقيقة الكونية إلى إقصى الدرجات بحيث لم يترك معها مجالاً للعفة والبر. وقد يبدو لأول وهلة من اعتقاد «شانكر» بالتوحيد الخالص بأنه يرفض أن تكون الدنيا شيئاً وهمياً. فإذا صح أن الكون مجرد شيء وهمي فإن الأعمال الدنيوية تفقد معناها. ويكون البوذيون حينئذ على حق، في اعتبار الحياة على أنواعها كأغلال وقيود يترتب على الانسان أن يتحرر منها بكبت شهواته ورغباته. وحتى ذلك النفر ممن يضعون «شانكر» في مرتبة الأنبياء في «ماياباد» يسلمون معنا في أنه كان من ألد خصوم نظرية الفناء البوذية والاستكانة التي تنتج عنها.

إن المكانة الهامة التي يحتلها «شانكر» في تاريخ الفكر الهندي تعود إلى ما قام به من محاولات لتحدي التعاليم البوذية الخاصة بعالم ما وراء المرئيات والرد عليها، والاستناد في هذا الرد إلى حججها ومنطقها. وقد انبرى أيضاً لدحض ما زعمه البوذيون من عدم ديمومة الحياة الدنيا وكشف النقاب عن التناقض الذاتي الذي يتوفر في المادة الثابتة. يرى البوذيون أنه لما كانت المعرفة العادية تتسم بالتناقض، فالنتيجة المعقولة هي أن هذه المعرفة غير حقيقية. وقد رد عليهم شانكر بأن هذا الاستنتاج ليس له ما يبرره، لأنه نفسه مبني على المعرفة. وقد استعاض شانكر عن نظرية انعدام الحقيقة بنظرة الأسرار الغامضة التي لا يمكن تفسيرها وتعليلها. وعنده أن المحاولة للنيل من المعرفة على اعتبار أنها معدومة غير حقيقية لا تشفى غليلاً. وذلك لإغفالها إيراد أسباب أو تعليلات لوجود هذه المعرفة أو قيامها. أما الزعم بأنها وهمية فيتطلب تحليلاً لطبيعة ما هو وهمي. ذلك إن بعض ما يتراءى لنا وهمياً لا يخرج في النهاية عن كونه سراً لا يستوعبه إدراك.

ولذلك فإن شانكر اعترف بقيمة إسهام بوذا في عالم ما وراء المرئيات، كما أنه أدرك أن ما تنطوى عليه الفلسفة البوذية من أفكار وفوضوية قد عملت بالتالي على تقويض القيم الأخلاقية عند عامة الشعب. وهذا ما حمله على التسليم بالنظرة البوذية بأن الحقيقة الأصلية في النفس هي الفكرة. وعلى نقيض البوذيين فإن «شانكر» يعتقد أن الفكرة وحدة خالدة أزلية، أنها الطبقة التحتية التي تقوم وراء كل شيء في هذا الوجود ومصدر وجوده. وهو يرى أنه لما كانت مظاهر الفكرة أو أشكالها تقوم بأداء مهمتها بواسطة «مايا»، فإن كل شيء في هذا الوجود يعتبر حقيقياً بصورة نسبية، ويستمر على كونه حقيقة، ويجب أن يسلم بها على هذا الأساس. وعلى ذلك فليس في وسع الأفراد استيعاب الفكر السامي القائل إن «براهمان» هو الحقيقة الوحيدة إلا بعد بلوغهم درجات المعرفة العليا.

قبل «شانكر» التعاليم البوذية الخاصة بعالم ما وراء المرئيات، وقبل معها الطقوس الفيدية ودينها، وأبرز أهمية هذه الطقوس بالنسبة إلى الرجل العادى. كما أنه اعترف دون لبس بفائدة العبادة والتأمل. وعندنا أن «شانكر» بفضل نواحي نشاطه المتعبدة واقتناعة بأن التأمل الذي لا يرمى إلى هدف مادي لا يشبع الرجل العادي، قد أسدى أجل الخدمات لرفع شأن البلاد والنهوض بها وإشعاع فلسفة مشتركة بين سواد الشعب.

أما النقطة الثالثة في تعاليم «شانكر» وفلسفة فتنحصر في محاولاته تأكيد وإبراز أهمية العمل. وهي التعاليم التي لم يناد بها فحسب، بل مارسها شخصياً. وقد تأصّلت في النفوس الفكرة بأن «شانكر» قد أغفل العمل والنشاط بأنواعه المختلفة. وإن الذين يدينون بهذا الرأي لا يدركون بأنه لو ثبتت صحته، فإنه يجعل من «شانكر» واحداً من المعترفين المقرين بالتعاليم البوذية الخاصة بعالم ما وراء المرئيات. وهي التعاليم التي هاجمها «شانكر» بشدة. وقد أكد «شانكر» مرة بعد أخرى ضرورة عدم إغفال الأعمال التي نصت عليها الكتب المنزلة مبيناً أنها ضرورية في المراحل الأولية. ولعل

تأكيده وإبرازه أهمية الأعمال قد يكون بمثابة رد فعل على إنكار العمل في الهندوسية الفاسدة والبوذية الفاسدة السائدتين حين ولادته. وقد يرد هذا إلى تعاليم «الجيتا». أما السبب الآخر المعقول الذي حمله على تأكيد أهمية العمل، كما يعتقد بعضهم، فقد يعود إلى انتشار الإسلام ورسوخه في مسقط رأسه. وعندنا أن تأكيده على أهمية العمل إلى جانب الإصرار الشديد على وحدانية براهما، يكشف عن مصدر تشابه مع التعاليم الإسلامية وذلك أمر غريب بقدر ما يثير الاهتمام.

لقد جاءت حياة «شانكر» وتعاليمه مثالاً لامعاً على روح التوفيق التي تعتبر من الميزات الخاصة للثقافة الهندية. والواقع أن تعاليمه جمعت بين محاسن التعاليم الهندوسية والبوذية في آن واحد. لقد استنبط شانكر فلسفة عملية استطاع بفضلها أن يوفق ما بين الديانتين الرئيسيتين في البلاد، ويضع حداً للحروب الضروس التي كانت قائمة بين الهندوسية والبوذية. وهناك أسباب تحمل على الظن بأنه ضم إلى مركّبه عناصر التعاليم الإسلامية التي كانت أكثر ملاءمة لعبقرية البلاد. إن توحيده المتطرف، وقمعه للشرك وشوائبه، ومحاولاته إثبات هذا التوحيد بالاعتماد على نصوص الكتب المنزلة، ثم ميله إلى أن ينظر إلى جهوده الشخصية بأنها إنما ترمي إلى إرجاع الصفاء الأصلي للحقيقة المنزلة وحسب، كل هذه العوامل تذكرنا كثيراً بالعقائد الإسلامية. فإذا ما أقمنا صلة بين هذا التشابه في المظاهر وظهور الإسلام كقوة حية قبل مولده يقابل في البلد الذي كان مسقط رأسه، فلا يمكن إنكار الاستدلال بأنه قد تأثر بتعاليم الدين الجديد.

لقد وضع «شانكر» الأساس لجهود التوفيق التي يتكون منها تاريخ الهند الديني في العصور الوسطى. ومن الذين ساروا على نهجه «رامانندا» و«كبير» و«نانك» و«دادو» و«كتيانيا» و«توكارام». ولعل أهم ميزة لجهود التوفيق هي التفاتها إلى الماضي. وجمعها بين العناصر الجديدة والقديمة، مع الاحتفاظ بوحدة واستمرار وجهة النظر الهندية الروحية ومجهوداتها.

2 - الميادين الاقتصادية والفنية

يكرّر تاريخ الهند في القرون الوسطى رواية الصراع والتوفيق نفسها في التنظيم الإقتصادي. فالمفهوم أن اقتصاديات الهند القائمة على الزراعة بدأت تفسح المجال أمام نظام إقطاعي قائم على وقائع الفتح وحقيقته. وعندنا أن المحاولة التي قام «علاء الدين» في نطاق هذا النظام الصارم لتنظيم أسعار الحاجيات الضرورية، إنما تدل على وعي اجتماعي يتجاوز حد المصالح الشخصية ولو بصورة جزئية. ومع أن المحاولة التي قام به محمد تغلق لإدخال نقود إسمية جاءت سابقة لأوانها وأخفقت، إلا أن التدابير المتعددة التي اتخذها، تدل على ما كان يتوفر لديه من آراء مهما كانت غامضة عن طبيعة النقد كمجرد أداة للتبادل دون أن يكون لهذا النقد قيمة في نفسه.

إن تفاعل العوامل السياسية والاقتصادية فيما بينها لم يغب عن اهتمام المدققين. وعلى الرغم من أن الصلات بين الرأسمالية والدولة القائمة على المجموعة القومية كانت ملحوظة، إلا أن تفاعل الطرفين بقي موضع إهمال ونسيان بالنسبة إلى تاريخ الهند. ذلك أنه من النادر أن نلمس اعترافاً، بالطريقة التي مكّنت «أكبر» بفضل ما اتخذه من تدابير أن يمهد الطريق ولو دون قصد إلى قيام الرأسمالية. ذلك أن «أكبر» أدخل نظام الدفع نقداً على بدل الدفع عيناً على معظم معاملات الدولة. بعبارة أخرى استعاض عن نظام المقايضة بنظام اقتصادي يقوم على النقد. أضف إلى ذلك أن أكبر أعاد تنظيم ملكية الأرض التي بدأها سلفه شيرشاه. وتدل هذه الإجراءات على ما حدث بعد ذلك من حلول نظام الإنتاج الرأسمالي محل النظام الإقطاعي، لكن هذه العملية لم تكتمل نظراً لأن الشرط الأساسي المكمل لها، وهو تغلب الشعب على قوة الطبيعة واستخدامه لها، لم يكن تحقق بعد.

إن مصدر الصراع بين الأفراد والجماعات في عصور وأماكن أخرى

من العالم، يرد إلى أسباب وعوامل علمانية. وفي وسعنا إثبات صحة هذا القول إذا ما قمنا بدراسة ظاهرة رائعة من الظواهر التي تجلت في ذلك العصر. وكثيراً ما بيّنت الصلة القائمة بين الأحوال الاجتماعية والجغرافية التي كانت تسود آسيا الوسطى، وبين الغزوات التي تعرضت لها الهند. أما الظاهرة التي لم تلقَ بعد الاهتمام الجدير به، فهي قيام السلطة الراجبوتية، وبقاؤها في الهند في عصورها الوسطى. على العموم، لم يكن للراجبوت قبل حلول القرن الثامن وبعد عهد أورنجزيب أهمية تذكر في تاريخ الهند. ولكنهم في غضون نحو هذا الألف عام تمكنوا من فرض تاريخهم على البلاد رغماً عن تأخرهم عددياً وسياسياً عن الجماعات والإمارات الهندية الأخرى. ويلاحظ أن مركز النفوذ السياسي في الهند قبل القرن الثامن أخذ ينتقل إلى ضفاف نهر الغانج. والمعروف أن المناطق الشرقية من البلاد منذ عهد أشوكا حتى عصر «هرشا فردانا» Harshavardhana، كانت مهداً للزعامة السياسية. على أن تحولاً رائعاً في هذه الظاهرة بدأ يتجلى منذ القرن الثامن فما بعد. ذلك أن محور النفوذ والسلطة السياسية انتقل من المناطق الشرقية إلى وسط الهند في منطقة دلهي، واستمر قائماً فيها لمدة ألف عام. وهذه الفترة بالذات شاهدت قيام السلطة الراجبوتية وبلوغها ذروة المجد.

وعلة هذه الظاهرة كما يلوح هو التحوّل الذي وقع في الاتجاهات التجارية الهندية. والطرق التجارية الهندية كانت حتى القرن الثامن تتجه شرقاً، حيث المستعمرات الهندية وممتلكاتها ماوراء البحار. وكان اتصال الهند التجاري بالبلدان البعيدة كالصين واليابان مستمراً على نطاق واسع. لا شك أن هناك أدلة على قيام اتصال تجاري بين الهند وأوروبا، إلا أنه لم يكن مما يستحق الذكر إذا ما قورن بتجارة الهند الشرقية. ونتيجة لذلك اتجهت حياة الهند السياسية نحو الشرق لتستمد مقوّمات حياتها من الثروات التي أخذت تتدفق عليها من المناطق الواقعة ماوراء البحار.

على أن الحالة تبدلت بعد القرن السابع. فقد أدى ظهور سلطة العرب إلى إقامة اتصالات تجارية بحرية بين الهند والغرب. وقد سبق لنا أن ألمعنا إلى اتصال العرب بالمناطق الجنوبية من الهند في القرن السابع، وما وقع في القرن الذي تلاه من غزو العرب لإقليم السند لاعتبارات ودوافع تجارية. وقد تحولت منطقة غجرات في ذلك الحين إلى مركز من مراكز هذه التجارة، عندما أخذت الثروة تتدفق على الهند من الغرب.

صادف التغير الذي طرأ على الاتجاهات والطرق التجارية في الهند تبوّؤ الراجبوت مكانة مهمة. ومما يعزز الرأي بوجود صلة بين هذين العالمين أن راجبوتانا تقع مباشرة على طرق التجارة ما بين غجرات ودلهي. وسرعان ما أصبحت السيطرة على هذا الطريق الهام مفتاحاً للسيطرة على المناطق الشمالية من الهند بأسرها. وقد بدأت قصة هذه السيطرة بالصراع الذي قام بين زعماء الراجبوت أنفسهم لتأمين سيطرتهم على هذه المنطقة. لكن هذا الصراع تحوّل فيما بعد إلى صراع مابين «ميوار» Mewar ودلهي. والواقع أن محور تاريخ الهند في الفترة الواقعة ما بين عهد علاء الدين وأكبر يدور حول هذا الصراع. ومع أن الاعتبارات الدينية والطائفية استغلت في إثارة هذه المعارك، إلا أن دوافعها وأسبابها الرئيسية تنحصر في رغبته السيطرة والإشراف على هذا الطريق التجارى الهام، وبالتالي التحكم بمرافق البلاد الاقتصادية.

ومن ناحية أخرى، فإن أفول نجم الراجبوت فجأة وانهيار نفوذهم لا يقل عن ذلك أهمية. وقد لا نجد تعليلاً شافياً لانهيار الراجبوت في الحملات التي شنها «أورنجزيب» على «راج سنج»، لأن هذا الصراع لم يكن حاسماً بل كان أقل حسماً من الصراع بين ميوار ودلهي من قبل. ومع أن «علاء الدين» و«بابر» أوقعا أشنع الهزائم بالراجبوت، إلا أنهم لم يوفقوا إلى استئصال نفوذهم وسلطانهم. أما «أكبر» فقد ضم إلى الضغط العسكرى التودّد والمجاملة لترويضهم والانتفاع بحيويتهم ونشاطهم في توسيع إمبراطوريته.

ومع كل ذلك لم ينجح في القضاء على نفوذهم وقدرتهم على المقاومة. لذا لا مفر لنا من أن نتلمس علة انهيار الراجبوت وسقوطهم في نواح وميادين أخرى.

ومن الجائز أن نعلل سقوطهم كصعودهم بتحوّل جديد في المراكز والطرق والتجارية في الهند. ولما طغت أهمية التجارية العربية مع الهند على تجارة الهند مع الملايو والهند الشرقية، أصبحت غجرات السوق التجارية للهند، وبلغت راجبوتانا أوج مجدها العسكري. وباكتشاف الطريق البحري حول رأس الرجاء الصالح، وقيام مراكز تجارية جديدة في كاليكوت وعلى السواحل الشرقية من البلاد فقدت غجرات أهميتها التجارية وفقد الراجبوت معها أهميتهم في تاريخ البلاد. وتصادف بروز السلطة الماراتية مع هذا التطور. وكان للاتصالات التجارية التي أقامها البرتغاليون والهولنديون وغيرهم من الأوروبيين، أن أصبحت السيطرة على المحيط الهندي من أهم العوامل في حياة البلاد الاقتصادية.

ولما بدأت المصالح التجارية الأوروبية تنمو وتتعاظم أخذت الحياة الاقتصادية تسير في طرق واتجاهات جديدة. وانتقل مركز النفوذ السياسي إلى مدراس وكلكتا. وسرعان ما فقد الراجبوت والماراتيون، أهميتهم السياسية. ورغماً عن أن الماراتيين واصلوا النضال لمدة قرن، إلا أنهم أخذوا يضمحلون تدريجياً بعد أن أخذ البريطانيون والفرنسيون زمام الحركة التجارية بين الهند والغرب بأيديهم بدلاً من البرتغاليين والهولنديين. غير أن ظهور ميناء بومباي ضمن لهم عدم الاختفاء كلياً عن المسرح. وطالما وصف تاريخ الحروب التي شنها الراجبوت والمراتيون على دلهي على أنها صراع بين المسلمين والهندوس لاعتبارات ودوافع طائفية دينية. وفي التحليل الذي أسلفنا ما يحمل على الاعتقاد بأن هذا التاريخ أقرب إلى التعليل والفهم إذا ما نظر إليه في أضواء النظرية القائلة بأن

المشاحنات تقوم عادة على اعتبارات مادية، مع التسليم بأن عوامل الدين والثقافة التي بدت في هذا الصراع جاءت عرضاً ومن باب المصادفة.

تتجلى عوامل الوحدة والإستمرار ودوافعها في تطور الفنون الهندية على مختلف أنواعها وأشكالها. وقد سبق لنا أن شاهدنا كيف أن الثقافة الهندية نشأت وقامت على أساس مبدأ حقيق الوحدة في التناقض. وفي الميادين الدينية أدت إلى التحرر وترك الظواهر والعمل على إدماج الذات بالحقيقة الإلهية عن طريق النشوة الروحية. ومتى تحقق هذا الاندماج الروحي، فثمة عودة إلى الحياة الدنيا. وفي تعدد نواحي هذه الظاهرة ما يعتبر تعبيراً هاماً عن وحدة أساسية جوهرية. وقد جاء الفن المعماري خير معبر عن هذا الاتجاه، مجسّداً في الحجر. ويلاحظ في مباني المعابد أنها تنعم برفاهية الشكل من الخارج، ولا يعثر الناظر إليها على حيّز فارغ ولو كان بوصة واحدة. فهناك روعة الزخرف ودقة التفاصيل اللتين تعكسان وتصوران الحقيقة التي تؤلف الحقيقة المتكاملة العليا لجميع الأشياء. أما الهيكل الداخلي فإنه أشبه بحجرة صغيرة مظلمة حيث يقف روح الانسان في خلوته وجهاً لوجه أمام السر الأزلي.

تتوفّر أكثر الأمثلة على الطراز الهندوسي الصميم في المناطق الجنوبية من البلاد. على أن هذا يعني أن هناك طرازاً خاصاً بالجنوب. وكل ما يمكن أن يفهم منه أنه رغماً عن التباينات والتغايرات، فإن المباني الجنوبية تعكس تشابهاً أساسياً من حيث التصميم والتنفيذ. وينطبق نفس القول على الفن المعماري في الشمال. ولعل في هذا ما يميزها عن التجارب المماثلة التي شهدتها البلدان الأخرى في هذا الميدان. والقصور والقلاع والقبور التي قامت في الهند الشمالية خلال القرون الوسطى تعكس آثار الفن الفارسي. ولكن رغماً عما يقوم من تشابه بينها وبين النماذج الفارسية فإنها تبدي ميزات تعد غريبة عن الفن المعماري الفارسي. وهي وإن كانت قد تأثرت

إلى حد بعيد باتجاهات فارسية، إلا أنها استمدت مادتها من تقاليد الهند القديمة. فهي هندية في الصميم.

أما المعابد التي تقوم في الجنوب فيسيطر عليها الخط المستقيم. وتستند فيها كل التفاصيل إلى ترتيب الخطوط والزوايا. وثمة ميزة رائعة أخرى لهذا الطراز من المباني، هي وفرة الزخرف بالتماثيل، فكل عمود قد نحت من صخر وزين بمئة شكل وشكل. وقد تعددت هذه الصور والأشكال وتباينت إلى حد قلما نجد معه تكراراً لنفس الصورة والفكرة. ففي معبد «كانجي وارام» Kanjeevaram الشهير يوجد نحو ألف عمود يختلف كل عمود من أعمدته اختلافاً كلياً عن الآخر. وحتى في المعبد الصغير «سيماشلم» Simhachalam تختلف الأعمدة شكلاً وتعبيراً. وعندنا أن هذا الطراز من الفن المعماري إنما يهدف إلى غمر شعورنا بإبراز غزارة الصور وروعة العرض.

ويتجلى التضاد في الفن المعماري الشمالي إلى حدّ يلفت انتباه حتى على أبسط الهواة. بل إن المعابد الشمالية قد انحرفت عن تحكم قاعدة الخط المستقيم وسيطرته. فهي تعرض ائتلافاً من الأقواس والدوائر يضفي تغييراً دقيقاً على الجوّ. ومع أن القباب نادرة ولكن الأبراج نفسها تختلف عن أبراج الجنوب. وقد لا يتسنى للذين ينحصر إلمامهم في الفن المعماري في الشمال أن يقفوا على هذه الحقيقة. وعندهم أن الفوارق ما بين المعابد والمساجد تفوق أوجه التشابه الخفى بينها. أما أولئك الذين رأوا المعابد القائمة في الجنوب فقط، فيعتقدون أن جميع العمارات في الشمال قد تأثرت بطابع المساجد وخصائصها. وليس هذا بالغريب المستهجن، لأن جميع الأبنية الرائعة في الشمال، سواء أكانت معابد أم مساجد، تستمد روعتها من التوفيق بين الطرازين الإسلامي والهندوسي وتأمين الانسجام بينهما.

إن تدابير النحت وغيرها من أعمال الزخرفة والتزيين في الشمال

لم يأت عن طريق المصادفة. الاهتمام هناك يتركز في تأمين التناسق وحفظ التوازن في الحصص الأصلية. ورتبت الأجسام المدورة بحكمة حتى تتراءى منسجمة. والهندسة المعمارية في الشمال تقوم على فكرة أساسية. ومحاسنها تتجلى بانسجام المجموعة البنائية أكثر منها في روعة الأجزاء وتنوّعها. ومن المدهش حقاً أن يتحقق هذا التنسيق حتى في بناء المعابد. ومع أنه يمكن الاقتباس عن التأثيرات الأجنبية في ميادين أخرى، فإن هناك ميلاً لمقاومة هذا الاتجاه فيما يتصل بالميادين الدينية. وعندنا أن إقدام الفنانين والمهندسين المعماريين الهندوس على الانتفاع بالفنون والأفكار الإسلامية فيما شيدوه من بناء ليقيم البرهان على قوتها وحيويتها.

لم يكن التأثير من جانب واحد ولا يمكن أن يكون كذلك. والواقع أن الفنين أخذا أحدهما عن الآخر. وفي حين أن طراز البناء العربى الإسلامي أثر على التقاليد الهندية القديمة، فإنها بدورها تركت آثارها العميقة على عمارة المسلمين في الهند. وإننا لفي غنى عن ذكر أمثلة معينة عما أدخل من خصائص الطراز الهندوسي على المباني الإسلامية في الهند، لذلك العصر. يكفي أن نشير إلى أن شجر «اللوتس» و«الجرة» اللتين انفرد بهما الفن المعماري الهندوسي القديم ولكن نرى استعمالهما بمهارة على أضرحة قبور ملوك المسلمين. إن أهم ما تتميز بها الهندسة المعمارية الإسلامية القديمة هو بساطتها وحدّتها. فخطوطها تتقابل مع بعضها بعضاً بأناقة مجردة لا تفسح مجالاً للزخرفة السطحية. وحتى في الحالات التي استعملت فيها وسائل الزينة والزخرفة، فقد جاء هذا الزخرف وتلك الزينة على أشكال هندسية أو كتابات بلغت أقصى درجات الفن. والذي يلاحظ أن المبادئ التي يقوم عليها الفن المعماري الإسلامي، قد تعرّضت في شمالي الهند إلى تعديلات وتغييرات أساسية. ذلك أن العناصر الإسلامية والهندوسية اندمجت معاً لتشكّل فناً معمارياً جديداً. فمالت حدة الفن الإسلامي إلى الليونة وتقلّصت المبالغة في التشكيل في الفن الهندوكي. فقد اندمجت

عناصر الانسجام والشكل التي تميز الفن العربي الإسلامي بخصائص الروعة والزخرفة التي يمتاز بها الفن الهندي. وحيث يكتمل الاندماج، نجد إعجازاً في العمارة كما في «تاج محل». وفي كثير من الحالات التي لم تكن عملية الاندماج تامة، نجد أن أحد الفنين قد طغى على الآخر. وتعكس طرائق العمارة، كمبنى «فتح بورسيكري»، ومبنى «اعتماد الدولة»، مثالاً رائعاً على عملية تنسيق ناقصة.

الأمة تخلد في فنونها. فالظروف السياسية قد تتبدّل وتتحوّل من يوم إلى آخر، دون أن يترك هذا التحوّل أثراً خالداً على العالم. وحتى في الميادين الفلسفية فقد طغت التفاصيل على الجوهر لتضيع الروح في تعقيدات العقل. أما في الفن فإن الأصيل والبسيط يتحديان الفناء ويُطبعان في الوجدان القومي. وهذا ما يمكن الفن من أن يعكس ويكشف عن الطبيعة الكامنة الخفية في الشعوب ويكسبها رسوخاً على مر القرون والأجيال.

ولعل الرسم هو أكثر الفنون خلوداً وأكثرها جوهرية. أما النصوص فهي وسيلة التفاهم في المجتمع وتتغير بتغيّر الأوضاع الاجتماعية. والموسيقى جوهرية أيضاً ولكنها ليست خالدة. فالشعور الذي تحدثه الموسيقى وتثيره شعور عابر بدون شكل بحيث لا يتعدى تأثيره الهزات البسيطة التي تعتري النفس. وما تفتقر إليه من صفات التعيين لا يؤهلها أن تعبر تعبيراً شاملاً عن العبقرية القومية.

الرسم (التصوير) ينفذ إلى الأساس والجوهر، ومع ذلك فإنه يعبر عن فراسة عرقية أو زمنية. إن الدقة العجيبة التي يمتاز بها فن الرسم الفارسي القديم تعبر عن العرق على نحو ما يعبر الاقتصاد الجوهري عن الفن الصيني. إن تماسك الحضارة البورجوازية الهولندية تواجه الروح الأوروبية الحديثة المعذّبة في رسم العهدين بصدق وتأثير لا يمكن أن يعبر عنها أي فن آخر. وإن ما ينطبق على فن الرسم في البلدان الأخرى لينطبق تماماً على هذا الفن في الهند.

ولسنا بحاجة لأن نقوم بعرض مستفيض لتاريخ الرسم الهندي الطويل

في عصوره القديمة، بعد أن غدا في طي النسيان. وقد تعاونت أحداث الزمان والأجواء المعادية على دثر ما خلّفته موجات المغيرين المتعاقبة. وقد دفن في كهوف أجنتا إنجازات ثمينة تحفظ ذكرى محاولة الرسم في الوقت الملائم. وتكاد البراعة المدهشة في الأشكال أن تلقي الحركة في الجامد والملموس. إن صيف الهند قد يكسب الحرارة والنور سطوعاً وإشعاعاً ولكن هذا الإشعاع نفسه يُفقد الأشياء فرادتها في نوع من الانسجام الغامض المعدوم المعالم. والواقع أن اللوحات والرسوم هذه لا تخرج عن كونها تعبيراً فنياً ذوقياً عن ثقافة هي وليدة المحاولات التي بذلت للتنسيق والتأليف بين تجارب أجناس مختلفة من البشر، كما أنها تفترض قيام توازن بين الاتجاهات المتضاربة.

إن جدران وسقوف «أجنتا» حافلة بالمناظر المستمدة من حياة مجموعة الشعب بقدر ما هي زاخرة بالمناظر المستمدة من حياة الناسك. وأول أنواعها من الصور يفيض بمسرات الحياة ويصوّر لنا الجاه والمجد والمحبة والشباب. أما المجموعة الثانية منها فتمثل حياة هادئة خالية من عوامل الإثارة، تقوم على التأمل وتمثل التجرد والعبادة والعفة والإيمان. إن أصحاب هذه الرسوم لم يعالجوا كلاً من العالمين على انفراد، كما أن معالجتهم للعالم الواحد لم تختلف عن معالجتهم للعالم الآخر. والواقع أن هذه الرسوم تعكس لنا نفس الشعور بأعباء الحياة وحدتها وازدحامها على النحو الذي لمسناه في الفن المعماري الذي قام في الهند قبل العهد الإسلامي. وتتلاحق هذه الصور بعضها خلف بعض. وقد حشدت في فوضى عجيبة مجموعة من الرجال والنساء والأطفال في أوضاع ومواقف مختلفة. ويتراءى لمشاهدها أن الرسام الذي وضعها قد تأثر بخصب الحياة ووفرة إنتاجها الذي لا حد له، فعمل على تفهمها والوقوف على أسرارها. وراح يعبر عن ذلك بفنه الدقيق. وقد روعي في هذا الرسوم رغم تنوعها وتباينها إبراز الوحدة بين عناصر الحقيقة. وتعبر هذه الصور عن قداسة العوارض والظواهر الطبيعية بفضل

ما عمد إليه الفنانون من إقامة ألفة رائعة بين ما رسموه من تماثيل بشرية وغير بشرية. ومما يكسب صور «أجنتا» روعة على روعة اعتماد الفنانين على قاعدة الخط المستقيم كوسيلة للتعبير عن حدة الحياة وازدحامها ووحدتها. وعلى ذلك فإن هذه الصور والرسوم لا تخرج كونها عرضاً حسياً لبديهة الوحدة الكامنة وراء كل الظواهر.

أما التحول نحو الدقة الحادة التي تميز الرسم المغولي والراجبوتي فإنه جدلي. مع ذلك فإن هذا التحول ليس اعتباطياً أو مفاجئاً. إن الفن الذي نقله «بابر» وأحفاده معهم إلى الهند، استمد إلهامه من ذاتية حادة. فهو لم يعن بالازدحام أو الشعب، وقلما اهتم بالتعبير عن فكر مركّب. فكان ينظر إلى الأشياء من زاوية واضحة وخلاصة محددة. ومن خصائصه أنه يقوم بتمحيص وتدقيق جميع التفاصيل المتصلة بموضوعه ويتعب في إتقانها. ولما كان هذا الفن قد ولد ونما في بلاط «جنكيز» و«تيمور» فلم يكتب له أن يكون ناعماً أو عاطفياً. وكان يتحسس بدوافع الحياة وحيويتها قوياً شديداً فراح يعبر عن عنفها العاطفي فيما رسمه. والواقع أنه بلغ ثناء يذكر في إبراز ذاتيته وطابعه الفردي. وعلى هذا فقد تحول الرسم إلى فن التصوير إلا أنه تصوير يبدي فطنة مدهشة.

وعندما اصطدم هذا الطراز العنيف الفردي من الرسم بالرسم الموجود في الهند نشأ عن اتصالهما واندماجهما طراز جديد جمع بين عناصر كل منهما وطرأت على براعة رسوم أجنتا خطوط جديدة من التناسق والتناسب والتباعد. ومع أن هذا الفن كان بعيداً عن الأهداف العنيفة الحادة التي هدف إليها فن الرسم الهندي القديم، فإنه يعكس ضروباً من الذوق والأناقة. إن طابع التجرد الذي نلمسه في الفن الهندي القديم جاء نتيجة المبالغة في تصوير الشعور والمغالاة في ذلك إلى درجة الشعور تتجاوز نطاق التحسس البشرى. أما التجرد الذي نلمسه في الفنين المغولي والراجبوتي

فهو وليد عوامل التبسيط والتحديد. وفي حين أن أحدهما بهيج فإن الآخر هادئ، لكنه أنه يستمد هدوءه من فيض بهجة الماضي.

إن الموسيقى الكلاسيكية في جنوبي الهند لتعيد إلى الذاكرة كل مراحل تطور المعابد القائمة هناك. فمتانة بنائها ووفرة تفاصيلها وانطباعها بطابع خاص أكسبها هوية تميزها عن غيرها. أما الموسيقى في الشمال فتختلف عن مثيلاتها في الجنوب اختلافاً كلياً. فقد استعاضت عن طابع المتانة بجمال الخفة. وبدلاً من وفرة التفاصيل وغزارتها، تنعم بعامل الانسجام والإحكام. وهناك اتجاهان مختلفان متناقضان يتحكمان في عالم الفنون ويسيطران عليه. أما الاتجاه الأول فيهدف إلى تأمين عوامل الزخرفة والتصعيد والروعة، في حين أن الآخر يتوخى عوامل البساطة والتوفير والاتزان. وفيما نرى أن الواحد يسعى للتأثير في وفرة الشكل وكثرة الثروة المادية الغزيرة فيه، فإن الآخر يعمد إلى التأثير عن طريق الاقتصاد في المادة والإجمال في التعبير. وبينما الأول يمضي في تجاربه الجمالية إلى أقصى حدودها ويسعى للتعبير عن كل شيء، فإن الآخر يترك معظم القسم دون تعبير الآخر ويعتمد على شتى الرموز للتعبير عن نفسه. بعبارة أخرى، الأول يعتمد على وفرة إنتاجه وثرائه، والآخر يخلق أجواء رحبة لطاقة كل خيال.

إن هذين الطرازين يعبّران عن مثالين متكاملين من مُثُل من الحياة. وإننا نشاهد الفن يبلغ أقصى درجات الكمال والإتقان عندما يتوفر التوازن بين التيارات التخيلية والفنية المتضاربة. وواقع الحال أن الحياة تكتسب معاني جديدة من التسامي والتفوّق حينما يتسنى للعقليات الممثلة في هذه المبادئ أن تندمج معاً لخلق فلسفة وثقافة جديدتين. إن الأساليب الفنية الهندوسية والعربية توفر عناصر متتامّة لا يخلق انصهارهما فناً عظيماً فحسب وإنما ثقافة عميقة دائمة.

3 - وجهات النظر

لقد سبق لنا بينا أن عمليات الاتصال والاندماج التي تمت بين الثقافتين الهندوسية والإسلامية في جنوبي الهند قد أدت إلى قيام فلسفة جديدة. ولا غرابة أن تكون الميادين الفكرية هي أول من تأثر بهذا التصادم. المعرفة في بداية الأمر تجذب العقل أكثر من القلب. والحقائق التي يتقبلها العقل لا تؤثّر على السلوك على الفور. بل توجد هناك فترة زمنية ما بين تسليم العقل بالحقائق واستيعاب العاطفة لها. لكن حينما تترسب حقيقة من الحقائق في العقل الواعي، فإنها تأخذ في توجيه مشاعرنا وعواطفنا، وتؤدي بالتالي إلى محاولات وتجارب جديدة في عالم الفن. وحيث إن هذا التطور يحتاج إلى اتصال متقارب وطويل، نجد أن الفن الهندي الإسلامي ترعرع في الجنوب على الخصوص.

كنا قد ألمعنا في فصل سابق إلى عمليات التنسيق التي وقعت بين طرازي الفن المعماري الهندوسي والإسلامي، وما نشأ عن هذا التنسيق من قيام هندسة معمارية هندية. ولعل ترانيم وأناشيد «فيشنافا» Vishnava في إقليم البنغال توفران لنا دليلاً آخر على عمليات الاستيعاب والتأليف. والمعروف أن العناصر الضرورية لقيام فن رفيع كانت تتوفر لإقليم البنغال منذ القدم، وقد قام الإسلام لدى دخوله الهند بعملية تفاعل كيمياوي فدمج هذه العناصر المختلفة وصهرها وخلق منها ترانيم «فيشنافا».

ولا مشادة أن أشعار «فيشنافا» جاءت معجزة من معجزات هذا التنسيق، لأنها جمعت بين عقلية نشيطة وثّابة وفلسفة مستكينة مستسلمة تقوم على الوهم. إن الروحانية التي كثيراً ما تعتبر الطابع المميز للعقلية الهندوسية، تقوم فيما تقوم عليه على الاستسلام والاستكانة. ولا مندوحة للمرء من أن يسلم بأن اتصال الإسلام بالهندوسية في بادئ الأمر أحدث ثورة في نفوس

الهندوس. على أن هذه الثورة تلاشت، ليحل محلها الاستسلام والهزيمة. وهي التي تتجلى لنا بشعور عدم المبالاة بالدنيا والاهتمام بها. وقد هدف رد الفعل القائم على التجرد إلى تمجيد الروح عن طريق التقليل من أهمية المادة. على أن هذا حمل الشعب الهندوسي على تناسي الأمجاد التي حققها السلف في الأمور الدنيوية.

وإنه لمن النادر حقاً أن نعثر في هذه الأيام على سجلات عن تقاليد الروعة الملوكية الهندية وبهائها. ذلك أن موضوع التوسّع والفتوحات الهندية هما اليوم مجرد مادة للأساطير. وآية ذلك أن النشاط المتعدد النواحي الذي كان يرهق العقلية البشرية، وهو من خصائص الحياة في الهند القديمة، ما لبث في القرون الوسطى أن تحوّل إلى نوع من التجرد والتقشف الهزيل. على أن ذلك ليس بمستغرب، فالعقلية الميّالة للتجرد هي طبيعة ملازمة للسيطرة والفتوحات الأجنبية. فالمجتمع الإسلامي الذي يعتبر مبدئياً مناهضاً للتجرد وحرمان النفس ما لبث بعد احتلال البريطانيين للهند أن اكتسب هاتين الميزتين. وقد عمد إلى ترويج مبدأ الأجر والثواب في الحياة الآخرة لتغطية خيبة الأمل والهزيمة في الدنيا. كما أخذ الناس يمنّون أنفسهم بسعادة الآخرة تعزية وسلواناً لهم عن نكبات دار المحن التي كانت تحل بهم يومياً.

إن روح التجرد وحرمان النفس كان لها فوائدها الاجتماعية بالنسبة إلى ضوابط الثقافة التي وجدت في البلاد قبل العهد الإسلامي. ذلك أن الاهتمام بالذات المطلق حمل الشعب بألا يحفل بالفوارق المادية. ولذا فإن ذلك النفر الذين حكم المجتمع عليهم بالشقاء في دنياهم رضوا بمصيرهم المحتوم. وعندنا أن عقلية حرمان النفس هذه هي من الأسباب التي أقعدت الهنود عن الثورة ضد الجور والظلم الإجتماعي. كل إنسان خليفة لبراهمان، وحيث أن براهمان هو الذات المطلق فلا مكان ولا زمان ولا صورة له. فأصبح

من الممكن أن يهمل أو يعلل ازدراء الفرد في دار المحن هذه بأنه خيالي ولايبقى له أثر حينما تنتهي هذه الحياة المعبورية.

ومن تأثير الإسلام على فلسفة التجرد وحرمان النفس هذه أنه هزها من أسسها. ذلك أن الإسلام عني مبدئياً بالأمور الدنيوية وأنه عادل تماماً بين أهمية الدنيا والدين. أضف إلى ذلك أنه حمل في طياته رسالة فعالة تقوم على الديمقراطية الاجتماعية التي لم تكن مقاومتها في وسع القسم الأعظم من الأنظمة والحضارات الاجتماعية أو السياسية السائدة. وعلّم الناس أن يلتمسوا الإخاء والمساواة في المعيشة اليومية وأنه لا يمكن رفعها إلى مستقبل بعيد في الآخرة. لقد كان الدين الإسلامي الحنيف قوة جبارة حطمت جميع القيود والعادات التي كانت تغل العقل البشرى. وقد تجاوب مع رسالته السامية المحروم والمظلوم وتعاونوا على نصرتها. وبفضل رسالة حرية الفرد هذه في حياته اليومية، تقدم الإسلام بسرعة لا تقاوم.

وإننا لنلمس في أسفار «فيشنافا» البنغالية مثلاً رائعاً على هذا الصراع وقوة تصميمه. أما هدف الأشعار الرئيسي فهو المحبة. ونظرتها إلى المحبة، هي تعبير سام عما تحقق من اندماج. فالمحبة ليست مجرد حالة مادية أو عقلية، كما أنها ليست مجرد شعور، بل هي مزيج من دوافع ورغبات ملحة حادة من العقل والحسم. وهي تمثل قوة الابتكار عند المجتمع أو الأفراد. وقد عجز أصحاب المذهب المنطقي عن أن يجدوا لها تفسيراً وتعليلاً، وأما ذلك النفر الذي يسعى لتعليلها على اعتبار أنها مجرد ضرورة بيولوجية فقد ضلّ السبيل. ولعل أحسن وسيلة لتفهمها تنحصر في النظر إليها كمغامرة يقوم بها الفرد من واقع ماضية وحاضرة نحو مستقبل غامض. على أن الحيوية والنشاط هما الأساس والدعامة لهذه المغامرة. فكلما كانت هذه المغامرة أكثر جرأة كان هذا النشاط أو الحيوية أشد صفاء ونقاء. ومن شأن هذا النشاط أنه يحرر نفسه عادة من قيود الهدف. ويعبر عن لذات الحياة

بحد ذاتها. كما أن مظاهر هذه الحيوية المنطلقة المتحررة التي لا تعرف القيود لا تخرج عن كونها مجرد لهو وعبث.

إن كل المحاولات لتحليل المحبة تنتهي بنا إلى نتيجة واحدة هي أنها نوع من اللهو والعبث. وقد عبرت أشعار «فيشنافا» عن هذه الفكرة بأنها «لي لا» Leela التي تمثل الروح الحائرة غير المستقرة في عبثها ولهوها. وهذا يمثل الحيوية والنشاط في أقصى معاني صفائها ونقائها. على أننا من ناحية أخرى نلمس في «لي لا» أثراً من آثار الاستكانة الفكرية القديمة. ونجد خلال الأحاسيس والمشاعر المتنوّعة، وأن الشاعر يعتبر دائماً الموضع المنفعل للحب. فهو المعشوق في جميع الحالات ولا يقوم بدور العاشق ولو مفر منه، نظراً لأن علاقة الروح البشرية بالحقيقة النهائية تقوم على الاستسلام والخضوع. ولكن هذه النظرية قائمة على الوهم. وما تحسه التجربة العامة هي أنه لا بد للروح البشرية أن تسير على نفس الطريقة في طلب اللامتناهى. وأما من وجهة نظر العقل السليم فهذا الطلب ينحصر بالرمز ويقوم على أساس مجازي. وعندما يتجرد هذا السعى من طبيعته الرمزية ويصبح الحقيقة الوحيدة للروح، فإننا نبلغ تلك الرتبة التي لا يمكن معها التمييز بين التابع والمتبوع. ولا يعود السعي معها مقيداً بالاعتبارات المنطقية القائلة بخضوع الروح البشرية ووقوعها تحت حصر التعيين والتحديد. وفي هذه الحالة تنعدم الفوارق بين العاشق والمعشوق. أما في أشعار «فيشنافا» فإن هذه الفوارق قائمة مستمرة مما يثبت أن فلسفة الوهم لم يُتغلب عليها بعد. ومن الناحية الأخرى، فإن اهتمام الشاعر يتركز في المحبة المجسدة في «لي لا»، أو النشاط الخالص. وفي هذا ما يقوّض أركان النظرية القدرية للحقيقة.

ويعتبر هذا الاندماج نتيجة للتنسيق الذي وقع بين وجهة النظر الإسلامية والهندوسية في التطلع إلى الحياة. إن المظاهر التي سبقت العهد الإسلامي

قد اصطبغت بطابع من فلسفة سفسطائية. ومثل هذه النظرية لا تفسح مجالاً كبيراً لتأكيد الذاتية ونموها، وتجعل الشعور بالفوارق بين الأفراد خافتاً. ولعل الفلسفة السفسطائية تفسر لنا قوة التحمّل عند الإنسان وصبرة على الإهانة وعدم المساواة. وعندنا أن الإيمان بنظرية بعث الإنسان بعد موته هو نتيجة مباشرة لهذا النوع من التفكير. وبينما تنكر نظرية البعث التقدّم من ناحية، فهي من ناحية أخرى تمحو الفوارق الدنيوية بتأكيدها وإبرازها لوحدة المخلوقات الحية وتساويها. إن نظرية كهذه تساوي بين البشر والحشرات والطيور لا يمكنها أن تحفل بتقدم الإنسان أو تفوقه على غيره من المخلوقات. أما الإسلام فقد أصر على هذا التفوّق وألح فيه، وأكد أن الانسان هو سيد المخلوقات. وأنه يسلم وجه لسيطرة الله فقط. وقد ردد فيشنافا هذه الفكرة في أشعاره عندما أكد أن الانسان هو الحقيقة العليا التي لا يعلو عليها أي شيء آخر.

أحطنا القارئ علماً فيما سبق بالدور الذي لعبه رواة القصص والشعراء المتجوّلون في نشر الثقافة في الهند القديمة. ولعل دورهم هذا يفسر لنا وفرة الفلسفة بين مختلف الطبقات الاجتماعية. ومن القرائن التي تقيم البرهان على سلطتهم ونفوذهم انتشار الآداب «البُنتية» في العهد الإسلامي. وما كان راوي القصص بين الهندوس لتعوزه أو تنقصه المواد اللازمة لقصصه. ذلك أن كان يعتمد في مصادره على ملحمتي راماينا ومهابهارتا والأساطير البورانية لإبهاج الناس وتسليتهم وتهذيبهم. وهذه في الواقع هي الطريقة التي نفذت من خلالها تعاليم الديانة الهندوسية إلى عامة الشعب. وبفضل ما درج عليه راوي القصص من تصوير أبطال الأساطير الهندوسية ووقائعها، أصبحت هذه من المواضيع المتداولة في اتصالاتهم الاجتماعية أو الثقافية المعتادة بين جمهرة الشعب.

كان راوي القصص المسلم أقل حظاً، نظراً لندرة الأساطير والقصص

فـي الدين الإسلامي الفطري. وطبيعي أنه كان فـي مقدوره أن يروي قصصاً تهذيبية، ولكن الرجل العادي لا يجد كبير عزاء وتسلية فـي الأدب الذي يهذب فقط. أما الاعتماد على التعليم الديني والوعظ فلم يكن مستحسناً نظراً لأنها من المواضع الجافة. والمعجزات نفسها ما يلبث الذوق أن يمجها ويعافها إذا لم يلازمها شيء من الطرافة والملاحة كغطاء على اللب الديني. أما الأساطير الهندوسية فحافلة بالمغامرات والمواعظ والمؤامرات وحوادث الخيانة والغدر والوفاء وغيرها من صفات متضادة ملازمة للطبيعة البشرية المعقدة. على أن راوي القصص المسلم لم يكن ليعتريه اليأس أو يتسرب إلى نفسه الوهن لقلة ما يتوفر من المواد الأسطورية في الآداب الإسلامية. فأطلق العنان لقريحته لتخترع وتبتكر ما شاء له الخيال.

ربما كان «أكبر»، كشأنه فـي الميادين الأخرى، أول من قام بتجربة منظمة فـي هذا المضمار. وربما بدأت هذه التجربة قبل عهده ولعل الواقع كذلك. ولكن يجب ألا يغرب عن البال أن المبتكر قلما يكون مجدّداً فـي الواقع. فهو فـي غالب الأحيان ذلك الرجل الذي ينجح حيث يخفق الآخرون ممن سبقوه إلى ذلك. ومهما كان الأمر فيقولون إن أكبر كان أول من كلف نديمه «بيربل» Birbal بوضع نسخة إسلامية عن ملحمة المهابهارتاا. وكلنا لعلنا نعرف النتيجة المسليّة التي تفتقر قليلاً إلى الذوق. فالمعروف أن بيربل، بعد أن استفاد وتمتع بما أغدقه عليه الإمبراطور من عطاء لقيامه بهذه المهمة، جوبه يوماً بسؤال قضى على هذا المشروع كلياً. وكان هذا السؤال «إن المهابهارتا قد نسبت إلى «دروبادي» Draupadi بأنها تزوجت من خمسة رجال. فكم من الأزواج يقبل أكبر لزوجته الملكة فـي المهابهارتا الجديدة؟ ومَن سيحظى بهذا الشرف من ندمائه؟

وقد تكون هذه الرواية من نسيج الخيال وفـي الغالب هي كذلك. لكن الأساطير تخفـي فـي طياتها شيئاً من الحقيقة، والرواية تعطينا فكرة

عن عملية واقعية كانت دائمة الاستمرار. ولا بد أن المسلمين شعروا من ناحيتهم بضرورة الاتصال بالهندوسية في عرينها. ولما كانت مهمة راوي القصص من الأهمية والتأثير بمكان، سرعان ما انبرى القصاصون المسلمون والواعظون إلى امتهان هذه الحرفة منافسة لزملائهم الهندوس في هذا الميدان. فإذا تغنّى الهندوس بمواقف «رام» و«لكشمن» الغرامية واعتزوا بإخلاص أحدهما للآخر، أخذ المسلم يتغنى بمآثر الأمير حنيفة وهو الأخ الأسطوري لحسن وحسين. وأصبح «علي» بطلا أسطورياً وحشدوا في شخصه الأدوار التي مثلها «بهيما» Bhima و«أرجونا» Arjuna، وذهبوا في تقليدهم للرواة الهندوس حداً جعلهم يبتكرون شخصية جديدة تعادل شخصية «هانومان» Hanuman. ولما كان هذا القرد الإله وهو الذي عرف بوفائه وإخلاصه لراما طول حياته وقد خلدته الأساطير لوثبته الجبارة التي قيل إنه عبر بها البحار ليشعل النار، فيما بعد، في قلعة «لنكا». فإن رواة القصص المسلمين جعلوا الشخصية الجديدة التي ابتكروها «الأمير أمية» تحاكي «هانومان» في شجاعته فنسبوا إليها أنها عبرت البحار بقفزة واحدة، وأضفوا عليها ضروباً نادرة من الفروسية. ويلاحظ حتى في يومنا هذا أن الآداب «البانتية» بما تحتويه من روايات البطولة والضحك، تحتل بين سكان القرى نفس المكانة المرموقة، وتمثل نفس الدور الذي تمثله «الرامايانا» والمهابهارتاا، و«البورانا» في طبقات مماثلة بين الهندوس.

أما المحور الديني لهذه القصص فهو نفسه في مختلف أرجاء البلاد، وإن كانت مادته تختلف باختلاف الأقاليم. وعلى نفس النحو الذي ذهبت فيه الأشعار السكسونية القديمة إلى تصوير المسيح بأنه فارس مغوار يعتز بالقتال كغاية في حد ذاتها، كذلك الحال في الهند، نجد فيها الأبطال الأسطوريين تتغير صفاتهم باختلاف الأقاليم. ولعل عبارة تغيّر صفاتهم غلو في الكلام. فالحقيقة أن الهيكل العام لهذه القصص يبقى هو نفسه

دون تغيير إلا من بعض الصبغة التي تهدف إلى جعل البطل يمثّل وجهة النظر المحلية. ولعل هذا ما يجعل صورة «راما» كما رسمتها الأسفار الشعبية البنغالية تختلف عن مثيلتها التي رسمها «تلسي داس» Tulsidas. وكذلك الحال في كرشنا، فهو حسب ما صوره البنغاليون عصارة انتزعت من صميم البنغال. ويلاحظ نفس الاتجاه نحو الإقليمية بالنسبة إلى أبطال القصص الشعبية البنغالية شخصية انتزعت من صميم البيئة البنغالية.

على أن أوجه التشابه بين القصص الشعبية في مختلف الأقاليم لا تجاري في طرافتها أوجه التباين القائمة بينها. ذلك أن الأخيرة تعكس التاريخ الاجتماعي الخاص لكل إقليم من الأقاليم وتكشف لنا عن العادات والتقاليد التي نشأت في أجوائها وظروفها الخاصة. ولعل هذا ما يفسر تردد لفظة الرحلات في الأغاني الشعبية في البنغال الشرقية وتكرارها. فبطل القصة هناك تاجر أكثر منه ملكاً. هذا رغماً عن أن الأساطير في أغلبية الأقاليم الأخرى في الهند تدور وقائعها حول أمير من الأمراء أو فارس من الفرسان. وكانت ولاية غجرات هي الوحيدة التي شذّت عن هذه القاعدة. ولكن شذوذها هذا له أسبابه ودوافعه المثيرة. فقد تروي هذه القصص حكاية أمراء من التجار حشدوا سفنهم، وركبوا البحار طلباً للتجارة. وتتحدث عن مغامراتهم في البحار وعبر البحار في البر، ومصير الزوجات والبنات اللواتي خلفوهم وراءهم، وتتحدث أيضاً عن ثروة مفاجئة هبطت عليهم أو نكبة مالية حلت بهم، والراوي في كل ذلك حر يتلاعب بمشاعر مستمعيه كما يشاء. فهو تارة يشبع في نفوسهم أقصى درجات الأمل وتارة أخرى يطوح بهم إلى هوة سحيقة من اليأس والقنوط. وكثيراً ما يوفق إلى حمل هؤلاء القرويين الذين ما عرف عنهم أنهم غادروا قراهم قط أن يتلذذوا ويستمتعوا بنبذ عن المغامرات البحرية.

وأحياناً يمثل هذا الراوي دور المؤرخ للعادات المعاصرة، إذ ليس بخافٍ أن

التأثيرات الاجتماعية التي أحدثها الفتح الإسلامي لم تقتصر على العواصم أو الدوائر العسكرية أو الطبقات الاستقراطية. فالقرى بدورها قد تعرضت إلى أحوال مثيرة ممتعة، فما كان من الراوي إلا أن استغل هذه الأحداث لمصلحته، وراح يُعمل فيها يد التكييف والتهذيب لتلائم الأوضاع والأغراض التي يريدها. فكان يعمد أحياناً إلى شن الحروب بين أبطال أساطيره ويكسبها أهمية خاصة بما يضيف عليها من أحداث ووقائع جديدة. وطالما اختار مواضيع دينية فسلط عليها أضواء من فنه لتصبح أكثر انسجاماً مع مقتضيات العصر وضُمّخت العادات المتغيرة بطريقة الفنون الخالدة.

ألمعنا فيما سبق إلى تفاعل العناصر الهندوسية والإسلامية في تطور الثقافة الهندية. ونظراً لطبيعة الحال فإننا لم نأت على وصف كامل وافٍ لهذا التفاعل. والمعروف أنه عندما يتصادم تياران عنيفان، فليس هناك من مجال لهذا أو ذاك التيار أن يبتلع الآخر. وجل ما يحدث أنهما يندمجان معاً ليخلقا تياراً جديداً. ومن الصعب أن نقرر مدى مساهمة كل منهما في بعث التيار الجديد. وتتكرر العملية نفسها حيثما يتم الاتصال بين مادتين حيتين. فقد ينجم هذا الاتصال عن مولود يجمع بين ميزات وطبائع الوالدين، وهو مع ذلك فرد فريد. والذي يحدث أن التيارين ينصهران معاً تماماً، ولا يمكن لأي عنصر أن يبقى على حاله في المركّب الجديد.

وهذا ما حدث بالفعل في التطور الثقافي في الهند خلال العصور الوسطى. فقد تلقحت القيم القديمة بقيم جديدة، كما أن روحاً جديدة تسربت إلى المواضيع القديمة. كما تعرضنا من ناحية أخرى في هذا الكتاب إلى التغيرات التي طرأت على وجهات النظر العقلية والإنجازات في ميادين الفن والهندسة المعمارية والشعر، على أننا في ذلك لم نستعرض الموضوع من جميع نواحيه. ذلك لأن قصة التنسيق والاندماج تتكرّر في جميع نواحي الحياة. وغني عن القول أن قيام لغة جديدة من اللغات تتطلب وحدها

دراستها طول العمر. وعندنا أن التغييرات التي طرأت على فنون الموسيقى والرسم الهندية، تشكل موضوعاً طريفاً لمثل هذه الدراسة والتحليل.

إن الاتجاه نحو الاندماج ليس من الأمور الحديثة العهد. ذلك أنه كان من العوامل المميزة للثقافة الهندية القديمة على السواء. وكانت عمليات التنسيق والتوحيد ميسورة ممكنة في العصور الوسطى في الهند نظراً لحيوية وفعالية الثقافات التي ساهمت في فنها. وبديهي أن العناصر غير الحية لا يمكنها أن تتفاعل أو تندمج معاً، مهما كان الاتصال بينهما وثيقاً. ذلك لأن الموارد أو العناصر الحية هي وحدها جديرة بالتفاعل وخلق وحدة جديدة. يستخرج من كل ذلك أن المغامرة التي قامت بها الروح البشرية في هذه الأرض القديمة منذ آلاف السنين ما زالت مستمرة لم تتوقف. ويلاحظ أن الثقافة الهندية خلال هذا العهد القديم قد تعرضت إلى تغييرات هامة. وكانت كلما اصطدمت بثقافة أجنبية مزدهرة استوعبتها، فازدادت بذلك ثراء على ثراء. على أن عمية التنسيق مستمرة متصلة حتى يومنا هذا. ومن المقدر لها أن تحقق نتائج أجدى في ميدان التفكير البشري بفضل تغلب الإنسان على حواجز الزمن والمسافات. وصفوة القول إن مقدرة الثقافة الهندية واستعدادها للتجدد والنمو اللانهائي هما السر الكامن وراء وحدتها واستمرارها.

الخمير العصري

إن القدرة على الاستيعاب والتنيسق لازمت الروح الهندية وميزتها خلال العصور المختلفة التي مرت بها. وقد شاهدنا أثرها وعملها في الأفكار الدينية والمؤسسات الاجتماعية في الهند القديمة، وهي تتجلى بنفس القوة في الجهود المتواصلة التي هدفت إلى الوفاق بين الاتجاهات المختلفة التي قامت في العصور الوسطى. فالمعروف أن حضارات متباينة التاريخ والأسس وضعت للصهر في بوتقة مشتركة واحدة. وقد تضافرت عبقريات الثقافات المتضاربة واتحدت لتبعث إلى حيز الوجود طرازاً ثميناً جامعاً في غاية من الجمال. وقبل أن يكتمل الطراز أدخلت إليه عناصر جديدة جاءت من ناحية غير متوقّعة. وواقع الحال أن العالم قد عبر مرحلة تاريخية جديدة عندما بدأت الأمم الأوروبية البحرية تظهر على مسرح السياسية الهندية.

لعل أهم العوامل المميزة للعصر الحديث استخدام الإنسان المتزايد للعلوم بقصد التغلب على قوى الطبيعة. ولقد ابتدأت هذه العملية حوالي القرن السابع عشر وأخذت تنمو وتتطور بسرعة فائقة على مر السنين. وتمكن الإنسان إلى حد كبير من التغلب على حواجز المسافات والعوائق المادية، وذلّل أنواعاً جديدة من القوى لخدمة أغراضه ومصالحه. والواقع أن النجاح الذي صادفه في هذا الصدد قد خلق أوضاعاً وأحوالاً جديدة في حياة البشر. وقد كان التاريخ في الماضي مقتصراً على الأوضاع المحلية، لأن صعوبة المواصلات كانت تحول دون تنقل الأفراد وتسرب الأفكار، ما ترك الثقافات المحلية تنمو في جوّ من العزلة. أما اليوم فقد تبدلت الأحوال وأصبحت مثل هذه العزلة مستحيلة. فكل ثقافة من الثقافات ومنطقة من المناطق لا مندوحة لها من أن تتأثر بغيرها وتؤثر فيها كل ثقافة ومنطقة أخرى.

لم يكن من مفر للهند الحديثة أن تصبح مركزاً لتفاعل القوى والعوامل المتعددة. وقد تسنى لها بفضل العلم تغيير الأوضاع والأحوال القديمة، وإن كانت هذه الأوضاع جنبت الهند في السابق كثيراً من المتاعب لانعزالها

جغرافياً ووقوعها في إحدى زوايا القارة الأوروبية الآسيوية (الأوراسية). والأسلوب الذي تم بموجبه اقتحام هذه القوى لها وإمعانها في تأكيد هذا التحول وإبرازه، كان جديداً في بابه. ذلك أن اتصالاتها السابقة بالعالم الخارجي جاءت عبر الطرق البرية، فالأجناس والقبائل التي اجتاحتها إنما تمكّنت من شق طريقها إليها عبر الطرق البرية، وكذلك فإن الإمبراطوريات التي أقامتها كانت، باستثناء فترة وجيزة من التوسع ما وراء البحار، اعتمدت على الطرق البرية. وواقع الحال أن حكامها وأباطرتها قلما فكروا أو أدركوا أهمية القوة البحرية. فلا عجب في هذه الحالة أنها لم تقوَ على الصمود أمام أوروبا عند ما بعثت بأساطيلها وقذفت بها إلى شواطئها غير الحصينة.

لقد سبق للهند أن تعرضت إلى عدة غزوات وتمكنت بدورها من التغلب على الشعوب والأفكار الجديدة التي تحدتها. وما إن أفاقت الهند من غمرة هذه الهزات حتى انبرت لاستيعاب القوى الجديدة التي جرها الأوروبيون المغيرون في أذيالهم، ولعل الخمير الذي يسيطر على النواحي المختلفة من حياتها في الوقت الحاضر يقيم البرهان على الجهود التي بذلتها في هذا السبيل. والهند من ناحيتها تدرك أن الثقافات المختلفة بشتى أفكارها ومبادئها وأنواعها قد تقاربت في العالم العصري إلى حد وعلى وجه لم يعد لها معه إلا أن تتخير بين أمرين: فإما أن تتعايش مع الجميع، وإما أن تلقى مصير الجميع من الدمار بسبب الزيادة المريعة في أسلحة الدمار. إن تاريخ الهند الحديثة هو سجل للجهود التي تبذلها من جديد لخلق الوحدة من التباين والاختلاف وتحقيق التنسيق لنفسها والعالم أجمع.

في بوتقة الصهر

حينما ظهر الأوروبيون على مسرح السياسة الهندية كان الصراع القائم بين القوى المختلفة فيها قد اكتسب توازناً مؤقّتاً. وتشكّل طقوس العبادة التي كان يمارسها رجال الدين والصوفيون محاولة للتأليف والتوفيق في اتجاه معين. فيما شكل التخفيف من وطأة القيود الناشئة عن نظام الطبقات نفس المحاولات في اتجاه آخر. وكذلك فإن الاستقرار الإقتصادي والسياسي الذي نعمت به البلاد في ظل الحكم المغولي الزاهر دليل على ما حققته الهند أيضاً من توازن في هذين الميدانين.

ولكن هذا التوازن لم يكتسب الاستقرار، لأن طبيعة الأحوال لا تمكن عمليات التنسيق من الاكتمال. والمألوف المعتاد عند إدخال عنصر جديد أو وقوع تبدل نسبي في أهمية العناصر الموجودة أن يقع اختلال في التوازن، الأمر الذي يطبع الانقلابات الناشئة عنه بطابع ثوري. ويعتبر ظهور الأوروبيين في القارة الهندية حدثاً من الأحداث العظيمة، لا لأن الأوروبيين نقلوا معهم عناصر جديدة إلى المرجل الهندي فحسب، بل لما أحدثه ظهورهم من إخلال في قوى المجتمع الهندي. فقد نجم عن قدومهم انطلاق القوى الجبارة المغلولة التي تجمعت خلال قرون من الصراع والتنسيق. وكما يبدأ انهيار الثلج من الجبال بسبب سقوط الحجر الأخير، بدأت عملية تغيير لم تنتهِ بعد ولا يتسنى لأحد أن يعرف نتائجها.

كانت الطبيعة الهندية كلما اصطدمت بغارة جديدة سواء أكانت عنصرية أم فكرية، ازدادت مرونة على مرونة. ولعل هذا يفسر مقدرتها على أن تستوعب في عملية تنسيق واحدة عدداً من المذاهب والمعتقدات والعادات ووجهات النظر المختلفة. على أن تأثير الغرب عليها اختلف من جهات مهمة عن تأثيرات الغارات السابقة التي تعرضت لها. وكانت الأفكار

والمؤسسات التي تسربت إليها قبل دخول الأوروبيين قد جاءتها عن طريق الشعوب التي قدمت إليها للاستيطان فيها. ومع أن هؤلاء وقفوا موقف المعارضة من كثير من العناصر التي جابهتهم في الهند، إلا أن مقاومتهم هذه سرعان ما خفت ووهنت تحت تأثير غزارة سكان الهند وقوة واستمرار ورسوخ تقاليدها وعاداتها. ربما أحدثت هذه الشعوب الدخيلة بعض التغيير والتبديل في الهند. إلا أن المجموعة الهندية بقيت سليمة ولم تتحول أو تتبدل، وقد وجدت هذه الشعوب الدخيلة نفسها مع مرور الزمن تذوب وتفقد ذاتيتها في محيط الهند البشري. وكان المسلمون هم الذين انفردوا من بين هذه الشعوب المغيرة في مقاومة تيارات الاستيعاب الهندوسية، إلا أنهم لم ينجوا من تأثيرات الثقافة الهندوكية، الأمر الذي جعلهم بالتالي يختلفون عن بقية العالم الإسلامي. وقد نسلم بأنهم قد أثروا على سكان المدن من الهندوس، لأن الحياة الريفية في الهند بقيت تسير على الأساليب القديمة التي قلما طرأ عليها أي تغيير.

على أن مجيء الأوروبيين إلى الهند قد بعث فيها ظروفاً وأحوالاً جديدة، ولم يروَ عن هؤلاء الأوروبيين أنهم كانوا يعتزمون استيطان البلاد. ومع أن بعضهم قد بهرته روعة الحضارة الهندية، لكنهم سرعان ما حصنوا أنفسهم ضد تأثيراتها. وبقوا بمحض إرادتهم دخلاء أجانب، وآثروا أن ينظموا حياتهم على النظم المعروفة في بلادهم. وكانت هذه أول مرة تصطدم فيها الهند بحضارة آثرت العزلة والانطواء. وفي حين أن الأوروبيين كانوا على استعداد ليقدموا ويعطوا دون أن يأخذوا وينقلوا، فإن الهنود من ناحيتهم وإن لم يهدفوا للتأثير على أحد، إلا أنهم كانوا ينفرون من أي محاولة للتأثير عليهم. وبدا كأن حضارتين مغلقتين قد ظهرتا على التربة الهندية. ومع ذلك فإن انعدام العلاقة بين شيئين هو في حد ذاته إيذان بقيام علاقة ما، ومهما كان الأمر، فإن انعزال الغربيين لم يكن كاملاً.

وعلى ذلك فإن التفاعل بين الغرب والهند كان أمراً لا مفر منه، على أن هذا التفاعل اقتصر في بادئ الأمر على النواحي المادية. وكانت الاتصالات قليلة إلا في الميادين التجارية. ولئن تبادل الهنود والأوروبيون البضائع، فإن الفكرة الطيبة لم تتبادل. على أن هذه الأحوال لا يقدر لها أن تستمر طويلاً، وعلى الإنسان وإن يكن في فطرته ذا نزعة مادية إلا إنه لا يخلو من قيم وخصائص أخرى. الاتصالات التي تبدأ عادة عن طريق التعامل المادي لا تلبث أن تخلف شيئاً من الاتصال والتقارب الإنساني، وهذا ما حدث بالفعل مع الأوروبيين الذين قدموا إلى الهند. وقد ساعدت المصادفات التاريخية في هذه العملية. ومن المفارقات أن ذلك النفر من الأوروبيين الذين أموا البلاد الهندية تحت تأثير الإغراء التجاري، مكثوا فيها وأقاموا ليحكموها، ويلاحظ أن العلاقات السياسية اقتحمت العلاقات الاقتصادية وطغت عليها. وإنه ليس من الممكن تجريد العلاقات الاقتصادية المحضة عن نواحيها الإنسانية بصورة قاطعة. وعندما تتعزز العلاقات الاقتصادية بالروابط السياسية يغدو من المتعذر قصر التعامل على النواحي المادية.

كانت الهند عندما أمّها الأوروبيون بحكم توسعهم التجاري تنفض عن نفسها غبار مرحلة من مراحل الاقتصاد الريفي. فقد كانت العائلة إلى ذلك الحين المحور الذي تدور حوله حياتها. وحتى يومنا هذا فإن التفاعل الاجتماعي في الهند يدور ويتركز إما في الفرد أو العائلة. ومع أن الهنود فرادى يعتبرون من أنظف الشعوب في العالم، إلا أن آرائهم حول النظافة الاجتماعية مدعاة للرثاء. فهم على شدة اهتمامهم بنظافتهم قلما يشعرون بقذارة البيئة التي يعيشون فيها. وفي مثل هذا الجو من الأنانية والشعور بالذات بدأ الغربيون يتدفقون على البلاد برأسماليتهم المتزايدة وما لازمها من وعي اجتماعي معقد.

وكان لا مفر لنظام الحياة في الهند، في هذه الحالة، أن يتعرض لتغيرات عميقة ذات أثر بعيد. والواقع أن ثورة صامتة غير مرسومة كانت

قد اجتاحت المجتمع الهندي خلال القرنين الأخيرين. وكان لانهيار القيود القديمة وتداعيها أن أنكر الناس القيم القديمة. فقد تغيّر هيكل المجتمع نفسه. والفئات الاجتماعية التي كانت مسيطرة في القرن الثامن عشر قد تقلص ظلها وأصبحت اليوم مهملة في المجتمع. وإذ نسوق مثالاً على الانقلاب الاجتماعي الذي وقع نقول إن الطابع الإسلامي كان قبل عام 1774 يسيطر على إقليم البنغال من النواحي الاقتصادية والسياسية والتعليمية. ولقد ذهب «السير وليم هانتر» Sir William Hunter إلى حد القول بأنه كان من ضرب المستحيل في ذلك الحين أن تجد مسلماً من عائلة معروفة يشكو من الفقر أو البطالة. ولكن تغير كل ذلك في مدة لا تتجاوز السبعين عاماً. وكان للسياسة التي سار عليها «وارن هيستنجز» Warren Hastings من الاستغناء عن موظفي محكمة الدخل المسلمين والاستعاضة عنهم بموظفين هندوس أن بدأت عمليات الإفقار التي أسرعت في تحقيق غاياتها الإجراءات المتصلة بتثبيت إيرادات الأراضي وغير الأملاك ودعاوى الاسترداد. أما الأولى فقد حرمت أكثر العائلات من أصحاب الملكيات من أراضيهم. أما النفر القليل من المسلمين الذين فازوا بجلدهم من الإجراءات الأولى فقد جردوا من كل شيء بفضل التدابير الثانية. وكانت خاتمة الإجراءات الانقلابية الأوامر التي أصدرها «مكاولي» للاستغناء عن اللغة الفارسية وإحلال اللغة الإنجليزية محلها. وعلى رواية السير ويليم هنتر، أصبح من المتعذر على المسلمين من ذوي المكانة الاجتماعية أن يحصلوا على عمل يرتزقون منه أو يجمعوا ثروة. وهذا الانقلاب لم يقتصر على طائفة من الطوائف أو على ناحية معينة من نواحي الحياة. فقد تعرضت القيم والمعتقدات القديمة بأسرها إلى التغير. كما أصبحت المعتقدات والقيم موضعاً للتحدي، ولذلك فإن المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية لم تكن أوفر حظاً، فقد أخذت بدورها تتداعى وتنهار بسرعة مدهشة. فوقعت الهند في عين بوتقة

الصهر. والواقع أن الأنظمة الاجتماعية القديمة قد اختلّت وقام مقامها أنظمة جديدة لم يعرف لها مثيل في الماضي، وشهدت البلاد انضمام المسيحية الغربية المقاتلة إلى تلك المجموعة الغنية من الديانات الهندية. وانبرى جماعة من رجال الإرساليات المسيحية يعملون جادين للتأثير على عقول الناس والتغرير بهم، حيثما أخفقت محاولاتهم لرد الأهلين عن دينهم. والواقع أن الروح الأوروبية التي لم تعرف الاستقرار أخضعت كل ما جاء في طريقها إلى عملية من التمحيص والتدقيق. وفي حين أن ظروف الحياة المادية قد تغيرت وتبدلت من الأعماق، فإن دعامة التقاليد والمعتقدات بدورها قد تقوّضت من أسسها.

وكان لتغلب الإنسان على قوى الطبيعة وتسخيرها لخدمته أن زاد من هذا الانقلاب الثوري وسرعته. ويعتبر ذلك من أهم الأحداث التي وقعت في فترة القرن الأخير من تاريخ الهند. ولقد حاولت الهند خلال القرون الوسطى التوفيق ما بين العناصر المختلفة للثقافات والحضارات المتعددة المتباينة. ولعل الديانات والمذاهب الفلسفية الجديدة التي قامت في البلاد منذ القرن الخامس عشر تقيم البرهان على عمليات التوفيق. ويلاحظ أن الأساليب الاجتماعية الهندوسية في الشمال أقل صلابة أو صرامة من مثيلاتها في الجنوب، الأمر الذي يثبت مدى تعرض الأولى للتأثيرات الإسلامية. ولعل أهم أوجه الاختلاف بين هذا النظامين الاجتماعيين في الشمال والجنوب ينحصر في موقف كل منهما من نظام الطبقات، على أن عمليات التوفيق لم تأت كاملة مستوفية الشروط رغم كل المحاولات التي بذلت في هذا الصدد. وقد تضافرت عوامل المسافة وصعوبة التنقل واستحالتها مع صلابة الأنظمة الاجتماعية وصرامتها للحيلولة دون قيام تنيسق كامل موحد في مختلف أرجاء البلاد.

وقد تبدلت الأحوال عندما أصبحت التأثيرات المادية والدينية الناشئة

عن قدوم الأوروبيين ملموسة محسوسة، كما أن وسائل الاختلاط والتداول الاجتماعي تعرضت إلى انقلاب ثوري، وغدت مناطق البلاد والأراضي وأجزاؤها المختلفة أشد ارتباطاً بعضها ببعض. وشهدت البلاد بادرة جديدة من بوادر الضغط الجغرافي والثقافي، وازداد الاختلاط بين الأنواع المختلفة وأصبح أشد مضاء وحدة. وقد درج الناس في الماضي على تغيير مذهبهم دون أن يغيروا شيئاً من عاداتهم أو نظام حياتهم. وبدأ الناس الآن يغيرون نظام حياتهم دون أن يغيروا مذاهبهم. ولعل هذا ما يفسر لنا انعدام قيام أي تناسب البتة بين النفوذ الذي تتمتع به المسيحية في الهند الحديثة وعدد المسيحيين فيها.

أما ظهور الإسلام بما يلازمه من اهتمام بالأمور الدنيوية فقد انحصر تأثيره على الطبقة الأرستقراطية من الهندوس وسكان المدن. هؤلاء هم الذين تمكنوا بالتالي من تقرير اتجاهات المجتمع الهندي وميوله. وعلى الرغم من تصدّي المسافات الشاسعة وانعدام حركة الشعب بشكل جزئي، فإن تأثير الإسلام أحدث اضطراباً في هذا الجمود والخمول. ولما شقت المسيحية طريقها إلى الهند أبدى الهنود استعداداً أكثر للخضوع لسيطرتها، وتعليل ذلك أن تغلب الإنسان على حواجز المسافات والزمن بفضل ما طرأ على وسائل المواصلات والاختلاط من تحسينات، قلل مما كانت تعانيه البلاد من مشاكل المسافات والجمود إن لم يساعد على حلها. على أن التغييرات التي أحدثها قدوم الأوروبيين إلى الهند لم تقتصر على المدن والبلدات بل تسربت إلى المناطق الريفية. وهكذا نرى أن خميراً جديداً بدأ عمله.

ولو قدر للهند أن تجابه تحديات الغرب لها، وهي تنعم بالحرية والاستقلال، لتغير مجرى تاريخها خلال القرنين الأخيرين بصورة كلية. فلو كانت الهند حرة مستقلة لاستطاعت أن تصدر حكمها على الثقافة الغربية على أساس حيثياتها، فتقتبس عنها ما تقتبس وتعرض عما تعرض

عنه، ولبدأت عملية تنسيق تهدف لبناء حضارة عالمية من زبدة العناصر التي تتألف منها الحضارات المختلفة. على أن التاريخ شاء غير ذلك. ولم يقدر للهند أن تجابه الغرب وهي ترفل بحلل السيادة والاستقلال، وكان إخضاعها سياسياً للحكم الأجنبي أن اضطرها لقبول ما يفرضه عليها هؤلاء الحكام لا ما تمليه عليها مصلحتها وما تقتضية ظروفها وأحوالها. وعمد هؤلاء إلى ربط الهند بعجلة أنظمتهم الاقتصادية وفرضوا عليها قيوداً دون أن يراعوا في ذلك مصلحة الهند. وذلك أدى إلى اضطراب في تقاليدها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وفي بعض الأحيان إلى تلاشيها. ولم تبذل أي محاولات لإقامة وجهة نظر منسقة جديدة تجمع ما بين التراث القديم والعناصر الثقافية التي حملها الغربيون معهم. ولما كانت الطبيعة من ناحيتها لا تسمح بقيام فراغ وبقائه شاغراً فقد حلت المعتقدات والعادات المرتجلة غير المتماسكة محل أنظمة الحياة القديمة. وتلاشى القديم وذهب إلى غير رجعة، والحديث لا يزال في طور التكوين.

2 - الانقسام إلى شعبتين

يعتبر القرار الذي اتخذ لاقتباس وسائل التعليم الغربية في الظروف والملابسات التي سبق لنا أن ذكرناها من القرارات الهامة الخطيرة. وكان البريطانيون قد أقدموا على هذا القرار لتحقيق أغراضهم السياسية والتجارية العاجلة. ولم يدركوا حينذاك أنهم إنما كانوا في ذلك قد يبذرون بذور ثورة، قلما نجد لها مثيلاً في التاريخ. وقد يكون أن «مكاولي» تنبأ على وجه غير واضح ببعض نتائج هذه الإجراءات. ولكن حتى هو نفسه لم يكن يعلم بحقيقة ما عليه من نتائج. وقد تراءى له أنها ستؤدي إلى رفع مستوى الحياة الهندية، وبالتالي إلى إحلال القيم الغربية محل القيم الهندية. وبعض الهنود قد بهرتهم واستهوتهم الأفكار الغربية عند اتصالهم بها وتعرضهم لها للمرة الأولى. وكان هؤلاء يشاركون مكاولي الرأي بأن رفاً من المؤلفات الإنجليزية يعادل مجموع ما يتوفر للشرق بأسره من المعرفة والحكمة. وما كان لمكاولي ومعاصريه أن يدركوا أن ما حدث لم يكن مجرد محاولة لفرض لون من ألوان الفكر الأوروبي على العقلية الهندية، بل كان بعثاً للرّوح الهندية التي لم تلبث أن خلقت وابتكرت تيارات فكرية جديدة تصلح للشرق والغرب على السواء.

ومن العوامل التي ساعدت على استيعاب الأفكار الغربية، أنها لم تكن غريبة كلياً عن التربة الهندية. ذلك أن تسرب الأفكار اليونانية إلى الهند عن طريق العربية والفارسية كان قد هيأ العقلية الهندية لهذه الأفكار خلال حوالي ثمانية قرون. فلما عرضت تلك الأفكار عليها في قالب أوروبي كان إقبالهم عليها سريعاً. أضف إلى ذلك أن الثقافة الغربية هى مزيج من ثقافات مختلفة ضمت العبرية واليونانية في قالب حبك على وجه لا يقبل الانفصام. وكانت الثقافة العبرية ذات صلة بالتقاليد العربية. وحتى التراث اليوناني وصل إلى أوروبا عن طريق العربية. وقد قامت دلائل جديدة حية على مدى عمق التأثيرات العربية على الغرب نتيجة للمجادلات التي أثيرت حول الدور الذي لعبه علوم البديعيات الإسلامية في بعث فكرة «الكوميديا

الإلهية» في مخيلة الشاعر «دانتي». ويمكن أن لا يوافق أحد على آراء «آسين» Asin القائلة بأن أعظم الملاحم المسيحية شأناً قد استمدت وحيها إلى حد بعيد من الأفكار الإسلامية. ولكن الذي لا يمكن إنكاره هو تأثيرات الثقافة العربية الشاملة على الأفكار التي وردت في هذه المسرحية. على أن العرب بدورهم اقتبسوا الكثير من فلسفتهم وعلومهم عن الهند ونقلوها فيما بعد إلى أوروبا. على أن أوروبا قامت بالتالي، بنقلها إلى الهند على أشكال ونماذج مختلفة. فلا غرابة إذاً عندما اتصلت ثقافة الغرب بالهند أن أدت إلى تغير وتبدل في المسرح الهندي واستمرت إلى أن تم لها القضاء على الرواسب القديمة الواحدة تلو الأخرى.

ولا يمكن بحال من الأحوال تجاهل الدور الذي لعبه رجال التعليم والإرساليات المسيحية التي كانت تضم عدداً من المبشرين الذين كرسوا حياتهم لرد الأهلين عن دينهم إلى المسيحية. ولعل الأهم من تأثيرهم الديني كان تأثيرهم على التفكير الإجتماعي بين السكان في ذلك العهد، على اعتبار أنهم هم الذين كانوا يتولون تهذيب الشباب وتثقيفه. وإذا ما أخذنا بعين الاعتبار الأحوال والظروف التي أشرنا إليها، فإن رسالتهم القائمة على الثقافة الغربية أحدثت ثورة في عقول وأفكار جميع من شاءت لهم ظروفهم أن يتصلوا بهم. وقد أدى إقدام بعض الهنود على محاكاة الغرب في عاداته واقتباسهم لهذه العادات أحياناً إلى بعض تصرفات طائشة خرقاء، لكن اقتضتها وأوجبتها الظروف السائدة حينذاك. فتركوا كل شيء هندي، وراح المتحمسون من الشباب يعملون على طمس معالم ماضيهم العرقي والثقافي.

إن فترة التقليد الأعمى لم تعمر طويلاً نظراً لرد الفعل الذي وقع، وهو العامل الملازم للطبيعة البشرية. وكان النجاح الذي صادفته المدنية الغربية في بادئ الأمر قد استحوذ على العقول وسيطر عليها. وما إن أفاق الهنود من صدمة المفاجأة الجديدة، حتى أخذ تفكيرهم القديم يفرض ذاته من جديد، لأن حضارة عريضة قديمة كالحضارة الهندية ما كان ليكتب لها أن تمحى وتزول بهذه السهولة. وقد ساعدت الاحتكاكات والاصطدامات التي

وقعت بين الأمم الأوروبية في تبديد الفكرة القائلة بتفوق الأوروبيين. أضف إلى هذا كله أن تعرف الهنود على الأوروبيين قد ساعدهم على الوقوف على كثير من النقائص والعيوب التي تلازم الثقافة الأوروبية. وكلما ازداد علمهم وقفوا على وجود كثير من المساوئ السياسية والاجتماعية. وفسر ذوو النفوس المرهفة الحساسة من الأوروبيين الثقافة الشرقية من جديد. وكذلك وجد المتحمسون للغرب من الهنود أشخاصاً من الأوروبيين يمدحون الشرق. وقورنت القيم والمقاييس الغربية والشرقية في جو من التجرد والنزاهة. وقد ساعدت الأبحاث التاريخية في حفظ التوازن والعقل، عندما أثبتت وحدة الفكر البشري مهما اختلفت بيئته. والذي حدث هو أن مغالاة فريق من الهنود في الإعجاب بالحضارة الأوروبية انقلبت إلى النظر إليها والحكم عليها من عين نقادة بصيرة.

وأخذ التحمس الصبياني لكل ما هو أوروبى يزول مع مرور الأيام، على أن زواله هذا لم يتحقق إلا بعد أن أضر بنسيج الهند الإجتماعي. إن تحدي الحضارة الغربية للأفكار الهندية القديمة لم يكن ضاراً بل مفيداً. ذلك أنه أرغم الهنود على إعادة النظر في مشاكلهم وتحري الصواب على أضواء المعلومات الجديدة التي وصلت إليهم. ولكن من سوء حظ الهند أن هذه العملية قد تحققت على حساب الوحدة الاجتماعية. والثقافة الهندية القديمة قد تعرضت في الماضي أيضاً إلى تغيير وتبدل. ولكن طرأ التغير بالتدريج وبانسجام. فلقد أدّى تطور المجتمع وتكيّفه مع قافلة الزمن وتسرب الغربيين إلى الهند ـ أدى إلى تصدع وحدتها الاجتماعية. ولسنا ننكر أن أقلية ضئيلة من الهنود تجاوبت مع تحديات الغرب الجديدة، وذهبت إلى حد محاولة إنشاء أوروبا جديدة على أرض الهند. فتخلت عن التقاليد الهندية وأخدت تستمد وحيها من المبادئ الغربية. على أن الأغلبية الساحقة من الهنود تمسكت بأهداب ماضيها، وبقيت منيعة محصنة ضد تأثيرات الحضارة الجديدة.

ولعل الانقلاب الذي أحدثه مكاولي في ميادين التعليم مسؤول إلى مدى بعيد عن انقسام المجتمع الهندي إلى شعبتين. فقد فرضت مناهج التعليم الغربي على البلاد دون أن تؤخذ بعين الاعتبار أنظمة البلاد المحلية وحاجاتها.

فالمعروف أن الهند كانت تنعم بأنظمة تعليمية خاصة نمت وترعرعت على مر القرون. وقد روعي في وضع هذه الأنظمة المحلية أن تكون ملائمة لاقتصاديات البلاد القائمة على الزراعة، وتسد احتياجات الهند التجارية والصناعية والإدارية والحكومية. وإذا ما قيست هذه الأنظمة بالمقاييس التعليمية السائدة، فإنها لم تكن تقل تقدماً عن مثيلاتها في البلدان الأخرى. والواقع أن أغلبية رجال الإدارة البريطانيين كانوا يتوخون نظاماً تعليمياً يخدم على أحسن وجه مصالحهم القائمة على استغلال مرافق البلاد الطبيعية. ونظام التعليم القديم لم يحقق لهم أغراضهم، لأن ما يصلح للهنود ويناسبهم ما كان ليروق للحكام البريطانيين النافدي الصبر.

كانت التجارة هي العامل الرئيسي الذي أغرى البريطانيين وحملهم على المجيء إلى الهند. والمصالح التجارية بقيت هدفهم الرئيسي حتى بعد حصول السيطرة في البلاد. واستمر الجهاز الإداري يدار ويسير مدة طويلة لخدمة مصالحهم التجارية. وليتسنى للبريطانيين استغلال البلاد على أكمل وجه، كانوا بحاجة إلى وسطاء يتولون التفاهم بينهم وبين الشعب الهندي. وقد جابه البريطانيون نفس المشكلة في تسير أعمال الإدارة. لقد كان من السهل عليهم أن يقرروا السياسة العليا للبلاد. ولكنهم في تطبيقهم اليومي لهذه السياسة وتنفيذها كانوا بحاجة إلى الانتفاع من خدمات الرجال المحليين. وقد نجم عن ذلك قيام طبقة من المثقفين عملت على مساعدتهم في الميادين الإدارية والتجارية. أما مؤهلات أفراد هذه الطبقة فانحصرت في إلمامهم إلماماً جيداً باللغة الإنجليزية. وعلى ذلك عمد البريطانيون إلى إعادة تنظيم المناهج التعليمية لتسد حاجاتهم. وبدلاً من أن تهدف هذه المناهج إلى تنمية الشخصية في الهنود كان هدفها الرئيسي تمكينهم من إجادة اللغة الإنجليزية فحسب.

وكان من الطبيعي لهذا النظام التعليمي الجديد الذي يركز اهتمامه على الإحاطة الجيدة باللغة أن يؤدي إلى هبوط المستوى التعليمي. ولم يتيسر للهند خلال القرون الوسطى وضع قواعد منظمة للتعليم الفني والبقية الباقية من تعليم فني كان الهنود يتلقونه بفضل النقابات الحرفية والتدريب والمران ثم ما لبثت أن تلاشت. وكذلك فإن ما تعرضت إليه الصناعة

والتجارة الهندية من تضيق وضغط قضى على كل العوامل الحافزة للاهتمام والاعتناء بالتعليم الفني. وهكذا هبط مستوى مناهج التعليم وغدا مقصوراً على تنمية النواحي اللغوية. وفقد الهنود بذلك مهارتهم في الصناعات اليدوية.

وتركيز اهتمام النظم التعليمية في النواحي اللغوية باعد بينها وبين الإقتصاديات السائدة في البلاد، وإتقان اللغة الإنجليزية لا يعتبر عاملاً ضرورياً لأغراض الزراعة والتجارة. ومن ناحية أخرى وفر هذا الإتقان وظائف هينة سهلة إما في الحكومات أو في المؤسسات التجارية. ولذلك فإن الزراعة، وهي أهم موارد البلاد، ما زالت إلى اليوم في أيادي رجال لا يعرفون القراءة والكتابة. ذلك أن إقدام الفلاحين على التعليم يفرض عليهم التخلي عن الأعمال الزراعية. أما طبقة الفلاحين المتعلمين فتكاد أن تكون معدومة في الهند، لأن المزارعين الذين يسعون للأخذ بنصيب من التعليم سرعان ما يتركون الزراعة.

وكان لتحول النظم التعليمية الجديدة عن دعم جهاز البلاد الإقتصادي القائم على أسس زراعيه، أن عم الفقر وانتشر. ولعل من أسوأ نتائج هذا التحوّل أنه أحدث انقساماً جديداً في المجتمع الهندي. كانت المعاناة من الأحقاد الطائفية والإقليمية كثيرة. ومما فاقم من هذه الحالة وزادها سوءاً على سوء تلك الهوة السحيقة التي ما زالت حتى يومنا هذا تباعد وتفرق ما بين الطبقتين، المتعلمة وغير المتعلمة، بل الأوفق لنا أن نعبر عنهما كالأمية وغير الأمية بدلاً من المتعلمة وغير المتعلمة. لقد سبق لنا وأن شاهدنا كيف تمكّنت الهند من خلق ثقافة للشعب لم تعتمد على التعليم فقط. فإذا صح هذا القول في تلك العصور التي كان التعليم فيها منسجماً مع حياة البلاد فهو أكثر انطباقاً على عهد السيادة الأجنبية. وقد استمر التعليم في الحقب الماضية وما زال إلى حد بعيد فارغاً من مقتضيات الحياة الهندية ومسخراً لخدمة الاقتصاد الأجنبي القائم على الاستغلال. إن تباعد الأساليب التعليمية الحديثة عن واقع الحياة الهندية ما زال حقيقة ملموسة تهدد حياة البلاد بالأخطار.

إن الطبقات الجديدة من المتعلمين تستمد أفكارها ومبادئها من الغرب، كما أنها ضمنت أبواب الرزق عن طريق اتصالاتها بالبريطانيين بشتى الوسائل. وقد تكون التجارة بما تدر على أصحابها من أرباح مصدر إغراء للأفراد. ولكن هذه الأرباح كانت محدودة وناهيك عن كثرة المتنافسين عليها، أما الوظيفة فهي توفّر الأمان والمعاش. فإذا ما قيس حظ الموظفين بحظ الطبقات الأخرى التي تعيش في مستوى دون المستوى البشري، فإنهم ولا شك ينعمون بمقدار نسبي من الراحة إذا لم يكن من الرفاهية. ولا تعتمد مناصبهم المفضلة على كفاءتهم الأصيلة، أو ما يتحلون به من فضائل خلقية بقدر ما تعتمد على مهارتهم اللغوية ـ وهذه المهارة التي لا يحتاج اكتسابها إلى كبير جهد أو عناء. وقد استمر تعليم الإنجليزية واتسع نطاقه خلال القرن الأخير على وجه أدى إلى زيادة الطبقة المتوسطة واتساعها بصورة غير طبيعية. وسنتكلم فيما بعد عن بعض نتائج هذا التفاوت في الطبقات المتوسطة، غير أن واحدة منها تستحقّ إمعان النظر ههنا. إن توسع الطبقة المتوسطة أدى إلى زيادة عدد المتنافسين على الوظائف المحدودة. ولم يكن من الميسور للوظائف أن تستوعب مدى اتساع المتعلمين. والواقع أن كثيراً من الأحقاد الطائفية والإقليمية واللغوية التي تعانيها الهند الحديثة يمكن ردها إلى عدم قيام تناسب بين أعداد المتعلمين وأبواب الرزق والعمل المفتوحة أمامهم.

ولعل الأخطر من ذلك كله في النهاية انصراف الطبقة المتعلمة عن ثقافة البلاد. والمعروف أن التعليم يشجع عادة على عمليات النزوح إلى المدن، وهو بمثابة الطلاق عن الماضي. وتزيد به التباعد بين الطبقة المتحضرة المثقفة وطبقة الفلاحين. وهنا يضطرب مجرى الاتصال الحر ما بين المدن والمناطق الريفية. أما في يومنا هذا، فإن عملية النزوح تؤدي إلى إفقار القرية ولا تؤدي إلى زيادة ثروة المدن. وقد تسبب عن فقدان الاتصال بين المدن والقرى شلل في وسائل المواصلات إلى درجة كادت تنعدم معها أوجه التشابه في لهجات التخاطب بين متعلمي المدن وجهلاء القرويين.

وتعليل ذلك أن الطبقة المتعلمة لم تعد تستمد قوتها من التقاليد الهندية العريقة، وأصبح أفرادها يتطلعون إلى الحياة من منظار غربي أو شبه غربي على الأكثر. وعندما انقطع حبل الوصل بينهم وبين مرساهم الأصلي اضطربت نفوسهم، وأصبحوا غير مستقرين، ميالين إلى الفضول والشغب. لقد امتازت الحياة الهندية في الماضي بعصبية ملية عميقة. ولعل هذه العصبية تكشف لنا عن السر الكامن وراء النجاح الذي لازم الهند في الصمود أمام الهزات والآفات الطبيعية والبشرية التي تعرضت إليها. وما زال سكان الريف الهندي، لاسيما الفلاحون، يظهرون شيئاً من تلك العصبية الملية. وقد يكونون في عداد الأميين الجهلة ممن يعتقدون بالخزعبلات. ولكن جمودهم بنفسه يحتوي على عناصر قوية جبارة. ومهما قيل في هذه الصفات التي تساعد على التحمل والجلد، ولكنها لا تفيد قضية التقدم في شيء.

وهكذا نجد في جهة جمهوراً من الشعب تعوزه قوة المبادرة والتعبير، رغماً عما تتجلى به من قوة فطرية يستمدها من التربة التي يعيش عليها. ونجد في جهة أخرى طبقة مثقفة قلقة متحمسة ومحبة للفضول. وما أشبه هذه الطبقة بحطام السفينة الغارقة، فهو يعوم على سطح الحياة الهندية وليس له جذور راسخة في حياة الناس. وهي وإن كانت توافة إلى التقدم، ولكن تعوزها القوى الأصيلة الجديرة بإحداث تغيرات هامة. ولو قدر الاتصال بين جمهور الشعب والطبقة المثقفة لتيسر لكل منهما أن يعوّض عما يلازمه من النقائص بفضل صلاح الآخر. وبدلاً من أن يعزّز النظام التعليمي الحديث روابط المجتمع فإنه يميل إلى تفكيكها.

3 - القومية الجغرافية

من آثار الرأسمالية البريطانية على الهند أنها عززت الاهتمام بالوعي القومي. فقد كان الرعيل الأول من الأوروبيين الذين قدموا إلى الهند تواقين لمعاملة الهنود معاملة إنسانية. وسرعان ما تلاشى هذا الشعور ليحل محله انعزال الفريقين الذي قضى على أي نوع من الاختلاط والمعاشرة بينهما، حتى قامت بينهما اليوم هوة فكرية رغم ما يوجد بينهما من تقارب واتصال مادي. كلما أصبحت إنكلترا أكثر اقتراباً من الهند بفضل ما طرأ على وسائل المواصلات من تحسينات، عمد الإنكليز إلى الابتعاد عن كل شيء هندي. وكان البريطانيون كلما ازدادوا انعزالاً وانطواء على أنفسهم اتسعت هوة التباعد بينهم وبين أصحاب البلاد.

وكان فريق من طلائع الأوروبيين قد أبدوا استعداداً لأن يصبحوا هنوداً، فيما انساق فريق من الهنود إلى كل شيء بريطاني. ولكن ما إن استقرت الحال بالبريطانيين حتى عمدوا إلى حياة قومية منعزلة. وقد أحدث انزواؤهم هذا رد فعل في البلاد. فالتقت أسطورة الإنكليزي الذي يرتدي الملابس الرسمية للعشاء وهو منفرد وأسطورة الهندي الغامض الذي تحدّى روابط الجسد. فالهندي الروحاني قام ضد الإنكليزي المادي. وكان البريطانيون كلما أمعنوا في إبراز قوميتهم أذكوا الشعور القومي في نفوس الهنود.

ومباهاة البريطانيين بقوميتهم وثقافتهم آثرت بعدم الوعي القومي الهندي. ورغم أن السكان لم يدركوا حينذاك ما ينطوي عليه وجودهم تحت السيطرة البريطانية من معان ومضامين اقتصادية، إلا أن البلاد شهدت قيام روح قومية وثّابة. وبدلاً من أن يمضي الهنود في امتهان كل شيء هندي، أصبحوا معجبين بماضيهم إعجاباً أعمى. وطالما فقدت النهضة الهندية معالمها في طيات عمليات الرجوع إلى الماضي. ذلك أن القومية اتخذت كذريعة لإحياء الخزعبلات القديمة. وإلى يومنا هذا لم

تتخط هذه المرحلة بعد. ومن الممكن رد تلك المجموعة من السياسة والدين والخرافات الاجتماعية التي كانت تؤذي شعور ذوي التفكير العلمي إلى هذا النوع من القومية الفاسدة. وقد استوحت الهند الفكرة القومية من الغرب ولكن نموها أدى بالتالي إلى نبذ كل ما هو غربي والانصراف عنه. ولئن كانت الأفكار الغربية في يوم من الأيام مصدر توجيه لاتجاهات جديدة من التطور، ولكنها في الوقت الحاضر موضع رفض لمجرد كونها مستمدة من الغرب. وكثيراً ما يتحول الاهتمام وينصرف عن الضروري الجوهري ويأخذ بالتافه الثانوي من الظواهر.

ومهما بدا ذلك متناقضاً، فإن الرأسمالية مع تعبيرها السياسي في السيطرة الملوكية تبالغ في أهمية القومية. والرأسمالية تقوم على ملكية الأفراد لوسائل الإنتاج. والملكية الفردية تهدف إلى الإنتاج بقصد الربح بدلاً من الإنتاج للاستعمال. وكلما ازداد نطاق الإنتاج واتسع ازدادت معه فرص الأرباح. أما النتيجة الطبيعية لعمليات الإنتاج الواسعة النطاق فهي خلق اتجاه نحو الاحتكار العالمي. وتقوم الرأسمالية العصرية في صميمها على الاستيلاء على الأسواق الخارجية واستغلالها. أما الأرباح الناشئة من هذا الاستغلال الذي يجري على نطاق عالمي فمقصورة على الطبقة المالكة. ولتحويل اهتمام الطبقة غير المالكة من أبناء جنسها فهي تعمد إلى تمجيد الوحدة القومية. وقد أدى هذا بدوره إلى قيام نوع من الوطنية المتطرفة بين الشعوب الأوروبية. ومن عادة هذه القومية أنها تستر الخلافات الداخلية أمام الأجانب وراء ستار الوحدة. والواقع أن البريطانيين أصابوا نجاحاً باهراً في استغلال الشعور القومي. وقد أسفرت محاولاتهم تطبيق نفس الأساليب على الهند إلى تطورات وأحداث مثيرة للدهشة.

لازم الاتجاه نحو الوحدة تاريخ الهند عبر القرون والأجيال. وقد أدى هذا الاتجاه في الحقبات القديمة من التاريخ الهندي إلى تنسيق أنواع مختلفة من الشعوب والثقافات في ظل نظام ديني. وقد نشأ عن هذا التنسيق قيام

وجهة نظر مشتركة موحدة تخطت بدورها جميع الحواجز العرقية والإقليمية. ومع أن الرغبة في تحقيق وحدة سياسية كانت قد بدأت تتبلور، ولكن اتساع البلاد وضخامتها، وعدم توفر وسائل المواصلات اعترضت هذا السبيل. أما انعدام فرص الاختلاط والمعاشرة فكان موافقاً لاقتصاديات البلاد الزراعية حينئذ. وقد شجع هذان العاملان معاً على قيام الحكم المستقل المحلي. وقد لا نغالي إذا قلنا إن نظام المجالس القروية الذي عرفته الهند لا تضاهيه أنظمة أخرى في العالم. عبرت وحدة الهند عن نفسها بواسطة لغتها وأدبها وعاداتها ودينها وفنها وفلسفتها ولكنها لم تجد سبيلاً سياسياً راسخاً.

ويلاحظ أن العملية نفسها قد تكررت خلال العصور الوسطى مع تعديلات طفيفة. فقد استمرت خلالها المحاولات الرامية لتحقيق وحدة سياسية كما أن نظام الطبقات أخذ يزول تدريجياً ويتلاشى ليفسح المجال أمام نظام اقتصادي. وكذلك طرأ على العادات الاجتماعية تبدل جوهري، وأسفرت التجارب الجديدة في ميادين الفن عن قيام معان جديدة من معاني الوحدة. وتعرضت اللغات والعادات والأزياء إلى تغييرات تحت تأثير عوامل جديدة، وتحقق نوع من التنسيق بين الأديان والفلسفات المتضاربة. ووقع تفاعل تحت خمير جديد أحدث وعياً جديداً في نفوس السكان. ولكن حركة الوحدة بقيت غير مكتملة الشروط. ومع أن البلاد شهدت ثقافة مركّبة إلا أنها لم تحدث انقلاباً جوهرياً في صميم الحياة الهندية. لقد تماسكت العناصر المختلفة بعضها ببعض إلا أنها لم تندمج بعد.

لاحظنا فيما سبق أن طبيعة الهند الجغرافية عامل مهم في تأمين وحدتها. والواقع أن الطبيعة شاءت للهند أن تكون جزءاً واحداً، وتاريخها عبارة عن محاولة متواصلة نحو وحدة لم يكتب لها أن تتحقق. وكانت الهند كلما تحققت الوحدة السياسية عمها السلام في الداخل والخارج. وقد أخفقت المحاولات الرامية إلى تجزئتها إلى دويلات مستقلة صغيرة، على نفس النحو الذي أخفقت فيه المحاولات لتوسعها ما وراء حدودها الطبيعية.

لذا فإن تاريخ الهند دائم التأرجح بين طرفي نقيض. أحدهما يهدف إلى تجزئة البلاد في عدة دويلات، والآخر يعمل على توسيع الهند إلى ما وراء حدودها الطبيعية. وما كان للهند أن تحتفظ بتوازن بين الاتجاهين إلا عندما تعاونت العوامل التاريخية مع العوامل الجغرافية وانسجمت معاً.

وما كان لهذا التوازن في الماضي أن يتحقق بسبب انعدام وسائل المواصلات وما ينطوى على ذلك من انعدام وسائل الإشراف والمراقبة. وكان من الطبيعي في مثل هذه الظروف التي تنعدم فيها وسائل الاختلاط والمعاشرة أن يتعذر الاتصال بين أجزاء هذه المنطقة المترامية الأطراف. أما اليوم فقد تبدل الحال بفضل تغلب الإنسان على قوى الطبيعة. فقد تيسر للسكك الحديدية أن تشق طريقها إلى مختلف أرجاء البلاد، واقتربت أطرافها المترامية فيما بينها.

ودخلت البلاد في طارة حديدية. ودعمت السيارات العملية ودفعتها إلى الأمام ونجحت الطائرات اليوم في التغلب على مشكلة المسافات داخل القارة الهندية. أما البريد والهاتف والتلغراف فقد ساهمت بدورها في هذا العمل بوسائل وطرق أخرى.

ولأول مرة في تاريخ الهند تهيأت الظروف التي تساعد على قيام وحدة سياسية مستقرة الدعائم. على أن الفضل في هذا لا يعود إلى الاحتلال البريطاني. وما كان البريطانيون ليختلفوا عمن سبقهم من ولاة الهند وحكامها إلا بفضل تسخير قوى الطبيعة. وقد تسنى لهم بفضل هذا التغلب أن يؤمنوا اتصالهم ببلادهم وينعزلوا عن سكان الهند. وكانوا كلما ازداد اقترابهم من جهة الوقت والمسافة شعروا بقلة الحاجة إلى الاختلاط الإنساني مع الهنود. وقد مكنهم ذلك في نفس الوقت من إقامة دولة مركزية. في الماضي كان نفوذ الملك لا يتعدى المدى الذي يمتد إليه سلطانه. أما في الأيام العصرية ففي وسع الدولة أن تبلغ إلى ما وراء ما يحلم به حتى الإسكندر. وليس هذا فحسب بل في وسعها أن تؤمن اتصالها المتواصل بهذه الأرجاء والإشراف عليها. وكان للتقدم الحديث الذي أحرز في الميادين

العلمية والتحسينات التي طرأت على وسائل المواصلات أن أصبح تنظيم الهند كدولة واحدة ليس من الأمور الممكنة فحسب بل والضرورية أيضاً. وقد تيسر لشعور الوحدة في هذه الأيام أن يجد الهيئة السياسية للتعبير عن نفسه. والواقع أن حداثة الوعي القومي لم تأت عفواً أو من باب المصادفة.

لذا فإن فكرة القومية الجغرافية هي إلى حد كبير من التطورات الحديثة العهد. وقلما عمد الهنود في السابق إلى التفكير في أنفسهم من ناحية القومية. قد نسلم بأنه قامت في البلاد وحدة ثقافية واهية وفضفاضة، ولكن الهند لم تتمكن من التنظيم السياسي، ذلك أن عظم اتساع البلاد وانعدام وسائل المواصلات العصرية اعترضت سبيل توحيد البلاد سياسياً. والعامل الآخر الذي يعادل هذين العاملين في الأهمية، هو أنه لم يكن يتوفر للهنود في ذلك الوقت أي فكرة عن القومية بمعناها الحديث. وكانت الرأسمالية والدولة القومية قد نمتا وتطورتا جنباً إلى جنب. وتلك طريقة أخرى للقول بأن الرأسمالية في الهند لا تزال تطوّر يستكمل في المستقبل.

إن الفكرة القومية أثرت تأثيراً عميقاً على الوعي الهندي، وكان أثرها أشد ما يمكن على الجيل الجديد، وعلى الأخص الطلبة منهم. ذلك أن هذا النفر يتلقى التأثيرات الفكرية الجديدة بصورة مباشرة كما أن كفاءتهم الذهنية تمكنهم من التفاعل مع التأثيرات التي قد يتعرضون إليها. أضف إلى ذلك كله أنهم على وجه العموم متحررون نسبياً من تحفظات ذوي المصالح الثابتة. وبوصفهم طلاباً فإنهم لم يوفقوا بعد إلى الاندماج في المجتمع على وجه معين. وهم يطالعون ما حصل من المجد للدول القائمة على القومية في الغرب. فيتراءى لهم أن الانتصار الذي أحرزته تلك الدول إنما يعود إلى قبولها بمبدأ القومية. ويتراءى لهم أن مجرد تحويل الهند إلى دولة قومية يفتح أمامهم أبواب احتمالات لا تحصى.

ومن تأثيرات الأفكار الغربية على الهند أنها عززت الاهتمام بالديمقراطية. ومن الخطأ أن يتوهم أحد أن الديمقراطية لم تكن معروفة في الهند. لأن المجالس القروية التي عرفتها الهند منذ القدم تعكس نظاماً ديمقراطياً لا يضارع، وحتى نظام الطبقات فقد قصد من ورائه في بادئ

الأمر أن يكون أداة ديمقراطية. إن هذا النظام في تأكيده على أهمية العمل مكن الأفراد من النهوض والترقي اجتماعياً. على أن نظام الطبقات انحرف عن جادة الطريق الديمقراطية عندما بدأ يركز اهتمامه على أرومة الفرد ومولده بدلاً من مهنته وعمله. فكانت البوذية قبل مجيء الإسلام أول من شن الحرب على معقل نظام الطبقات، ومع أنه لم يكتب لها النجاح الكامل إلا أنها تركت آثارها على النظام الإجتماعي الهندوسي. ومع أن التغيرات التي وقعت كانت عامة شاملة إلا أنها كانت أشد وقعاً وأوسع مدى في المناطق الشمالية الغربية والشمالية الشرقية من الهند.

إن نظم الديمقراطية التي حملها الإسلام متحدياً بها العالم ليس لها ما يضارعها في الديانات والنظم الاجتماعية الأخرى. ومن تأثيرات ظهور الإسلام على مسرح الهند أنه هز الوعي الهندي من جذوره وأعماقه، وغيّر معالم النظام الاجتماعي في طول المناطق الشمالية من الهند وعرضها. أما النجاح الذي صادفه في المناطق الشمالية الشرقية منها فكان مدهشاً حقاً. وهذا يحملنا على الاستنتاج بأن تأثيرات البوذية في أوائل مراحلها كانت من العوامل التي ساعدت في النصر الساحق الذي حققه الإسلام في المناطق الشمالية الشرقية من البلاد.

رغم كل هذا فإن الديمقراطية لم يكتب لها أن تكون عاملاً حاسماً في حياة الهند السياسية. إن العقلية الهندية تستهويها الأفكار المجردة التي تنطبع بطابع الشمول، وقلما تفكر في وجود الفرد. ويتجلى ميل العقلية الهندية إلى إبراز العام على حساب الخاص في دياناتها وفنونها ومذاهبها الفلسفية. إن الديانات الهندية تبدي تسامحاً إزاء الفوارق الاجتماعية وتتساهل إزاء عدم المساواة القائمة بين الأفراد. فهي تنظر إلى الفرد باعتباره جزءاً عابراً من المطلق وأن المطلق فوق كل أذى وإهانة. ومع أننا نعثر بين اللوحات الهندية على رسم للشجرة. ولكن قلما تقع أعيننا على شجرة ذات طابع أو شكل معين وحتى رسوم الآدميين فإنها لم تسلم من هذا النقص. وكذلك الحال في الفلسفة الهندية فإن الخاص لا يكتسب

أي أهمية إلا كعامل للمجموع العام. وصفوة القول إن العقلية الهندية كانت ميالة لتمجيد النوع وتجاهل الفرد.

ولعل هذا التجاهل الشديد للخاص يفسر لنا الأساليب التي لم تساعد الهند في اكتساب العقلية العلمية، وقد قدمت الهند عدداً من العباقرة من أفرادها الذين توصلوا إلى اكتشاف حقائق هامة. ومع أنه كان من المتوقع قيام نظريات علمية عظيمة إلا أن الهند لم تعرف العلوم بمعناها العصري. ولعل عدم المبالاة بالأفراد هو من بين العوامل الرئيسية التي اعترضت سبيل تقدم العلم في الهند. إن الديمقراطية ليست بشيء إلا إذا اعترفت بأهمية الفرد. أما في الهند فإن الديمقراطية سارت ضمن إطار ضيق. وترعرعت في المناطق الريفية حيث العلاقات والاتصالات الشخصية تخفّف من حدة الأفكار المجردة. لذا فإن الديمقراطية في الهند عندما وجدت نفسها تعمل خارج نطاق دائرة الاتصالات والعلاقات الشخصية بقيت مجرد فكرة عارية عن الجسم.

إن الهند بحكم ضخامتها واتساعها قد أفسحت للديمقراطية الريفية والأتوقراطية الاستعمارية مجالاً للنمو والتطور جنباً إلى جنب. ورغم قيام قدر عظيم من الحرية المحلية إلا أن الهند وقفت موقفاً أميل إلى التسامح منه إلى الاعتراف بها. ويلاحظ أن السلطة العسكرية تغلبت على الرأي العام غير المنظم كلما اصطدما. لذا فإن اهتمام الأوروبيين بالديمقراطية التأسيسية جابه الوعي القومي الهندي بشيء جديد. ومن بين العوامل الجديدة التي فوجئ بها الشعب الهندي تغلب الإنسان المتزايد على قوى الطبيعة. والتحسينات التي أدخلت على وسائل المواصلات، كانت أوضح مثالاً من أي شيء آخر. والواقع أن الروح الديمقراطية وجدت الآن في هذه المواصلات أداة صالحة. وأخذ مبدأ المساواة يغزو الضواحي والأرياف عن طريق القطارات في بادئ الأمر ولاحقاً عن طريق الحافلات الريفية.

4 - الصراع

بقيت القومية الهندية تتأرجح قلقة بين أساليب الحياة الغربية والأساليب الاجتماعية القديمة الملغاة. وهذا الارتباك قد أثر على العقلية في ذلك العصر. وكانت هذه الاضطرابات أشد تأثيراً على الشبيبة الهندية. غير أن العملية لم تتوقّف لأن العالم كان يتجاوز مرحلة القومية. واضطرت الهند أن تجتاز في آن واحد جميع المراحل التي سبق للدول الأوروبية أن قطعتها على أدوار متعاقبة. وقد أشرنا فيما سبق إلى فشل محاولات الرأسمالية في الهند. وكذلك فإن حركتها القومية وديمقراطيتها قد تعرضتا إلى نفس التطور الموقوف. وكان لا مفر لها قبل أن تنمي قوميتها وديمقراطيتها على أسس كاملة أن تنظم حياتها على أسس من الجماعية الاجتماعية.

إن تطوّر النظام الرأسمالي يؤدي بطبيعته إلى احتكار عالمي. وهذا بدوره يثير قضية توزيع الأرباح على شتى أعضاء المجتمع. ويمكن للنظام الإقتصادي الفطري أن يتركز في العائلة أو القبيلة، فالأب يتولى حراثة الأرض في حين أن الأم تتولى أعمال الطهي والغزل. ويعاون الأولاد في المزرعة أو المنزل، فكل عائلة عبارة عن مجتمع مصغر. والقبيلة أو القرية تحل محل الأسرة أو العائلة عندما يكتسب طابع العمل ميزة التخصص والمهارة في مختلف أنواع العمل. على أن القبيلة أو القرية رغم كل هذا تبقى مكتفية بذاتها. وعندما تنمو التجارة خارج حدود القبيلة، يقوى اعتماد أفراد المجتمع بعضهم على بعض إلى حد يتعدى تأثيره على عقلية عامة الشعب.

هزت الحرب العالمية الأولى أسس ثقافة الغرب السائدة. فكشفت النقاب بصورة واضحة عن التناقض الذي يلازم القومية والرأسمالية. وقد استهوت الأفكار الجديدة ذلك النفر من ذوي العقول المتيقظة. والاضطراب الذي وقع في معتقدات الإنسان المألوفة وعاداته انتهى في الانقلاب

الاشتراكي في روسيا. ومن المبكر حقاً أن نقدر ونوازن تأثيرات هذه الثورة على مختلف نواحي الحياة الاجتماعية. على أن ما حملته في طياتها من تحد قوي للملكية الفردية وأهداف الربح لا يمكن لأي مجتمع أن يتجاهله أو يتغاضى عنه. إن رغبة أصحاب رأس المال في الاحتكار وصلت إلى نتيجتها الطبيعية. فقد حولت أهداف الاحتكار ولو على الأقل بصورة نظرية من خدمة الذات إلى خدمة المجموع.

وقد حرّرت الحرب العالمية الأولى عقول الشبيبة في العالم من وهم إمكانيات الرأسمالية. فالتهديد بالبطالة والفقر يؤدي إلى التذكير بفشل النظام السائد. على أن الرأسمالية في الهند ليست نظاماً بالمعنى المفهوم، بل نظاماً هجيناً يتواصل فيه نمو الطبقة الوسطى. ومع أن الطبقة الوسطى تمكنت من التوسع إلا أنه لم يؤمن لها الرفاهية، أو يضمن لها الأمان. ويلاحظ أن الطلبة الذين ينحدرون من هذه الطبقة يجدون أمام أعينهم شبح البطالة المخيف طيلة مدة دراستهم.

وفي حين أن الطبقة الوسطى في مختلف أنحاء العالم بدأت تدرك بأن لا مستقبل لها، فإن مستقبلها في الهند أدعى إلى الرثاء. ذلك أن الرأسمالية في البلدان الأخرى ضمنت لأفراد هذه الطبقة مكاناً في الاقتصاد الاجتماعي. أما في الهند فقد قاوم البريطانيون الرأسمالية المحلية بمختلف أنواع الضغط السياسي والإقتصادي. ومع كل ذلك فإن اليسر النسبي الذي يتمتع به أفراد هذه الطبقة الوسطى يجتذب الآخرين من كل طبقات المجتمع. وقد تطوّرت طبقة وسطى كثيرة العدد بحيث تعذر على الجهاز الإقتصادي السائد أن يدعمها. ويرفض أفراد هذه الطبقة الرجوع إلى مستوى وضيع من المقدرة الاقتصادية. هذا رغم ما يعترض مسيرتهم نحو الرأسمالية من عراقيل. ونتيجة لذلك، فقد اشتدت وطأة البطالة كما ازداد التبرم والاستياء.

إن خيبة الأمل التي منيت بها كثيراً من الأحيان الشبيبة الهندية هي نتيجة مباشرة لهذه الأحوال. إن الاشتراكية ومبدأ العدالة الاجتماعية الذي تروّج له الفرص المتساوية التي تنادي بمنحها للجميع تقف موقف المتحدي لإيمانهم وجهودهم. والظروف والأحوال التي يعيشون ويعملون في ظلها تبدو أبعد ما يكون عن تحقيق تغيير اجتماعي جديد. والصراع القائم بين أمانيهم وآمالهم وبين البيئة التي يعيشون فيها يبعث بين أغلبيتهم شعوراً باليأس ويدفعهم إلى كثرة الكلام الفارغ. ويندر أن يكون هذا الصراع حافزاً على شحذ العزائم ومضاعفة الجهود. وهكذا فإن العناصر الثلاثة التي تؤذي عقلية الشبيبة الهندية المعقدة البدائية اليوم، هي القومية والاشتراكية والشعور بخيبة الأمل وانعدام الهدف.

انتشر التبرم وعم الاضطراب في تربة صالحة، على أنهما بقيا مستترين إلى حين، نظراً لأن نظم التعليم الغربي في مراحلها الأولى ضمنت لهؤلاء النجاح المادي. ووقفت الشبيبة في بادئ الأمر وقفة المجاملة الخالصة. ولكن سرعان ما تلاشت موجة الاعجاب وبدأت وطأة العوامل الاقتصادية تفعل فعلها. ولم يعد في وسع التعليم الغربي تأمين الرفاهية إلا إذا بقي عدد العاطلين من القلة والضآلة بحيث يتسنى للجهاز الإقتصادي امتصاصهم. وعندما تزايدت أعدادهم لم يعد هناك مفر من تعديل هذا النظام الإقتصادي. ولكن الصعاب التي تعترض هذا السبيل بقيت قائمة. وقد استمرت الخطة الصامتة الرامية إلى شلّ الحياة الصناعية في الهند لمدة طويلة دون أن ينتبه إليها أحد. ولكن تجاهلها لم يعد ممكناً في هذه الحالة. وما كان تفشي البطالة بين المتعلمين بأعدادهم المتزايدة وازدياد الضغط المتواصل على الزراعة إلا من عوارض هذا المرض الآخذ بالاستفحال.

ترافق تنامي الفقر في البلاد مع المطالبة بتحسين مستوى المعيشة. وقد يبدو هذا متناقصاً ولكننا لن نعجز عن تعليله التاريخى. الرأسمالية

الأوروبية عندما اتصلت بالهند كانت قد بدأت حياتها الموفقة. ولسنا في حاجة في هذا المقام لأن نستعرض ما كان للأسواق الهندية من فضل التعجيل من نمو الرأسمالية هذه والمحافظة عليها. كما أننا لن نعمد في هذا المقام إلى تبيان تفاعل العوامل السياسية والاقتصادية. وعندنا أن تفاعل القوانين الاقتصادية الذي أدى إلى قدوم البريطانيين إلى الهند، هو الذي أدى إلى إخضاع الهند لسيطرتهم السياسية.

وقد وقفت الصناعات الهندية البدائية وجهاً لوجه أمام رأسمالية الغرب الجائعة التي ما لبثت أن دمرتها وعادت بالبلاد إلى عهد الاقتصاد الزراعي الذي حرصت الهند على أن تخرج منه. وقد ضاعف الارتداد إلى اقتصاد الزراعة في البلاد إلى جانب حلول فترة سلام مفروض من المتاعب القائمة وقامت مشاكل جديدة. فقد تزايد عدد السكان ولكن البلاد كانت جردت من ثروتها. وبديهي أن الأراضي الزراعية لا تقوى على سد احتياجات جميع السكان إلا إذا كان المجتمع لا يزال في أطواره البدائية. وما حدث في الهند أن عقارب ساعة الحضارة قد أرجعت إلى الوراء. وفي الوقت نفسه كشف الاتصال بالغرب للشعب عن إمكانيات عظيمة. وأصبح مستوى الحضارة الغربية المادي الفائق متحدياً الهند ومثيراً للتحدي وباعثاً على الإزعاج. وأدت عملية إفقار البلاد إلى بعث الشعور بالحقد في نفوس أولئك الذين وفرت لهم ظروفهم أن يتصلوا بالغرب الموفق بالرفاهية. وقد تزايدت موجة الاضطراب وعمت بفعل ما طرأ على وسائل المواصلات من تحسين وإزالة النظم الاجتماعية القديمة، وغمرت البلاد والأهلين معاً موجة من القلق وحب الاستطلاع.

ولعل الأفكار الغربية والإفقار المتزايد الذي تعرضت له البلاد، هما العاملان المسؤولان عن إشاعة روح التبرم في عقل الشعب الهندي. ومن آثار تزايد وسائل الاتصال والمواصلات أنها جعلت هذا التبرم أعمق غوراً

وانتشارا، ومما ساعد في تفاقم الحالة وزاد في الطين بلة تلك المحاولات الرامية لشل حياة الهند الاقتصادية. ولو أنه كان لانهيار النظام الإقطاعي المغولي أن يؤدي في الظروف الطبيعية إلى نمو الرأسمالية في الهند. وقد كانت الرأسمالية البريطانية قوة تقدّمية لأنها ساعدت في تقويض دعائم العهد القائم ولكن صبغتها التقدمية تلاشت عندما شرعت تقاوم بحكم مصلحتها تطوّر الرأسمالية ونموها بحرية في هذه البلاد. وقد أسفرت الطريق الوسط التي اتبعتها في هذه المقاومة عن خلق طبقة وسطى ذات قوة وحول. وكانت تهدف إلى استغلال هذه الطبقة البورجوازية في العمل على تصريف البضائع في طول البلاد وعرضها، وأن تكتفي هذه وتقنع بنصيبها الضئيل من الأرباح التي حصل عليها رأس المال البريطاني. على أن هذه الطبقة سرعان ما أبت الإذعان لإدارة البريطاني، وأخذت تطالب بنصيب أوفر من الأرباح كما طالبت بنصيبها من التراث السياسي الثقافي البريطاني. ونظراً لتشعب المصادر التي كان أفراد هذه الطبقة ينحدرون منها، فإن مهمتها لم تقتصر على تصريف البضائع بل تعدتها إلى نشر الأفكار وإشاعتها. وقد أخذت عقليتها مع مرور الزمن تسيطر على المجتمع الهندي وتتحكم فيه.

ويعتبر قيام الطبقة الوسطى ونموها الثوري من أهم الأحداث التي شهدتها الهند الحديثة، والمعروف عن الطبقات الوسطى في جميع العالم أن أفرادها قلقون وناقدون وأصحاب الأنانية. وهم طبقاً لأحوالهم لا ينعمون بالاستقرار الإقتصادي. ويعملون بدافع النهوض بأنفسهم إلى طبقة الرأسماليين ولكن كثيراً ما يحدث العكس فتطوح بهم مغامراتهم إلى الحضيض. وهم يحسون بأنه يليق بهم أن يعيشوا عيشة الرفاهية التي وراء مقدرتهم. وهذا الصراع الإقتصادي المتواصل يصبغ وجهة نظرهم في الحياة. إن أفراد الطبقة الأرستقراطية لا يسعون عادة إلى تأكيد ذاتيتهم

بحكم ثقافتهم بأنفسهم، كما أن سواد الشعب قانعون بنصيبهم، أما أفراد الطبقة الوسطى فهم لا يعرفون القناعة، وكثيراً ما ينقلبون إلى فئة جامحة صاخبة همها الأكبر تأكيد ذاتيتها وإبرازها. وهم يسعون إلى تزكية أنفسهم بانتقاد الآخرين.

إن أفراد هذه الطبقة لا يقصرون انتقادهم على الفئات والطبقات الأخرى بل تراهم ينتقدون بعضهم بعضاً، ذلك أن التجانس والوئام غير معروف بينهم. وقد لا يتوفر التجانس بصورة كاملة لطبقة من الطبقات الاجتماعية على أن الدرجات في أفراد الطبقة تتجلى أكثر من غيرها في الطبقة الوسطى. ففي أقصى جهة نجد أولئك الذين قد زحزحوا عن الطبقة الفقيرة. وفي أقصى الجهة الأخرى نجد أولئك الذين يصعب تمييزهم عن طبقة الأغنياء الموسرين. فلا يتجلى تعاظم اجتماعي في أي طبقة كما يتجلى في الطبقة الوسطى. فلا تقع عينك إلا على جو من الحسد والوجل، حسداً لبعضهم بعضاً، وخوفاً من بعضهم بعضاً. ثم تتوفر الأنانية إلى حد كأنها مرض. فتوسع الطبقة الوسطى هو نذير بانهيار النظام الإجتماعي القديم.

تغيرت الهيئة الاجتماعية في الهند بسرعة بفضل تأثير الغرب من طرق أخرى أيضاً. وكثيراً ما كانت النتائج متضاربة متناقضة. إن النظم الاجتماعية الغربية بانحرافها عن الأساليب الهندية قد زعزعت إيمان الشعب بأن قيام نظام معين من الأنظمة أمر من الأمور التي لا مفر منها. ولقد استوجبت الغارات المتعددة التي شنتها السلالات المختلفة على الهند منذ القدم، إجراء تعديلات متكررة على الأنظمة القائمة. على أن قوى الرجعية طالما قاومت محاولات التكيّف هذه. وكان المجتمع يتعرّض بأكمله إلى التهديد بوقوع حرب أو غزو أجنبي كلما عمد إلى الرجعية واتخذ منها سلاحاً للدفاع عن نفسه، وكانت المطالبة بتغير الأوضاع عادة تحمل الهنود

على التمسك بأهداب الماضي بصورة عمياء، وطالما سارت أهداف التقدم الاجتماعي وقوة الاستمرار الاجتماعية في دروب متناقضة، على أن كفة القوى الرجعية ما لبثت أن رجحت نظراً لانعدام وسائل المواصلات الصالحة. ولما استحدثت وسائل الاختلاط والاتصال فيما بعد، كان لها أثرها في التعجيل من الاتجاهات نحو التغيير والتقدم. ولم تساعد هذا التحسينات في تصريف البضائع فحسب بل في نشر الأفكار أيضاً. إن المدن تمتاز عادة بعدم الانسجام والتجانس والميل نحو الشك والنزعة إلى التجارب، في حين أن القرى تمتاز بالوداعة النسبية والسذاجة والرجفة. ومن تأثير المدن على القوى أنها زرعت فيها تلك التقاليد القائمة على الرضا والقناعة. فقربت المدن من القرى. والمدن تمتاز عادة بعدم الانسجام وتميل إلى الارتياب والتجارب. والقرى تمتاز بالهدوء والسذاجة وتميل إلى الرجعية. ولما صدمت المدن بالقرى فقدت الأخيرة انبساط المعيشة المألوفة.

5 - الدائم مقابل المؤقت

ساعدت حدة الصراع الإقتصادي المتزايدة في زعزعة روح القناعة والاستسلام. فالعهود القديمة التي سادتها الراحة وهناء العيش ولت وذهبت. ولم تعد الحرف والمناصب الموروثة تضمن لأصحابها نصيبها من الرزق والمؤاساة. وتجتذب أنواع جديدة من الوظائف الناس من كل المجتمعات. ونظراً لما يلازم المدن عادة من انعدام الذاتية، فإن سبل الاختلاط والاتصال بين الفئات والجماعات المختلفة أصبحت أقرب منالاً وأيسر تحقيقاً. وها نحن نشاهد اليوم ثورة صامتة تقوم أمام أعيننا. فالقيم الأخلاقية القديمة أخذت تتغير بحيث تُطمس معالمها. وما ينطبق عليها ينطبق أيضاً على نظام الطبقات التي يعتبر بمثابة حجر الزاوية الذي يقوم عليه المجتمع الهندي. فإنه بدوره أخذ بالانهيار والتداعي. وأصبحت المعايير والقيم الاقتصادية القديمة هباء منثوراً. وبدأ التحول والتبدل الذي طرأ على الأحوال المادية للمعيشة يحدث تغييراً عميقاً في وجهة نظر العقل والفكر.

فرضت التأثيرات الأوروبية على الهنود طرازاً جديداً من التفكير والسلوك. ولما كانت الأفكار الغربية تجريبية في الصميم، فإنها كانت في صراع مستمر مع الأفكار والعقلية الهندية السائدة. أما النواحي الدنيوية والعملية من التفكير الهندوسي فكانت قد تبخرت منذ أمد بعيد، وحتى الإسلام نفسه، فإنه بدوره قد فقد في البيئة الهندية قوة النضال والكفاح التي تلازمه عادة. أما العلوم الأوروبية من ناحية أخرى، وهي معنية بالظواهر الطبيعية، فقد عملت على تقويم وتفهم كل ما يقع تحت طائلة النظر ومراقبته والسيطرة عليه. على أنها لم تدخل في حسابها عالم ما وراء المرئيات إن لم تكن قد أهملته وتجاهلته على الأقل.

وعلى ذلك فإن النزعة الهندية للاهتمام بالدائم قد اصطدمت بحب البريطانيين للمؤقت. وفي حين أن الهند ميالة إلى إهمال حاضرها، فإن

بريطانيا كثيراً ما تهمل المستقبل. ذلك البريطاني يهتم بمصائب يومه الحاضر. وهو عادة لا يجد مجالاً في ذهنه ووقته للتفكير في مصائب المستقبل، أما الهندي فيرهق ذهنه بالتفكير مقدماً فيما عسى أن يقع من حوادث. وكثيراً ما يؤدي به حرصه على تفادي أخطار المستقبل إلى إفلات الفرص من أيديه. وكذلك في حين أن الهند تفاخر وتعتز ببعد نظر أبنائها وصفاء تفكيرهم، فإن بريطانيا تباهي بمقدرتها على مقاومة الصعاب ولو مع الخطايا. والواقع أن صبر الهنود على حاضرهم التعس أملاً بثواب مستقبل قد وجد نقيضه في موقف البريطانيين. وكان لانتصار البريطانيين في تصرفاتهم الدنيوية وتجاربهم أن بدأ الهنود يعيدون النظر في اتجاهاتهم الفكرية والأسس التي تقوم عليها.

والواقع أن المرونة الاجتماعية التي أخذت تتجلى في مختلف نواحي الحياة الهندية لن تخرج عن كونها تعبيراً عن الاتجاه التجريبي المتزايد. وهو العامل الذي كانت تفتقر إليه الهند عندما دخلها الأوروبيون. فكانت قد أخذت بادعاءات جامدة بدل المبادرة إلى اعتناق الظروف المتغيرة. ولما كانت مجاراة الظروف والتكيف معها سنة من سنن الحياة لا يمكن مقاومتها إلا بالتعرض إلى خطر الموت، فإن انعدامها يعنى فقدان القوة على البقاء والاستمرار. ولقد كان المجتمع الهندي في أواخر العهد المغولي مهدداً بالجفاف الداخلي. أما ما كتب للأوروبيين من ظفر فلم يكن إلا مظهراً خارجياً للانحلال الداخلي. ومن تأثيرات أوروبا على المجتمع الهندي أنها قضت على الجمود القديم، وأرغمت المجتمع على إعادة النظر في الأسس القديمة. ومع أن الأفكار الأوروبية كانت مختلفة عن الأفكار الهندية، ولكن لم يكن من السهل تجاهلها نظراً لما سجلته وأحرزته من انتصارات باهرة. وكان لتصادم الأفكار الأوروبية والهندية وتعارضهما معاً، أن انبعث في البلاد اتجاه جديد يقوم على حب الاستطلاع والنقد، وإن كانت أهدافه مبهمة غير واضحة إلى الآن.

إن حب الاستطلاع هو المحور الذي تدور عليه المعرفة. ومن دونه لا يتسنى لأحد أن يرتقي. لذا فإن حب الاستفسار والاستطلاع من الطبائع الملازمة للشبيبة. وقد أدى ظهور حركة النقد إلى بعث الحياة في الهند من جديد، رغم ما ينطوي عليه هذا البعث من أخطار. ذلك أن المراهقين من عادتهم رفض كل شيء. فهم يحلمون برسم معالم هذا العالم من جديد، كما أنهم لا يحسنون التمييز بين الطالح والصالح من تراثهم الاجتماعي. فهم يركزون انتقاداتهم في المظاهر والقشور غير عابئين بالجوهر الأساسي من العيوب والنقائص، وقد تعكس حركة البعث وتطوراته آثاراً من المراهقة الزائدة.

يتحتم على الهنود أن يجابهوا مشاكلهم ويعالجوها في روية ونفاذ بصيرة، هذا إذا كانوا حريصين بأن لا يؤدي هذا الغليان الاجتماعي إلى نوع من الفوضى والبلبلة. وعندنا أن العقل هو الكفيل الوحيد بأن يصنع من أنقاض الماضي المتداعية تراثاً يروق للأجيال الهندية الآتية أن ترتاح إليه وتفتخر به. وترجع الأهمية إلى العقل أيضاً بسبب العوامل الخارجية التي ظهرت على المسرح. ذلك أن تعرض الهنود لسيطرة الأجانب السياسية جعلتهم شديدي الحساسية للإساءة. وكذلك فإن تفسير التاريخ الهندي تفسيراً خاطئاً قد أثار البغضاء وسوء التفاهم بين الطوائف المختلفة. وغالباً ما يستقبح الانتقاد ولو كان صحيحاً لمجرد استقباح المصدر الذي صدر منه. ونظراً لما وقع من خلط بين مقوّمات النهضة ومقوّمات الحركة الرامية إلى بعث القديم وإحيائه، فقد زاد الموقف تعقيداً على تعقيد. فاختلطت الطائفية بالراديكالية المتطرفة واندمجتا لتخلقا جواً مفعماً بالتعصب والغليان.

ويلاحظ أن الإعراض عن الغرب ونبذه بصورة عمياء هو الشعور السائد بين طبقة هامة في المجتمع الهندي. وقد جاء هذا الإعراض كرد فعل طبيعي لما وقع في الماضي من إقبال الهنود على الغرب وتقليدهم الأعمى للغربيين. والذي يجب ألا يغرب عن البال هو أن استنكار الباطل ودفع المنكر شيء،

وتأكيد الحق والدفاع عنه هو شيء آخر. فإنكار الهنود للأشياء الغربية دونما تمييز وبصورة عمياء من شأنه أن يضر بالهند أكثر من إضراره بالغرب. إن بعض القيم التي تعتبر من الأهمية بمكان بالنسبة إلى الهند قد تتعرض إلى الزوال دونما داع أو مبرر. وإذا ما قدر لهذا الاتجاه أن يستمر فقد تجد الهند نفسها منفصلة عن تيارات الحضارة العالمية، الأمر الذي يؤدي إلى عزلتها وبالتالي إلى ركودها وجمودها. وعندنا أنه ليس من الحكمة إنكار تفوق الغرب حيثما يكون الغرب في الواقع متمتعاً بهذا التوفق. كما أنه لا يليق بنا المغالاة في تمجيد العناصر الهندية لمجرد أنها هندية. ولا يخفى أن الشعور بالنقص يتجلى وينعكس أيضاً في المغالاة بشعور الإنسان بالتفوق. إن قبولنا القيم حيثما وجدت وتوفرت، وبالتالي المبادرة إلى العمل على امتصاصها في بوتقة التراث القومي هي خير برهان على صحة القومية وسلامة عقلها. وإذا تخلفت الهند عن الركب العالمي في سيرة الجبار إلى الأمام فهي تعرض نفسها إلى جسيم الأخطار.

إن مثل هذه المحاولة لإعادة عقارب الزمن إلى الوراء لن يكتب لها النجاح. ذلك أن العزلة التامة تعتبر بحكم المستحيل في عالم مترابط متساند كعالمنا الحديث. أضف إلى ذلك أن العزلة تحمل في طياتها عورات سياسية واقتصادية. فإذا ما تعمدت الهند هذه العزلة أصبحت كريشة في مهب رياح وأعاصير لا تملك السيطرة عليها بدلاً من أن تصبح قوة مشاركة تساهم في التطورات العالمية مساهمة إيجابية بنّاءة. ومن السهل علينا أن ندرك الأسباب والعوامل التي تحمل ذوي الوطنية من الهنود على التردد في قبول القيم الغربية والإقبال عليها، ذلك أن هذه القيم تعيد إلى ذاكرتهم ما تعرضت إليه بلادهم في الماضي من استعمار ثقافي وإهانة قومية.

6 - الفنون والآداب

درجت الهند الحديثة على النظر إلى الغرب والتطلع إليه من منظار إنكليزي، فقد تأثرنا في بادئ الأمر بالأفكار الإنجليزية، أو على الأغلب بالأفكار الغربية التي آلت إلى الهند على أيدي البريطانيين بعد هضمها. ويذهب البعض إلى حد القول إن اللغة الإنجليزية وآدابها هي أعظم ما جادت به بريطانيا على الهند. ولا يستطيع أحد أن ينكر أن هذا القول ينطوي على شيء كثير من الصحة. فتأثير البريطانيين على أزيائنا وعاداتنا وتقاليدنا الاجتماعية كان محدوداً، أما تأثيراتهم على عقليتنا وعلى شعورنا الروحاني فكانت بعيدة المدى.

وقد نسلم أن اللغة الإنجليزية يسرت لنا الاتصال بالآداب الغربية الأخرى. ولكننا بالغنا في تأكيد أهمية الإنجليزية لدرجة حملتنا على التقليل والانتقاص من أي شيء آخر. ولما كانت للآداب الأوروبية الأخرى ميزاتها الخاصة التي تبعدها عن الطابع البريطاني، فإن محاولاتنا لتقويمها ووزنها بالمعايير الإنجليزية قد باءت بالفشل. بل إننا نسعى إلى النظر إلى الآداب الشرقية بالعيون الإنجليزية. وكانت النتائج أحياناً مزرية تدعو إلى الرثاء، كأننا قد نسينا أننا لن نستطيع أن نصبح إنكليزيين كاملين في أفكارنا وشعورنا ووجهة نظرنا. وإن جل ما نستطيعه في هذا السبيل هو أن نصبح إنكليزيين مقلّدين، ولا يسمح للمقلّدين بمواطنية العالم.

وجدير بنا في هذا المقام أن نشير إلى ناحية خاصة من التأثير البريطاني. إن البريطانيين من ناحية تقاليدهم الاجتماعية وعلاقاتهم الشخصية أصبحوا أكثر شعوب العالم تحفظاً. الرجل البريطاني العادي بفضل ما ينفرد به من برودة الطبع قد أصبح مضرب الأمثال. كما أن الحيطة وعدم الاستعجال هي من العوامل التي تتحكم في حياة الفرد

البريطاني الشخصية والاجتماعية. والواقع أن البريطاني له قدرة عجيبة على ضبط عواطفه بل وكبتها. ولقد ذهب نابليون في وصفهم إلى حد القول بأنهم مجموعة من أصحاب الحوانيت الذين يزنون الأشياء بالموازين الدقيقة. بيد أن هذا الوصف صورة لجهة واحدة، لأن عواطفهم المكبوتة هذه تجد لها منفذاً في فنونهم. الواقع أن العاطفة تحلّق عالياً لتبلغ أسمى الدرجات، حتى أصبح الشعر الإنكليزي من أكثر الشعر عاطفة في العالم.

وقد ساقتنا خصائص البريطانيين هذه وفنونهم إلى فهم القيم الأدبية على غير حقيقتها، ذلك أن العاطفة الإنسانية جزء من العناصر الجوهرية بالنسبة إلى الآداب ولا تعتبر غاية في حد ذاتها. ولا يوجد في الآداب الإنجليزية الوضوح الذي يميز آداب اللغات اللاتينية. فقد أثر هذا بدوره على تفاعلنا مع الشعوب الأخرى من غير البريطانيين. وآية ذلك أننا نحكم على حرارة الأمريكيين وإخلاصهم في ضوء المعايير الاجتماعية عند البريطانيين. كما أننا نتوقع أن يتوفر الأسلوب المنطقي عند الفرنسيين أو القانون الفني عند الصينيين بنفس الوفرة من العاطفة التي نجدها في الشعر الإنكليزي.

إن الآداب المحلية كانت قد بدأت تنمو وتتطور حتى قبل حلول البريطانيين. ففي العهدين الباتاني والمغولي بلغ الشعر البنغالي مستوى عالياً من النضوج، وكذلك فإن الأشعار الروحية عند «الماراتيين» تتمتع بقيمة وإعجاب خالدين. كما أن كبيراً واتباعه قد بلغوا حظاً كبيراً من العرفان والفصاحة. وملحمة «راماينا» التي وضعها تولسي داس ما زالت تحتل مكانتها عند الأسر الهندية. وجل ما فعله البريطانيون أنهم أطلقوا العنان لقوى اجتماعية جديدة وأسرعوا في بعث أدب جاء أوسع مدى وجديداً في روحه.

وقد ساعدت الانقلابات في النواحي الاجتماعية والاقتصادية في هذا

الاتجاه. فقد سبق لنا أن شاهدنا ما تعرضت له طبقات المجتمع في البنغال من هزات كان لتعاظم الطبقة المتوسطة واتساع نفوذها دوراً أساسياً فيه فازداد الفراغ. كما أدى هذا التوسع بدوره إلى تأمين الطلب والفرصة للفنون. وإن نظام الملكية الدائمة قد أوجده طبقة متوسطة دائمة النمو والتوسع. وقد ألحق هذا النظام أضراراً بالغة في إقليم البنغال من الناحية الاقتصادية، وبفضل ما ألحقه من شلل للنشاط الفردي وتحويل وسائل الاستثمار من التجارة والصناعة إلى الزراعة. أما في الناحية الاجتماعية فقد خلق طبقة من أصحاب المصالح الثابتة التي اعترضت بدورها تقدم البلاد بأجمعها. وفي الناحية السياسية أقام هذا النظام حاجزاً ما بين الطبقات الفقيرة والمستعمرين المستغلين. أما فوائده فقد اقتصرت على الميادين الفنية بفضل ما كان له من أثر في بعث روح الخلق والابتكار. إن الطبقة المتوسطة في البنغال بعد توسعها قد أنجبت نخبة من الأدباء قلما نجد لهم مثيلاً في الهند الحديثة وفي مقدمتهم الشاعر رابندرناث طاغور بشخصيته العالمية.

وقد ساعد هيجان المعرفة بالشعر الإنكليزي في إنعاش الآداب البنغالية. على أنه من المغالاة أن نقرر هنا أن النهضة الحديثة مردها إلى هذا الهيجان فقط. والواقع أن التربة كانت قد تهيّأت وأصبحت صالحة بفضل الانقلابات السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي أحدثتها غزوة الرأسمالية الأوروبية. ويعتبر تأثير الأشعار الإنجليزية حاسماً في هذا المنظر الخلفي فقط. ولقد سبق لنا أن نوّهنا بطابع العنف الذي يلازم الاختبارات والتعبيرات اللطيفة الإنجليزية. إن الشعر الإنكليزي يتميز بإبرازه للعواطف والأحاسيس الشخصية أكثر من تميزه بالاتزان والكتمان، وهما العاملان اللذان يعتبران محكاً للكياسة والنظام الاجتماعي. إن الفردية التي ينفرد بها البريطاني لتتجلى في نواح أخرى أيضاً. فالبريطاني ينظر عادة إلى

منزله كحصن لا ينازعه في ملكيته منازع. وهذه الفردية هي أيضاً من الصفات الملازمة للطبقات المتوسطة، وكما لا يخفى في ذلك فإن الحضارة البريطانية هى أيضاً بورجوازية على مستوى الطبقة الوسطى.

إن توسع الطبقة الوسطى بصورة غير طبيعية قد أوجد الظروف التي أدت بدورها إلى انهيار الأنظمة الاجتماعية الهندية القديمة. فقد شهدت البلاد قيام نزعة في الجيل الجديد إلى الحرية وميل نحو الثورة على السلطة والتألب عليها. وأخذت الطبيعة القومية تتكشّف عن روح جديدة من قوامها الفردية والإثارة والتشكك. وقد وجد الجيل الجديد ضالته في الأشعار الإنجليزية التي جاءت معبرة عن أمانيه بحكم إبرازها حرية الفرد وتأكيدها لها. وكان هذا الغليان الفكري أشد وأقوى ما يكون في الإقليم البنغالي. إن الأشعار البنغالية بدأت منذ قدوم الأوروبيين تعكس طابع الفردية والإثارة والتشكك. وتغلغلت جذور الفردية في هذه الأشعار لدرجة أصبح معها الشاعر وحيداً في عالم غريب. وتعتبر أشعار طاغور بما يتخللها من شجن وانكماش خير معبر عن هذه الروح. وقد استمرت هذه العملية إلى أن بلغت مرحلة غدا معها الفرد غير بعيد عن أقرانه وحسب بل وغريباً عن نفسه أيضاً. على أن انعدام التنسيق والترابط هذا لم يكن ليقتصر على الأشعار البنغالية فحسب، ولكنه يتجلى في مختلف ميادين الفن الهندي المعاصر.

إن الاهتمام بالفرد يؤدي إلى تفكك الروابط الاجتماعية. وخلافاً لذلك، فإن التقاليد والعادات تعمل كلاحم يربط المجموعة معاً. أما شرط التكامل الاجتماعي فينحصر في خضوع الفرد لأهداف المجموعة. فعندما يترفع الفرد عن المجموعة تبدأ الأنظمة الاجتماعية القديمة بالانهيار. وكثيراً ما تنعكس ظاهرة الانحلال الاجتماعي في انبعاث الآداب والفنون بصورة مفاجئة. وذلك أن الفنون على أنواعها هي في الواقع تعبير عن ذاتية الفرد.

وقد يكفي للانتقاص من تحفة فنية والطعن في جودتها أن يقال فيها إنها من نتاج عادي أو عام. يستنتج من ذلك أن البيئة الاجتماعية التي يضحى فيها بالتقاليد على مذبح الفردية كثيراً ما تهيئ الجو لانتعاش الفنون وازدهارها. ولعل ما لازم توسع الطبقة الوسطى في الهند في محاولات وتجارب في ميادين الفن المختلفة لم يأت عفواً ولم يكن من باب المصادفة.

ومما هو جدير بالملاحظة أن الفن الهندي في جميع مظاهره العصرية جاء خلواً من العمارة. فليس هناك أي نصب معماري مهم في الهند المعاصرة. على أن ذلك لا يرجع إلى نقص في طبيعة الهنود، فآثارهم المعمارية القديمة تشهد بتذوقهم الذهني للجمال. إن طابع التعقيد الذي يتجلى لنا في مباني المعابد في جنوبي الهند يضارعه ما تعكسه هذه المباني من متانة وعظمة. كما أن خطوط البناء التي تتجلى في أضرحة الأباطرة المغول قد قصر وعجز عن تحقيقها وبلوغها عباقرة المهندسين المعماريين في العالم أجمع. والواقع أن إخفاق الهنود في التعبير عن ضخامة البناء وجسامته على وجه لائق ممتاز هو حديث العهد. ويعود السبب في ذلك إلى طبيعة الهندسة المعمارية نفسها. وما ينطبق عليها ينطبق أيضاً على فن الدراما، وهو الميدان الذي لم يتسن للهنود في الأعوام الأخيرة أن يحققوا ما سبق لهم أن حققوه في الماضي من روائع.

إن الهندسة المعمارية تنفرد من بين جميع الفنون بالاعتماد على التذوق الإجتماعي للجمال. فبوسع الشاعر أن يسبح في عالم الفردية سعياً وراء فكرته، وقد يتسنى للرسام أيضاً بلوغ درجات الكمال في عزلته. كما تتعالى الموسيقى عن الفرد، ولكن كانت تستمد أسسها من النشوة الفردية. أما الهندسة المعمارية فمكتوب لها ومحتم عليها في جميع مراحلها أن تعتمد على الاعتبارات الاجتماعية. ذلك أن إقامة وتشييد أثر معمار [فخم] تستدعي تضافر وتعاون عدد كبير من الأشخاص. ولا يكفي للمعمار الرئيسي أن يكون

حاملاً الشعور الفني فحسب، بل لا بد لزملائه أن يكونوا مثله. كما تقتضي أن يكون المجتمع بأسره مشبعاً بوحدة الأهداف والأغراض. ويلاحظ أن أروع ضروب الهندسة المعمارية في التاريخ وأضخمها إنما شيد وأقيم عندما بلغ المجهود المشترك الجماعي أقصى حدوده. وما الكنائس التي بناها القوط في أوروبا والهياكل المنحوتة في الصخر التي تشاهد في جنوب الهند أو المساجد العظيمة التي أشادها العرب إلا رمز يعبّر عن مجتمع موحد ينعم بالطمأنينة والسلام، والثابت أنه كلما تعرض التضامن الإجتماعي إلى الزعزعة فإن الهندسة المعمارية كانت في طليعة الفنون التي تتضرر. وكذلك الحال في التمثيل فإنه للأسباب نفسها ما عرف انتعاشاً وازدهاراً إلا حينما كان المجتمع متأثراً بمبادئ وأهداف مشتركة.

7 - الشباب الثائر

من خصائص الهند الحديثة التي تستدعي الانتباه، موقف التحدي الذي يقفه أبناء الجيل الجديد.وهذا لا ينحصر في طبقة أو طائفة أو منطقة معينة، بل إن موجة ثورية جامحة اكتسحت البلاد وتركت أثرها في الرجال والنساء من كل بيئة. والليونة المشهورة التي تنفرد بها طبقة الفلاحين إما أنها زالت أو أنها في طريق الزوال السريع. وطبقة العمال الهنود دأبت على المطالبة بمستوى إنساني من المعيشة والمعاملة، وكثيراً ما تمكنت من الحصول عليه. ولم تعد طبقة الطلاب تدين بالطاعة والاحترام للآخرين. وحتى النساء فقد أخذن يناضلن في سبيل مساواتهن في الحقوق مع الرجال، وقصارى القول إن قافلة الجيل الجديد بدأت تسير قدماً غير حافلة أو عابئة بحدود العهد الماضي وامتيازاته.

أما الشيوخ أو رجال العهد القديم ومن بينهم رجال الحكم فكثيراً ما ينظرون إلى تحدي الشباب للسلطة، على أنه نوع من الشغب والخروج عن النظام الذي يستدعي الأسف أو يحملهم على التنبؤ بالمستقبل الرهيب المظلم الذي ينتظر الهند. ومهما كان الأمر فإن موقف أفراد الجيل القديم ليس له ما يبرره أو يسوغه إذا ما قيس على أضواء الاعتبارات التاريخية، بدلالة أن الأفكار السياسية القديمة قد انهارت، والقيم الاجتماعية القديمة فقدت سيطرتها على النفوس، وأخذ النظام الإقتصادي القديم بالتداعي والانهيار إلى آخر الدرجة. وكذلك الديانة لم تعد مصدر عزاء أو سلوى كما كانت في السابق، بل استحوذ القلق والريبة والتردد على أفكار الناس وأعمالهم في كل ناحية. وليس بالمستهجن الغريب بعد أن تلاشت القيم القديمة وانهارت أن الشبيبة الهندية أصبحت قلقة حائرة وأحياناً ميالة للشغب.

وما أبداه الجيل القديم من قلق إزاء التطورات لم يكن غير متوقع أو غريب في بابه، ذلك لأنهم عاشوا وترعرعوا في بيئة تقوم أسسها على الطاعة للسلطة. وكانت الحيثية تحكم العلاقات السياسية والاقتصادية.

والحيثية كانت ثابتة كثبات قوانين الطبيعة نفسها. وحتى الأديان فإنها بفضل تأكيدها على أنها موحاة ومصدقة ساعدت على الاحتفاظ بالحالة السائدة. ورغم أن الإسلام تمكن بفضل ديمقراطيته الثورية أن يهز دعائم نظرية المصادقة والوحي إلا أنه لم يوفق إلى هدمها. على أن تأكيد الإسلام لخاتمية الوحي شجع بدوره على قيام روح الاستبداد في نفسه، وكانت الاتجاهات الرجعية والاستبدادية أكثر تجلياً في المسيحية. وخلاصة القول إن جميع الديانات الهندية قد تضافرت معاً في المساعدة على تحكيم النظام الاجتماعي المستبد. وطبيعي لكل من شب وترعرع في بيئة كهذه أن تمر به الانقلابات والتغيرات الهادئة التي كانت تجري من حوله دون أن يعيها أو يشعر بها. ولم يكن لمثل هؤلاء أن يشعروا بالتطور إلا بعد أن قرب اكتمالها، وعندها بدأوا يدركون في كثير من الدهشة الفرق الذي طرأ ما بين العهد القديم والعهد الجديد.

وهناك تعليل آخر للاستكانة التي تلازم وجهة النظر التقليدية الهندية. إن الاستعمار لا يتفق مع النزعات الرامية لتحدي السلطة. وكلما دخلت ديانة جديدة في الهند فقد لازمتها دائماً أبداً قيام امبراطورية جديدة. ففي العهود الهندية كان انتعاش البوذية والبراهمة أو زوالهما، يتوقفان على ما يصيب أية أسرة إمبراطورية منافسة من نجاح. وفي القرون الوسطى ازداد انتشار الإسلام بفضل قيام سلطة المسلمين في دلهي. وفي الأواني الأخيرة جاءت المسيحية على أعقاب النجاح الذي صادفه البريطانيون في بسط سيطرتهم على الهند.

إن الإسلام أو المسيحية في تسربهما إلى الهند لم يعتمدا على مساندة عسكرية. على أنهما لم يجدا مكانة هامة في البلاد إلا بعد النجاح الذي لقيه أتباعهما في بسط سيطرتهم العسكرية. ومن المؤسف أن ينتج عن هذا الواقع اختلاط التأثيرات الروحية والمادية. والواقع أن المكائد السياسية التي كان الملوك المسلمون المتنافسون يحيكونها ضد بعضهم بعضاً، قد حجبت

التعاليم الجوهرية في الإسلام. وكادت المسيحية بدورها تعرف بأخلاق الطبقات البريطانية الحاكمة، وعلى ذلك أصبحت الديانات منخرطة في سلك حكومة إمبراطورية، ولا تترك حكومة إمبراطورية مجالاً لأي وجهة نظر عقلية نقادة أن تنمو وتترعرع. إن التعليم يصوغ عقول الناس ويجدد طبائع الفرد والمجتمع على السواء. فقد عمد النظامان الإمبراطوريان إلى إقامة التعليم على أسس التسليم المحض ومقاومة حركة النقد والاستطلاع.

بيد أن السنوات الأخيرة شهدت تغيراً خفياً ولكن ملحوظاً في هذه الاتجاهات. ذلك أن الاكتشافات العلمية قضت على القديم من وسائل الإنتاج وتوزيع البضائع على الأسواق. وكذلك فإن استخدام الإنسان للآلات أسفر عن زيادة كبيرة في الإنتاج وتطلّب أسواقاً بعيدة. وقد أسفر الانقلاب الذي طرأ على وسائل الإنتاج عن ثورة أخرى في وسائل المواصلات والاختلاط. كما أن الاتجاهات الدينية والثقافية اكتسب نفوذاً واسعاً جديداً. ولما تزايدت حركة التنقل بين المدن والقرى أخذ نفوذ المدن بالنمو المتواصل. وبما أن المدن بطبيعتها هى المصدر لعمليات الاختمار والتغيير، فقد أدى تعاظم أهميتها في بعث قوة ديناميتية متينة جديدة في المجتمع. وتيسر للاتصال والاختلاط الذي تم بفضل السكك الحديدية ودوائر البريد والمطابع إزالة الحواجز الدينية والاجتماعية وكما أضعف من نفوذ السلطة.

وفي نفس الوقت، فإن نمو الطبقة المتوسطة قد أشاع جواً مفعماً بروح التمرد والفوضى، وقد أدى هذا بدوره إلى مزيد من المعارضة لسلطة التقاليد القديمة. وإن الأهلين وعلى الأخص الجيل الجديد من بينهم، أصبحوا أكثر تجاوباً مع التأثيرات الحديثة أو الأجنبية. وكذلك اصطدمت القوى السياسية بالقوى الاقتصادية، فأحدثت اختلالاً جديداً بالتوازن. ومع أن الاستعمار الجديد كان يسعى لخلق طبقة متوسطة كبيرة الحجم، إلا أنه لم يشجع على قيام رأسمالية محلية. وظهر هذا التناقض الجوهري في التبرم

الذي أبدته الأقلية المثقفة المتيقظة ضد الأوضاع السياسية. وهذا سرعان ما عم المجتمع بأسره، وتحول إلى قلق عام وميل إلى نبذ القيم القديمة.

وحالة الغليان الموجودة في الهند الآن، هي صورة معبرة عن الحالة السائدة. إن القوى التاريخية التي تتحكم في مصير الهند تقف موقف التحدي من أسس المجتمع والتعليم المبنية على السلطة. وكما أن الفورة الأولى من فورات التحرير الفكري تؤدي عادة إلى الإقدام على أعمال متطرفة عنيفة في شتى النواحي والميادين. فإن رد الفعل الذي تحدثه يكتسب عادة نفس الطابع من الحدة والعنف، وقد استمرت على ذلك عملية التأرجح والتردد بين طرفي النقيض ومضت دون أن تقف عند حد. ولا مندوحة في مثل هذه الأوضاع والظروف لقيام فترة انتقال بين عقلية تقوم على أساس الطاعة للسلطة وأخرى تقوم على المساواة العقلية عن أن يلازمه عوامل الاضطرابات والثورة.

وعندنا أن هذا التحول من حال إلى حال إنما هو نتيجة حتمية لعملية طويلة من الانقلابات والتغييرات الانتقالية. ولم تأت الانقلابات والتغييرات مفاجأة ولم تكن وليدة المصادفة، فقد سبقها فترة طويلة من الاستعدادات، ومضت نحو أهدافها بصمت وهدوء دون أن تسترعي انتباهاً أو تلفت نظراً. أما الصدمة التي أحدثتها هذاه الانقلابات فاقتصرت على أولئك الذين كانت قد تحجرت عقولهم وعاداتهم. على أننا لا نسوغ لأنفسنا المبالغة في مدى هذه التغييرات. إن العادات الاجتماعية دائمة التغير والتبدل إلا أن المعتقدات الاجتماعية بقيت إلى حد بعيد على ما هي عليه لم تتحول ولم تتبدل. وحركة النقد وتدقيق الأمور على أضواء العقل والمنطق لاقت انتشاراً أكثر من اكتسابها شدة. وإنه لمن العجب أن الاتجاهات الفكرية العصرية اختلطت وتمازجت بأحاسيس بالية قديمة. إن الهنود المعاصرين يفكرون ويتحسسون ويعملون على مسطحات عديدة في آن واحد، فيرون الماضي والحاضر والمستقبل في طراز عجيب يخيب عمل التحليل والوقوف عليه.

8 - النهضة وحركة البعث

إن ما وقع في الهند الحديثة من خلط بين القومية والاتجاهات المبهمة الغامضة لطالما استرعى الأنظار، ولعل الظاهرة الأخرى التي تعتبر أشد مدعاة للاستغراب هي الجمع بين اشتراكية نظرية وطائفية متشيعة متطرفة. إن المطالبة بتحقيق العدالة الاجتماعية هي الدعامة التي تقوم عليها جميع النظريات الاشتراكية، ولكن في الهند جردت الاشتراكية من إطارها وشوّهت لتوافق الفئة ذات مصالح التي تستغل الطائفية لخدمة مآربها. والدعوة إلى الشيوعية لم يعد لها تلك القوة التي تجمع بين الفئات المختلفة من الطبقات الكادحة المستغلة. فقد أصبحت بدلاً عن ذلك وبفضل ما تسرب إليها من عوامل واعتبارات دينية خارجية، أداة للمحافظة على مساوئ النظام الإجتماعي القائم.

ولذلك فإن النهضة وحركة البعث تسيران في اتجاهات متعاكسة في الهند العصرية. فقلاع التقاليد القديمة قد قوضت من أركانها ولم تعد السنّة القديمة القائمة على التسليم صالحة كأساس للحياة الاجتماعية الهندية. والضمانات القديمة لتأمين مستقبل الفرد تلاشت بدورها وتلاشت معها المبادئ القديمة المعروفة. وقد جعل الترابط القائم بين الشؤون العالمية واتصالها بعضها مع بعض المحاولات الرامية للمحافظة على العزلة والانطواء غير ممكنة. ذلك أن فريقاً من الناس ممن ليس لنا بهم أي اتصال أو ممن لا مجال للاتصال بهم هم الذين يتحكمون بمصير حياتنا. كما أن بعض القرارات التي لا تمت بصلة ما لأمانينا ومطالبنا قد تكون بمثابة الموت والحياة بالنسبة إلينا. فلا غرابة، والحال كذلك، أن نلمس مظاهر الاضطراب والفوضى تعم الشعب بجميع طبقاته.

ويستدل من كل ذلك أن حالة عدم الاستقرار والغليان هي من العوامل المميزة للهند المعاصرة. فشعبها العريق في قدمه سائر قدماً إلى الأمام،

ورغم أن الهند الحديثة لم تجدد مبادئها بعد، إلا أنك تتلمس بوادر حركة بعث جديد في كل مكان. لقد تعرضت الهند في عصورها القديمة والوسطى إلى انقلابات ذات أثر بعيد. بيد أنها لم توح بأن الهند مصممة على التخلي عن الروابط القديمة. أما الانقلابات التي وقعت في الهند خلال القرنين الأخيرين، وعلى الأخص ما وقع منها خلال الثلاثين والأربعين سنة الأخيرة، فإنها تختلف اختلافاً كلياً عن سابقتها. فتتراءى كأنها لا صلة لها بالماضي وتحمل في طياتها جميع بوادر بداية جديدة تماماً.

من الخطأ أن نعتقد بأن كل ما هو حديث جديد بالمرة. ذلك أن المراحل الحالية هي ذروة عملية بدأت من زمن بعيد واستمرت عبر القرون. ومع ذلك، فلا سبيل للإنكار بأن هذه الانقلابات أدت إلى تخلي الهنود عن ماضيهم. وإن وقوع مثل هذه التطوّرات لا يختص بالهند فقط. فالانقلابات التي وقعت خلال القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة، قد أحدثت تغييرات في الحياة البشرية والثقافة على وجه لم يسبق له مثيل في التاريخ المدوّن. والواقع أن سرعة الانقلاب قد زادت إلى حد مخيف منذ أوائل القرن الجاري.

إن العهد الحديث في الهند لم يشهد انقلابات سريعة فحسب بل شهد أيضاً عمليات التوحيد على مدى ونطاق لم يعهد به من قبل. لقد عرف العالم في الماضي حضارات متعددة، ولكنه قلما شاهد قيام حضارة عالمية. فثقافة الهند القديمة كانت موضع اهتمام الهنود فحسب. والثقافة الرومانية اقتصرت على حوض البحر الأبيض المتوسط. وكذلك الحال في الحضارة الصينية لم تكن لها سمعة تذكر خارج حدودها، بل إن الحضارة العربية إقليمية أكثر منها كونية، رغم أنها كانت أعم انتشاراً. والواقع أن الظروف المادية الضرورية لقيام حضارة عالمية بالمعنى الصحيح لم تكن قد توفرت بعد في ذلك الحين. على أن تغلب الإنسان على الطبيعة وقهره لها أوجد للمرة الأولى حضارة قد تعمل على أسس عالمية.

تتجلّى أهم العوامل المميزة للحضارة العالمية في حماستها لتحقيق العدالة الاجتماعية. فهي تتحدّى نفوذ الاستعمار والاستغلال. وتهاجم عدم المساواة وتندّد بانعدام العدالة في مصدرهما. أما السلاح الذي تستخدمه في هذا السبيل فهو الماكينة التي تطلق قوى البشرية وتهيئ الفرصة لكل فرد للتمتع والترفيه عن نفسه. ولأول مرة في التاريخ يلاحظ أن استعباد الطبيعة قد أدى إلى عدم حاجة الإنسان إلى استعباد الإنسان. لقد أخذ أصحاب العقول الحادة المثقفة من رجال ونساء يحلمون بنظام اجتماعي جديد. وإن هذا الحلم قد أخذ يتبلور ويتحقق نتيجة لتغلب الإنسان على قوى الطبيعة.

فتح التغلب على الطبيعة أمام الإنسان آفاقاً جديدة لم يحلم بها من قبل قط. وآية ذلك أن أشد أفراد المجتمع فقراً يتوفر لديه اليوم من الموارد ما كان ليحلم أو ينعم بها سابقاً أعاظم الحكام في العالم. ففي وسع الرجل العادي الآن أن ينعم بمستوى من المعيشة لم يكن في متناول أقوى السلاطين في العالم. وأصبحت اليوم الأشياء التي كانت تعتبر في الماضي في عداد الكماليات من أبسط الضروريات. ويمكن الحصول على كل ذلك على نطاق عالمي حقاً. واتساع المجالات والفرص لا يقتصر وجوده في داخل البلاد فحسب، بل بين الدول كذلك. فالأشياء التي كانت في يوم من الأيام حكراً على طبقة معينة من طبقات الشعب في بلد من البلدان أصبحت اليوم في متناول البشرية بأسرها.

وبقدر ما توسعت الحضارة وغدت في عصرنا الحاضر على نطاق عالمي، فإن النكبات والأخطار التي تتهددها قد اكتسبت بدورها طابعاً عالمياً. وقديماً كان تدهور حضارة ما لا يتعدى تدهور طبقة معينة في أي بلد من البلدان، ولكن رغم تدهور هذه الطبقة لا تفقد الآمال بقيام طبقات أخرى في ذلك البلد أو غيره على الأقل، تتولى حمل شعلة الحضارة وتعمل على المحافظة على تقدم البشرية، ولكن اختفت هذه الإمكانية اليوم، نظراً لتغلب الإنسان المتزايد على عالم الفضاء والزمن، والانقلابات الثورية

التي طرأت على وسائل ونطاق الإنتاج وتوزيع البضائع وتكامل الأنظمة الاقتصادية والاجتماعية في مختلف البلدان والمناطق في العالم. إن عالماً موحداً هو الآن في طريقه إلى التأسيس إن لم يكن قد تأسس في الواقع. وقد قدر لمصيره أن يكون واحداً أيضاً. وعلى غرار الحرية والسلام أصبح تقدّم العالم الآن غير قابل للتجزئة.

تنشأ الصراعات عن الشعور بوقوع الخطأ. فإذا لم يبادر للعمل على إزالة أسباب الصراعات تعرض كيان الحضارة العالمية بأسره إلى الانهيار. إن الحربين العالميتين اللتين شهدتهما البشرية في خمسة وعشرين عاماً تذكرانا بذلك الخطر. فلقد برهنتا على عجز الاستعمار عن تحقيق توازن دائم رغم الجهود التي يبذلها للتسوية. إن الاستغلال الإقتصادي وما يلازمه من شعور بالخطأ، هما جزآن ملازمان لطبيعة الاستعمار. ولا يمكن تجريدهما منه إلا بإلغاء الاستعمار نفسه. وتلتقي مبادئ العدالة واعتبارات البقاء في الدعوة إلى إعادة تنظيم المجتمع على أسس جديدة.

الخطوة الأولى لإعادة التنظيم هي تحقيق استقلال الهند. فالهند التابعة ليست هنداً محقرة فحسب، بل هنداً كئيبة كذلك. ويعنى ذلك عدم الانتفاع من مصادرها الإنسانية والمادية الجبارة. والنظام الإقتصادي القائم على العسر، من شأنه أن يؤدي إلى قيام مجتمع مضطرب. إن ما يلازم المجتمع الهندي الحاضر من عوامل الالتهاب إنما يرد إلى العسر الإقتصادي. وما يتراءى لنا في الظاهر بأنه حزازات طائفية واختلافات إقليمية لهو في الواقع محاولات ومجهودات لتأمين البقاء. فقد دمّرت الصناعات الهندية، والزراعة الهندية لا تستطيع إعالة السكان المستمرين في التزايد، وغدت الوظائف السبيل الوحيد الذي يضمن للفرد راحته ومستقبله. وهذا ما سبب منافسة غير طبيعية للحصول على الوظائف لأجل البقاء. وفي هذا النزاع للبقاء يمسك الفرد والجماعة بأول وسيلة يجدونها حولهم. أما أرباب المصالح الثابتة ففي وسعهم تأمين ترفهم وانتزاعه من فم العهد القائم. ففي مقدور المليونير مثلاً، من أي جنس أو لون

كان، أن يتمتع دائماً بخيرات الحياة وأطايبها. أما الهتافات والصيحات الطائفية فتحوّل أنظار الطبقات المستغلة عن عدم المساواة الفاحش. إن الطائفية بالنسبة إلى أرباب المصالح هي آخر معقل من معاقل الدفاع.

وهكذا يمكن تحويل الأنظار عن الشرور الفظيعة إلا أن ذلك لن يساعد في حل المشاكل. فالنفرات الطائفية باقية مستمرة تغلي وتفعل فعلها في الصدور. أما الروابط الاجتماعية فآخذة بالانحلال. وأصبحت قواعد النظام والكياسة القديمة التي شيدت بعد قرون من الجهود وضبط النفس مهددة بالخطر. فالمجتمع المدني أشبه ما يكون بالسد الذي يحبس مياه التيار. ما دام السدّ قادراً على الصمود كلما فإن احتدام التيار لا يجدي. أما إذا نجح التيار في إحداث ثغرة مهما كانت ضئيلة فإن الأخطار الناشئة لن تقتصر على السدّ نفسه فحسب، بل تتعداها إلى المناطق التي يفترض في السدّ وقايتها من أخطار الفيضان. وهكذا مسألة الضوابط التي وضعتها الحضارة. فإذا ما قدر لها أن تتفكك وتنهار فإن نظم الحياة التي يفترض فيها أن تصونها من البعث تغدو مهددة أيضاً. وإن ما قد يبدأ كصراع طائفي قد يؤول في النهاية إلى حرب أهلية. والحروب الأهلية سرعان ما تنتقل إلى حروب دولية. ومع أسلحة الفتك والتدمير العصرية، فإن الحروب الدولية تنذر بالقضاء على الحضارة البشرية نفسها.

لذا فإن مشكلة حصول الهند على استقلالها وسيادتها لا تعتبر من المشاكل التي تهم الهند فحسب. فالتيارات العالمية بلغت شواطئها وأرغمتها على السير في طريق الوحدة والتنسيق التي كتب عليها أن تسير فيه. إن خضوع الهند سياسياً للسيطرة الأجنبية يجعل دورها سلبياً بالنسبة إلى القوى العالمية أكثر منه عملياً على مسرح العالم. وفي هذا ما فيه من أخطار لا تهددها فحسب، بل تهدد العالم أيضاً. فخضوع الهند للسيطرة والاستغلال قد يشجع دولاً أخرى غير الدولة التي تستغلها على تجربة حظها في عملية الاستغلال. وذلك يهددها بالأخطار التي تجلبها على نفسها لأنه يحول بينها وبين تقدمها ونموها نمواً حراً طبيعياً. فإذا ما اضطهدت ورزحت تحت المعاناة والاضطهاد والألم،

فإنها تصبح مصدر عدوى للعالم الخارجي. فالهند المتمتعة بالحرية والسلام بمثابة معقل من معاقل السلام العالمي. فهي لا تساعد في ضبط الغليان في الشرق الأدنى وكبح جماحه فحسب، بل إنها ستلقي بقوتها الجبارة إلى جانب القوى العاملة من أجل السلام العالمي.

إن الهند مما يتوفر لها من ثقافة هي مزيج من ثقافات مختلفة مستمرة تجمعت لها عبر القرون، وفي وسعها أن تغذي العالم بالغالي النفيس. فقد أيقظت المؤثرات الغربية الهند من سباتها العميق وأخذ دم الشباب الجديد يسري في عروقها. كما أن مشاكل جديدة أخذت تحرك وتثير وعيها من أعماقه. ناهيك عن أن الصراع القائم بين الآراء الشرقية والغربية قد بعث فيها يقظة دينية واجتماعية جديدة. ولا تقتصر هذه النهضة على تحري الحقيقة الروحية والسعي ورائها فحسب، بل تتعداها إلى التخفيف من حدة النظم الاجتماعية الاستبدادية القديمة. ولقد شهدت الهند خلال القرن التاسع عشر ظهور عدد من رجال الإصلاح وإن كانت تأثيراتهم قد بقيت سطحية لم تتغلغل إلى أعماق الحياة الهندية. ويلاحظ أن القصة نفسها تتكرر في الميادين السياسية والاقتصادية أيضاً. فقد دمّرت الأنماط القديمة، لكن لا توجد ضمانة بقيام بعث جديد.

تمكّنت الهند المعاصرة في الميادين الفنية من بلوغ شأو جدير بماضيها التليد. والفنون هي في الصميم طلب الفرد في أرجاء روحه الوحيدة المنعزلة. والفن المعماري والتمثيلي، حيث الفن ما زال قائماً على اعتبارات طائفية، لم يولد بعد. وحتى في ميدان الرسم والشعر فإن الروح التي تكتنفها الوحدة الموحشة سرعان ما يعتريها الكل والملل، إذا لم توفق إلى تجديد قواها وحيويتها بما تستمده من أعماق الفكر القومي. إن فن الرسم والشعر الهندي في نموه أشبه ما يكون بشجر الصبار الذي ينمو في أكناف الجبال على تربة قاحلة ليست عميقة الغور. فهي رغم روعتها تبقى دخيلة لا تنفذ إلى روح الشعب.

ولعل ميدان الفلسفة هو أكثر الميادين برهانا على إخفاق الهند في أن تحقق ما هو جدير بها. ذلك أن الفلسفة من عادتها أن تنظر إلى ادعاءات المعتقدات السائدة. فهي تخضع قواعد المدنية المتفق عليها إلى عملية من التدقيق والتمحيص. وصفوة القول إنها نقد المرء لما يفترضه دينه. فلا مندوحة من وجود حضارة وثقافة عريقة ليتسنى للفلسفة أن تنتعش وتزدهر. وإذا ما حدث وكانت هذه الحضارة في دور الانحلال أو الثقافة في دور الصهر فليس لنا أن نتوقع للفلسفة أن تنمو وتزدهر. وعندنا أن ندرة الإنتاج الفلسفي خلال القرون الثلاثة أو الأربعة الأخيرة إنما يقيم البرهان على ما تعرضت له الثقافة والحضارة الهندية في هذه الفترة من ضحل وعقم.

إن هناك الآن بوادر حركة بعث جديد في جميع النواحي والمرافق. ذلك أن الغليان والاضطراب الذي يضطرم في جميع نواحي الحياة الهندية وفكرها إنما يرمز ويوحي بقيام عهد جديد. ولا بد للإجرام أن تصطدم وتتفتت إلى أجزاء صغيرة لكى يتسنى لشمس جديدة أن تأتي في حيز الوجود. كانت الهند القديمة رائعة في خلق جو من التنسيق والوفاق. أما العالم العصري فتحدوه رغبة كامنة في خلق حياة جديدة لا تعرف معنى للصبر. وأضيف إلى تقاليد وحدة الحية القديمة مطلب جديد بتحقيق المساواة والعدالة. ولا مندوحة للقيم القديمة والحديثة أن تصطدم معاً قبل أن تشهد الهند قيام إنسانية جديدة. إن هذا المهد القديم للعالم قد تحول مرة أخرى إلى ميدان الصراع بين قوى وعوامل متناقضة متباينة. وعلى الشبيبة الهندية في مثل هذه الأحوال أن تلعب دورها اللائق في هذه العملية. وعليها أن تحافظ على كل ما هو غالٍ وثمين من حضارة الماضي المتداعية مع العمل في نفس الوقت على صياغة المطالب الجديدة للحضارة العالمية الناشئة، وعلى عواتقهم تقع المسؤولية في تحقيق عملية تنسيق جديدة ما بين تراث العالم بعهوده القديمة والمتوسطة والحديثة وتكسبه ثروة على ثروة.

يوليو 1946

ملحق

ما كادت الهند تتبوأ مراتب الاستقلال حتى بدأ فصل جديد من قصتها 20التقريب، قائماً على عوامل الاتصال والاستيعاب والتوفيق. وما إن دخل عامل الغرب حتى بدأت الاتصالات تنقطع بين الطائفتين. فكأن الثقافة التي اشترك في بنائها الهندوس والمسلمون في نحو ألف عام غدت مهددة بالانحلال. وقد قامت كل طائفة من الطائفتين من ناحيتها بمجادلات لإحياء الأساليب والنماذج الأصلية لثقافتها. ولاقت هذه الحركة أحياناً عن قصد، وكثيراً عن غير قصد، تشجيعاً من جانب حكام البلاد البريطانيين. لكن عندما أخذ عهد الحرية والاستقلال يدنو ويقترب، بدأت آمالهم وخشياتهم تتعاظم. ولا نجدنا في حاجة إلى التعرض إلى تلك الفترة المضطربة المؤسفة من تاريخ البلاد التي كانت مزدحمة بالتناحر والمؤامرات في السنين الأخيرة. يكفينا القول إنها قد أدت بالتالي إلى تقسيم البلاد وقيام دولتين منفصلتين.

إن الثورة الصامتة التي كانت قد اختمرت في الهند خلال المئة عام الماضية أو أكثر، قد أسفرت بالتالي عن بلوغ الهند درجات الاستقلال السياسي. وقد امتازت هذه الفترة من تاريخ البلاد بأكملها بالاضطرابات والغليان. وفي حين أن هذه النهضة كانت تتجلى وتعبر عن نفسها بالتمرد والخروج على معايير والقيم القائمة، إلا أنها عبرت عن نفسها أحياناً في ازدهار وانتعاش الميادين الفنية أو حركات الإصلاح الديني أو الإجتماعي. ومن المظاهر المشتركة فيها جميعاً حب الاستطلاع أو النزعة إلى الثورة. إن هذا التبرم جاء في حد ذاته برهاناً على أن البلاد بدأت تبعث بعثاً جديداً.

ازدادت حركات الغليان والاضطراب والانحلال وتفاقمت منذ حصول

البلاد على استقلالها. ذلك أن الهزات النفسية التي حققت للهند استقلالها لم تهدأ. ولم يتسن لها بعد إيجاد توازن في الميادين السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وهناك ما يوحي بأن عمليات التوفيق والتنسيق الباهرة بين القومي والعناصر المختلفة التي قامت في العهود الغابرة ما زالت نشطة فعالة. وقد كان التسامح الذي أبدته الهند القديمة يحمل على محمل الخنوع والاستسلام. أما الهند الحديثة فتحدوها رغبة كامنة في خلق حياة جديدة لا تعرف معنى للصبر، والجو يبشر ببوادر عهد جديد.

لقد بدأت إعادة تنظيم الجهاز الإقتصادي الهندي من أسسه. فبدلاً من النظام الإقتصادي السائد في البلاد إلى الآن مع كل ما يلازمه من القلة، بدأت الهند تبذل جهدها في قيام نظام اقتصادي يؤمن لها الوفرة بحيث يمكن لكن فرد من أفراد المجتمع أن يساهم فيه وفقاً لكفاءته وطاقته ويجد جزاءه وفقاً لاحتياجاته. لقد أفادت الهند من الخبرات التي اكتبستها أوروبا الغربية في تطبيقها مبدأ حرية التجارة والعمل، كما أفادت من أوروبا الشرقية وأنظمتها الدكتاتورية المركزية. والهند تعمل جاهدة على إقامة نظام اقتصادي متوازن يتيح مجال العمل للشعب والنشاط الشخصي على السواء. وسيخضع عدد كبير من الصناعات الأساسية لسيطرة الدولة وإشرافها بصورة تدريجية. أما الصناعات الثانوية والأخرى التي تعتبر من الدرجة الثالثة التي تتولى إنتاج سلع استهلاكية فستترك إدارة العدد الأكبر منها إلى المؤسسات الفردية. فالهند تعمل على إقامة جهاز اقتصادي مزدوج يعتمد على الجهود العامة والفردية، كما أنها تقوم بتجارب لاستنباط الطرق والوسائل التي يتسنى معها الجمع بين الصناعات الصغيرة والصناعات اليدوية في ظل نظام يؤمن إنتاج الأشياء اللازمة في جو صناعي معملي.

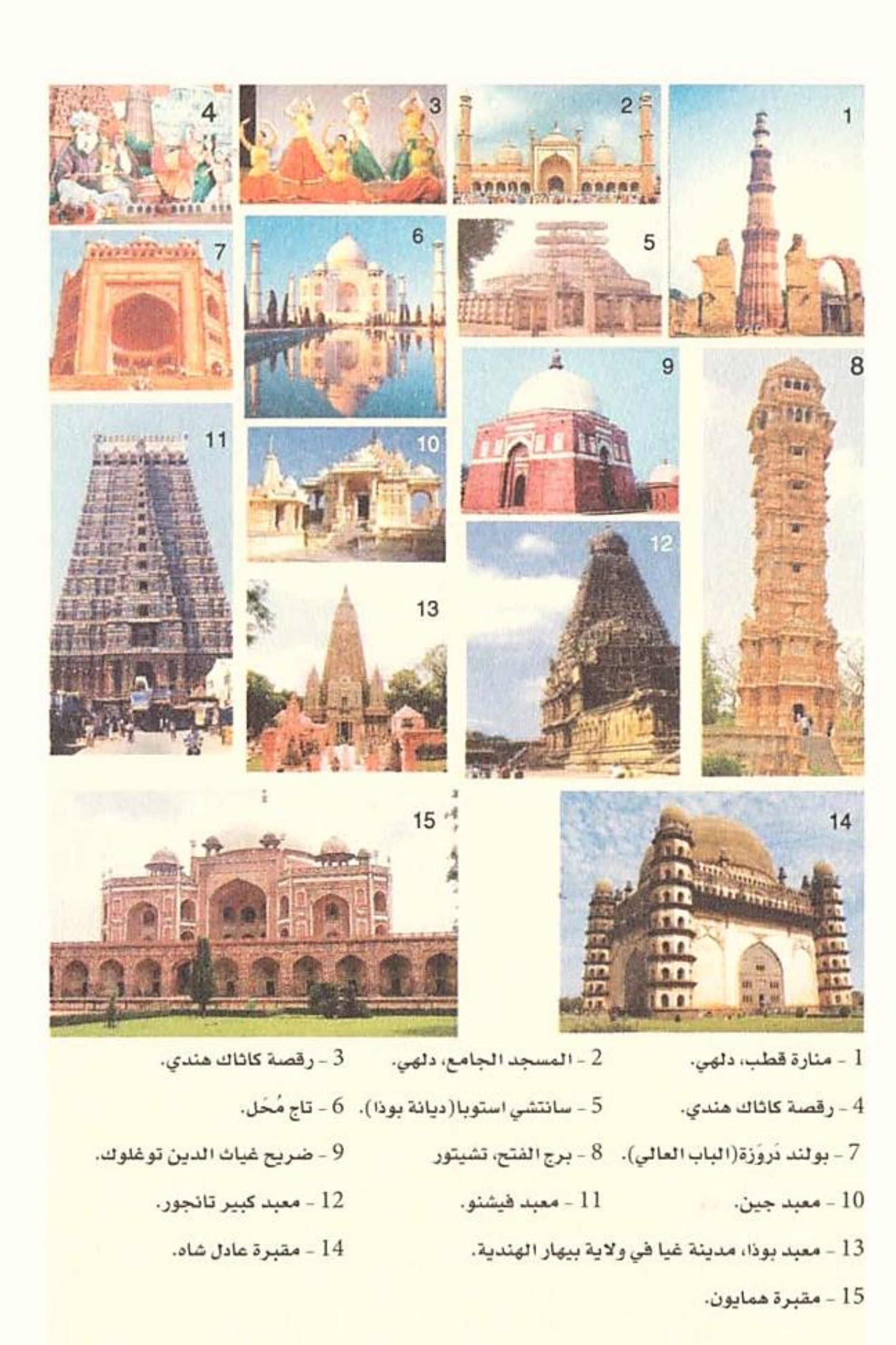
ومن الناحية السياسية فإن الهند قد اختارت لنفسها نظاماً جمهورياً ديمقراطياً ضمن لجميع الرعايا حرية القول والعمل والتفكير والاعتقاد.

وهي تعمل جاهدة للقضاء على الفوارق المبنية على الامتيازات. وإلى أن يتسنى لها تحقيق المساواة، فقد أقدمت الهند على بعض التدابير للنهوض بأفراد الطبقات المنبوذة والأخذ بيدهم. أما مجموعة الشعب فإن شعورها كأفراد بكرامتها ومسؤولياتها آخذ بالازدياد. وتجهد الدولة من ناحيتها لتقديم الخدمات لخير الشعب مع ضمان الحرية الفردية. ومن مميزات سياسة الهند الداخلية عنايتها بالمصلحة العامة على نفس النحو الذي تعنى به بتأمين الحرية الفردية. والواقع أن محاولتها الجمع والتوفيق بين المبدئين تعتبر من الخدمات التي أسديت للسياسة الخارجية. ذلك أن الأهمية الدولية التي اكتسبتها الهند مردها الإدراك المتزايد بأن عالمنا الحاضر يفتقر أشد الافتقار إلى هذا الطراز من المجتمع.

إن ما تم من نقد سياسي واقتصادي على جانب من الأهمية. والنهضة التي حققتها الهند في الميادين الفنية والحرفية، بعثت نشاطاً كبيراً في شتى النواحي والميادين الأخرى. ويستمر إحياء الاتصالات الثقافية القديمة، لإقامة اتصالات جديدة أخرى. ويتجلى أكبر برهان على نهضة الهند الحديثة في الجهود التي تبذلها لإعادة بناء الحياة الريفية وتنظيمها. لم يطرأ أي تبديل على القرى منذ قرون. فالأحوال السائدة في المناطق الريفية قبيل عهد الاستقلال، لا تختلف أحياناً في شيء عن الأحوال والظروف التي كانت تخيم على الريف الهندي منذ ثلاثة آلاف سنة. أما الآن فهناك مساع جبارة لقلب طراز الحياة الريفية رأساً على عقب. من تلك الجهود المبذولة في سبيل بناء طرق جديدة في أماكن تفتقر إليها. ولأول مرة في التاريخ الهندي المدوّن، بدأت المدارس تبنى وتقام في أماكن بعيدة نائية. وهناك مشاريع الري التي توفر المياه وتستصلح أحياناً الملايين من الأفدنة من الأراضي القاحلة. ولأول مرة يجرى تنظيم الخدمات الصحية على نطاق ومدى قومي. وتبذل أقصى الجهود لتعويض القرويين عما فاتهم من نعيم بسبب الإهمال الذي عانوه لقرون.

لقد بدأ الريف الهندي يتحول ويتبدل أمام أعيننا بفضل الوسائل الحديثة الرامية إلى تحسين طرق الزراعة والري والسهولة في المواصلات والنقل والشؤون الصحية والتعليمية.

إن هذا التقدم يعتبر مهماً في حد ذاته إلا أن ما يكسبه أهمية على أهمية هو ما يبديه أفراد الشعب من نشاط تجاه الواجبات والمسؤوليات الجديدة. صحيح أن الدولة هي التي أخذت على عاتقها في كثير من الأحيان إعداد المشاريع الإنشائية والشروع بها، ولكن المهم في الأمر أن تجاوب الشعب معها وتعاونه كان رائعاً في نطاقه. في الماضي، كان الشعب يتطلّع دائماً إلى الدولة ويعتمد عليها في كل خطوة من خطوات الإصلاح. أما اليوم فإن الشعب نفسه كثيراً ما يتولى زمام المبادرة، سواء في إعداد مثل هذه المشاريع أو في تنفيذها. إن نهضة جديدة في مختلف نواحي الحياة قد اجتاحت المدن والمناطق الريفية على السواء، وأوقفت بذلك الجمود الذي كان يلازم القرويين ويسيطر عليهم. وها هو الشعب الهندي العريق سواء في المدن أو القرى قد استأنف سيره نحو ما يصبو إليه من الأهداف الجديدة الرامية لتحقيق السلم الاجتماعي والعدالة الاجتماعية وتحقيق شخصية الفرد وذاتيته.



1 - منارة قطب، دلهي. 2 - المسجد الجامع، دلهي. 3 - رقصة كاثاك هندي.

4 - رقصة كاثاك هندي. 5 - سانتشي استوبا(ديانة بوذا). 6 - تاج مُحل.

7 - بولند دَروَزة(الباب العالي). 8 - برج الفتح، تشيتور 9 - ضريح غياث الدين توغلوك.

10 - معبد جين. 11 - معبد فيشنو. 12 - معبد كبير تانجور.

13 - معبد بوذا، مدينة غيا في ولاية بيهار الهندية. 14 - مقبرة عادل شاه.

15 - مقبرة همايون.

التراث الهندي

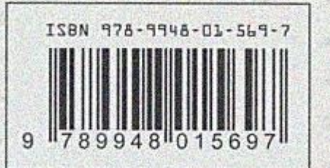
من العصر الآري إلى العصر الحديث

يتناول هذا الكتاب تاريخ الهند وتراثه وثقافته منذ العصر الآري إلى العصر الحديث من منظور سياسي، من أجل تفهّم ما جرى من عمليات عدة لتوحيد الهند. ولا يوجد مصدر في العربية يتناول موضوع الهند على هذا النحو الواسع، ولذلك فإن الكتاب يعطي فكرة عميقة وواسعة عن ثقافة الهند وحضارتها، ويتطرق إلى موضوعات مثل: أخلاق الهنود، وطباعهم ودينهم وفلسفتهم، وتراثهم وعمارتهم وفنهم وأدبهم، وتقاليد القص، والنهضة وحركة النهضة.

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة






ISBN 978-9948-01-569-7
9 789948 015697

cover by phxcom.com